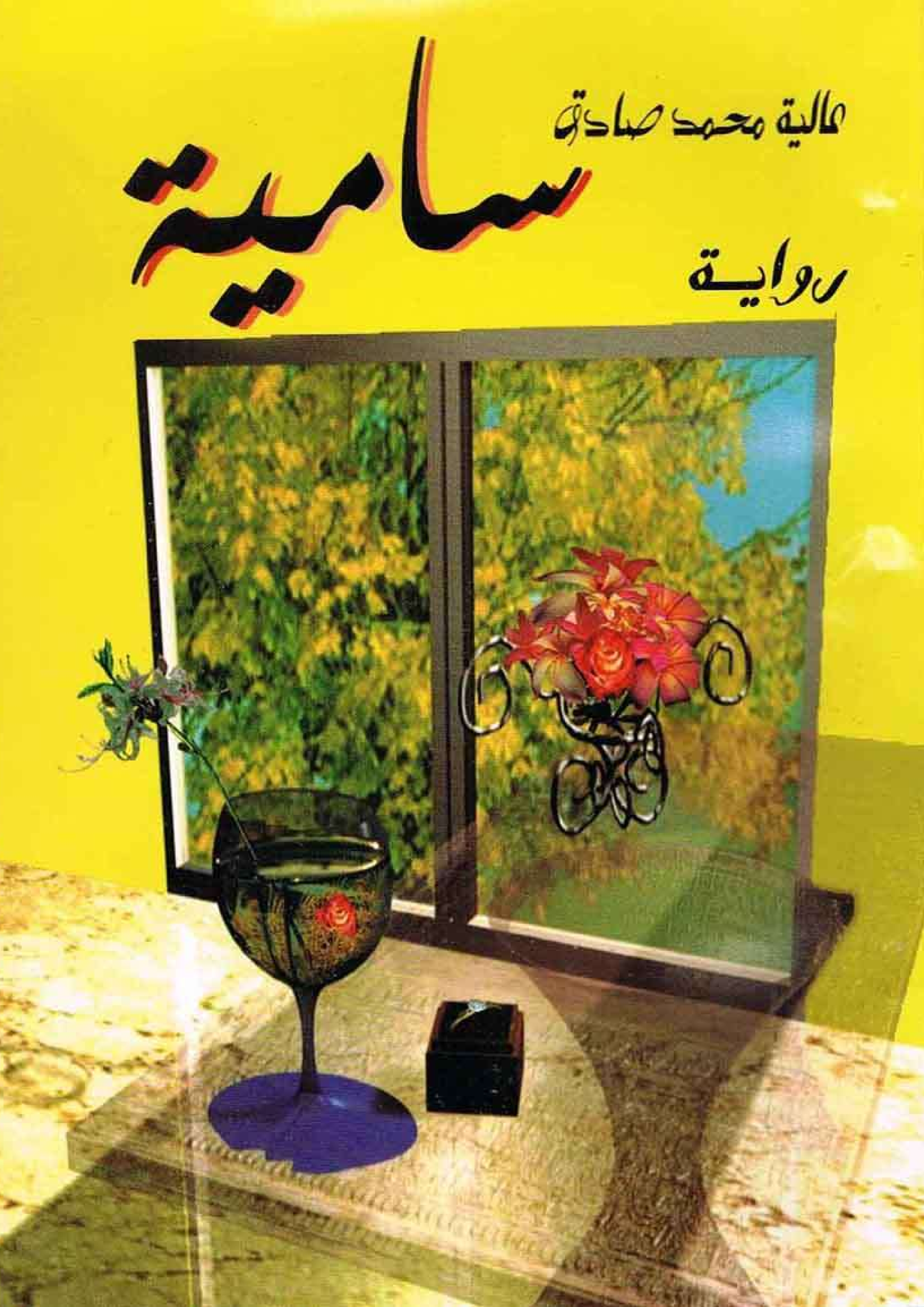
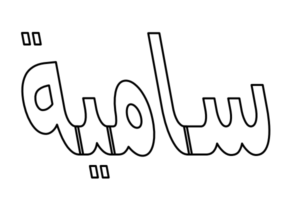
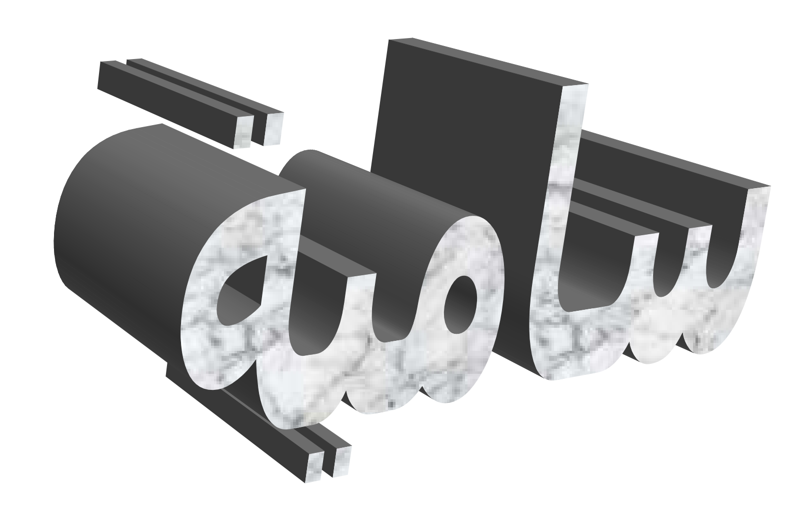

عالية محمد صادق
سامية
رواية


سامية

عالية محمد صادق



- 1 -

أطل الصبح ولما تغمض عيناي بعد، إلهي ماذا أفعل في هذه المشكلة؟ لا أستطيع أن أقرر ماذا أصنع، لدي سويعات معدودات فقط لكي أحدد مصيري ومستقبل حياتي، فأنا الآن بين نارين ومصيرين أحلاهما مر، ماذا سأقول لأبي غداً، وما الذي سأخبر أخي به، أأرفض معتقداتي ومبادئي أم أنحّيها جانباً؟! أأرضى بالزواج من (سامي) أم أرفضه؟!

كانت ليلة عصيبة لن أنساها مدى الحياة، حينئذ كنت في التاسعة عشر من العمر .. وعلى مفترق طرق ... منذ متى بدأت هذه المشكلة التي أرّقتني تلك الليلة؟ .. لأعد إلى ما قبل حدوث المشكلة ... إلى متى ... إلى الوقت الذي كنت لا أفهم فيه شيئاً من مصاعب الحياة وهمومها عندما كنت لا أزال طفلة صغيرة يُفترض لمن في سنها المرح واللعب واللهو ... لا أذكر ما يُفرح القلب ... أتذكر فقط كيف كنت أصدُّ ضربات شقيقي (حسن) بيدي الصغيرتين ... لم يكن أكبر إخوتي فهو يكبرني بعام واحد فقط في حين أن شقيقي الأكبر متزوج وله أطفال في مثل سني .

كنت أدافع ما استطعت بكفي الصغيرتين أتفادى بهما لطماته السريعة التي لم يردّها أحد عني ... وكيف يرتدع ونظرات الإعجاب به من قبل الوالدين تدعمه بزخم كبير من الإقدام والجرأة ... وهو أمر طبيعي في أكثر العوائل التي تهتم بالابن أكثر من البنت وتدعه يمعن في إثبات تفوقه كصبي . وقد حفظت الجمل لكثرة تكرارها مثل: " أي والله إنه رجل منذ نعومة أظفاره "، " دعه يضربها لكي يصبح رجلاً في المستقبل " و " ما شاء الله انظر إلى كفه كم هي قوية "!! وبالطبع كان الفائز في مباراة الملاكمة الدائرة بيننا دوماً هو (حسن) .

الواقع أن إحساسه بالتفوق علي قد خلق في نفسي نفوراً وخوفاً من الجنس الآخر، أقل ما يقال عنه أنه الشك في صدقهم، هذا الخوف لازمني حتى هذه اللحظة ... واعتقدت آنذاك أن للابن الحق في الضرب، والاستماع إلى المديح، وعلى البنت تلقي الصفعات دون أن تنبس ببنت شفة ... لا علينا ... انقضت تلك المرحلة العصيبة وبدأ جسمي بالنمو السريع ... وسبب دلك هو التجائي لالتهام الطعام بشراهة كمتنفس للحالة المؤلمة التي كنت أعيشها ... أما أخي المسكين فقد هزل جسمه ونحف لفرط غيرته مني ... كان منظرنا سوية يثير الضحك لدى الناظر، إذ كنا معاً نمثل الرقم 15... وقاربت شقيقي بعدها في الطول فاستطعت أن أدافع عن نفسي أفضل من السابق مما جعله يخفف من حلبات الصراع لئلا يرد له الكيل كيلين ...

وبدأت مرحلة الدراسة، لم تكن المنطقة التي عشت فيها آنذاك بالمدينة الكبيرة رغم أنها قريبة من العاصمة، لذا فقد كان الاتجاه العام لدى الأهالي هو حث الذكور على الدراسة أكثر من حث الإناث عليها، فكيف بي والجميع يريد لـ(حسن) التفوق والفخر! ولم يهتم أحد لتفوق (سامية) — لي أنا — أو إحساسها بالنجاح ...، وعندما كبرت أدركت أن والداي لم يتعمدا إهانتي ولا أذاي، ولكن كيف لمن في سني تلك أن يستوعب عقلية الكبار ... فرح الجميع بتسجيل (حسن) في المدرسة الابتدائية ووزعت الحلوى في الدار وجلس (حسن) إلى جوار والدي على الأريكة الكبيرة في غرفة الاستقبال فرحاً مستبشراً وأحضرت أمي صينية الشراب وهي تطلق الزغاريد وجاءت الجارات مهنئات مباركات دخوله المدرسة الابتدائية! ولم يكن هذا بعجيب إذ كان (حسن) هو الوحيد الذي سجل اسمه في الصف الأول من أهل الحي بأكمله، ولم تسعه الفرحة وقد ارتدى السراويل الجديدة وهو يتمشى جيئة وذهاباً مختالاً بها ويتعمد النظر إلي من زاوية عينيه مكايدة منه لي على عدم استطاعتي نيل هذا الشرف، لا أنكر أنني حزنت لنظرته تلك للحظات لكني

فرحت كثيراً جداً وربما أكثر منه لأنه كان فرحاً، فعندما يفرح يكف عن المشاكسة باليد والقدم ... لكن الطامة الكبرى كانت في والديّ اللذين كانا أميين ويؤكدان نبوغه وتفوقه عليّ، وعلى عدم صلاحيتي أو أهليتي للحاق ولو بذرة صغيرة من ذكائه!! وقد حزّ هذا الأمر في نفسي كثيراً وجعلني أتساءل فيما بيني وبين نفسي أحقاً هو أذكى مني؟! وكيف عرفا بنبوغه وهو لما يدخل المدرسة بعد؟! ولماذا يصران على هذا الأمر؟! في الحقيقة إنّ والدي الطفل هما أعز ما يملكه في الحياة وليس له سواهما منبع للحنان، ولا يتحمل أن ينسياه وإن كانا مشغولين بفرحهما عنه، في غمرة فرحهما بـ(حسن) نسياني وآلمني ذلك كثيراً فآليت على نفسي الانزواء عنهما، إنهما يؤمنان بذكاء (حسن) وتفوقه علي ويريدان أن أقتنع أنا أيضاً بذلك وهو أمر فوق طاقتي لأنني كنت أراه أقل ذكاءً، تأكدت من هذا أثناء لعبنا سوية ... كان ينفجر غضباً لتفوقي عليه ثم يغش دائماً ليربح اللعبة، وتنتهي ألعابنا دائماً بزعيقه وصراخه وقبل أن يبدأ بكيل اللكمات تهرع أمي للمساعدة ! لم تكن تضربني لكنها تعنفني كثيراً فيشمت بي وينتهي اللعب ... حينها اعتقدت أنها تكرهني، لكن عندما تجاوزت تلك المرحلة عرفت أن مواقف والدتي إنما كانت لحمايتي من تلقي المزيد من الضربات وهي لم تكن تملك وسيلة سوى ذلك .

انطويت على نفسي أكثر واعتبرتهم — أمي وأبي و(حسن) — أعداءً وأصبحت أخشاهم ... ففي ذات مرة كنت ألعب و (حسن) في حديقة الدار، وأنا ألعب معه بعد أن يسمح لي طبعاً باللعب بعده وإلا فالويل لي، اللعبة هي حارثة الأرض بفأس أبي الكبيرة، الوقت ضحى والجو منعش رطب فإذا بأبي يناديه، ترك (حسن) الفأس ودلف إلى الداخل مستجيباً لمشيئة أبي، وما هي إلا ثوان وأصبحت الفأس تحتل أناملي الصغيرة أضرب بها الأرض بعنف مستغلة كل لحظة من اللحظات قبل حضور (حسن) ... ولم أتوقع عودته بهذه السرعة ... وكالعادة فاجأني بزعقة من خلفي فأفلتت الفأس من يدي لتقع على أعلى جبهته ... التفت إليه لأرى ما حدث فراعني منظر الدماء التي غطت وجهه، أغمضت عينيّ وصممت أذنيّ عن صراخه اختفيت في داخلي كالنعامة التي تخفي رأسها في التراب ... تخيلته وأنا مغمضة العينين ... تعلوه الدماء ... وسبب ذلك هو ... أنا ... وإن أقسمت أغلظ الأيمان فلن يصدقوا أن ما حدث كان صدفة ... يا لخيبتي ... أنا لا أرفع يدي بوجهه وحالي على ما هي عليه فكيف بي وقد ضربته — على ما سيظنون — وأية ضربة!! سالت فيها الدماء!!!

دخل (حسن) إلى الدار مولولاً ... فكرت ماذا عليّ أن أفعل في هذه الحالة؟! لن تنقضي لحظات حتى يحضر الجميع ... لم أشعر إلا وأنا أهرول هاربة من الدار ... إلى أين؟! لا أعلم ... إن اتخاذ القرار والالتزام به لمن هم دون السادسة من العمر أمر صعب للغاية .. استجمعت قواي وأخذت أركض وكأن جيوشاً جرارة أو ذئاباً مفترسة تطاردني ... لم يوقفني عن الركض سوى ألم حاد في رئتيّ جعلني أستند إلى باب أحد بيوت الحارة لألتقط أنفاسي بصعوبة بالغة ... مضت عدة دقائق وأنا على تلك الحالة ... تلفتُّ حولي فرأيتني قرب بيت أخي الكبير، قادتني قدماي دون وعي مني إليه، هدَّأت من مشاعري قليلاً .. طرقت باب الدار .. كان لزوجته أخلاق دمثة، هذا ما قلته لنفسي كلما زرتها مع أمي علاوة على أنها ابنة خالتي أيضاً ... لكنني وفي هذه المرة فوجئت بانزعاجها لرؤيتي، فهذه هي المرة الأولى التي أزورهم فيها لوحدي ...

زعق شقيقي بأعلى صوته مؤدباً أطفاله، لقد كنت في موقف لا أحسد عليه ... جلست بهدوء وانزويت في مكاني، لم يرحب بي أحد، ولم يحفل بمقدمي أيٌّ منهما، تعجبت كثيراً إذ كانا سابقاً يهشان لي ويبشان ويداعباني مجاملة لي ... أو بالأحرى لأمي ... ابتدرني أخي:

- ما الذي جاء بك يا (سامية)؟
- اشتقت لرؤية الأطفال .
- مُتِّ ومات الأطفال معك .

التفت إلى زوجته أبحث في وجهها عن استنكار لما قاله، فرأيتها لا تبالي بفظاظته، أصبت بخيبة أمل عظيمة فنهضت مودعة وجررت قدماي بتثاقل وعدت أسير ببطء في الشارع المؤدي إلى دارنا .. لا أعلم ماذا أفعل ولا إلى أين أتجه ... وفي غمرة أفكاري وحيرتي تلك سمعت صوتاً محبباً إلى أسماعي يناديني بطيبة:

– أيتها الملعونة الصغيرة ... إلى أين هربت؟

وقرص خدي بحنان ثم ضمني إلى صدره وحملني طوال الطريق إلى البيت ... كان ذلك هو أبي، قلت له:

– بابا، أنا لم أضربه، سقطت الفأس لوحدها على رأسه .. أقسم لك .. أقسم لك على ذلك .

– لا عليك ... نحن نعلم كل شيء، ولا تثريب عليك .

– و ماما، ماذا ستفعل! هل ستضربني؟

احمر وجه أبي وقال بجد:

– كلا .. لا تخافي نحن نحبك كما نحب (حسناً) ولا خوف عليك من أحد .

وصمت فألقيت برأسي على كتفه وقد أحسست بالثقل ينزاح عن كاهلي .

منذ ذلك الوقت أصبحت طفولتي أكثر سعادة مما مضى فكأن كلمات أبي فعلت فعل السحر في نفسي . عندما وصلنا البيت وليطمئنني أكثر قال وسط تعجب الجميع وهو لا يزال يحملني:

– ستذهب (سامية) إلى المدرسة هذا العام مثلها مثل (حسن) .

مرت الأيام والسنون بسرعة وذهبت إلى المدرسة بإصرار والدي، واتضح للجميع أنني لا أقل ذكاءً عن أخي (حسن)، وتغيرت نظرتهم إليّ تبعاً للتفوق الدراسي الذي كنت أحرزه طوال السنين .

انتقلنا من حيّنا الصغير إلى محلة أكبر وأرقى، أما أبي فبقي على عمله اليدوي في معمل النجارة على الكسب البسيط الذي كان يتقاضاه، أراد أن يطور معيشتنا بتطويره لعمله لكنه كان بحاجة إلى من يمده بالمال لافتتاح محل كبير للنجارة ... دارت أغلب أحلامه حول شراء مخرطة ومنشار كهربائي يضفي بها زينة ورونقاً على عمله ... ذات مرة حاول أن يقترض المال من شقيقه الأكبر ليتم به مشروعه إلا أن محاولاته باءت بالفشل، فعمي رجل ثري ومتكبر في آن واحد وقد عزل نفسه عن أقاربه أجمع خوفاً أن يطلب أحدهم منه مالاً أو قرضاً أو ربما مساعدة في شأن من الشؤون ... كان أبي يسخر منه دوماً قائلاً لوالدتي:

– إنه لا يرد السلام خوفاً أن يطلب السائل منه مالاً!

– هذا هراء، إنه أخوك على أية حال وعليه مساعدتك ... ثم ... ثم إنه يسيطر على جميع أموال والدك ... فإن طلبت منه مساعدة فإنك بالأحرى تطلبها من أبيك ... ونحن نحتاج الكثير ... ليس لعملك فقط ... بل لحياتنا المعاشية أيضاً!!

واستمر النقاش عشية ذلك اليوم، وانتهى باقتناع أبي برأي أمي وتقرر أن أرافقه عصر يوم غد إلى منزل عمي .. وليتني لم أفعل ... ليتني لم أذهب ولم أر عمي يهين أبي زاعقاً في وجهه:

– مال!!! أنت أيضاً تريد مني المال!! وكيف آتيك به؟ إن لي معملاً كاملاً أغلقت أبوابه لعدم وجود ما يكفي لرواتب العمال ... وأنت تأتيني اليوم لتقترض مني المال؟ ... ظننتك جئت لزيارتي ... ثم ... ثم ... لم لا تطلب ذلك من أبيك ... ها ... الثروة الهائلة التي يكتنزها ولا يخرج منها إلا النزر اليسير ...

واستمر الجدال بينهما، كان (سامي) ابن عمي الأكبر واقفاً ينقل نظراته بين أبي وأبيه ورغم أنه يكبرني بأعوام سبع إلا أنه تمثل بدوره قسمات أبيه وأخذ يتصرف كعمي، تارة ينظر إليّ بحقد وأخرى يضم إليه يديه بعصبية ولم يجد من يفرغ حقده فيه سواي فلطمني لطمة على وجهي صائحاً بفظاظة:

– أيتها الغبية ... لقد وسخت الأريكة ... لقد سكبت الشراب عليها ..

الواقع إن صراخ عمي وزعيقه شغلني عما في يدي فلم أشعر بالقطرات تنحدر من كأسي ملوثة الأريكة التي جلست عليها ...

ران الصمت على الجميع لصوت الصفعة ونظر أبي إليه متوقعاً من عمي أن يعاقبه على فعلته هذه ... ولكن للأسف بدلاً من ذلك أبدى سروره لابنه وقال له:

– لا تلمها يا (سامي) ... تصورت هذه الأرائك الثمينة مثل أرائكهم الرثّة فلم تبال ...

منذ تلك اللحظة كرهت عمي وكرهت (سامي) معه ولم أعلم أن القدر كتب لي معه قصة ستطول، وهنا استدار أبي في مواجهة عمي كاظماً غيظه محاولاً ألا يفضح غضبه:

– أنت أخي الكبير ومهما قلت أو فعلت فإنك في مقام أبي، لكن عليك بتربية ابنك الوقح هذا ... ثم ... ثم ... إنك قد احتجزت أبي وسيطرت عليه وعلى أمواله ... لماذا لا تدعوه ليسمعني ... بل ... بل لماذا تمنعني من التحدث إليه ... هل تحتفظ به كرهينة في بيتك .. أتنتظر موته لتستولي على أمواله ... بئس الابن أنت ... أتظن أن الله سيدعك تنال ما في ذهنك أو أنه غافل عن ذلك ... أتظن أنك ستبقى ويموت أبي لا سمح الله ... بل .. أنت .. بحرصك وبدانتك هذه ... ربما ... ربما .. واتتك المنية قبله ...

وانفجر عمي غاضباً يرد على أبي، لكننا سمعنا صوتاً آمراً يأتي من أعلى السلم يقول:

– توقفا ... كفّا عن الشجار ... ألا تخجلان من نفسيكما؟ تتحدثان عن موتي ... وأنا لا أزال على قيد الحياة ... أيها اللئيمان ...

نظرت إلى مصدر الصوت ... نعم ... إنه جدي بنفسه الذي وقف بهيبته أعلى السلم المطل على باحة الدار ... شيخ جاوز الستين من عمره، إلا أن مظاهر الصحة والقوة تجعله يبدو وكأنه في الخمسين، نزل السلالم ببطء مستنداً على عصا خشبية طويلة حتى وصل إلى حيث وقف عمي وأبي ... بادره عمي بتملق واضح:

– اسم الله عليك يا أبي ... لا عليك بما سمعت ... إذ كيف تطيب لي الحياة من بعدك ...

توقف عمي عن الكلام لأن جدّي حدّجه بنظرة قاسية ولسان حاله يقول له لا تكذب ... تقدم نحو أبي فسارع أبي إلى تلقف يده وتقبيلها بينما سحبها جدّي برفق واحتضن أبي ولاحت لي الدموع في عينيهما واضحة، سأله جدّي:

– كيف حالك يا ولدي لم أرك منذ أكثر من عامين ... لم لا تسأل عني يا بني؟ ...

خفض أبي عينيه خجلاً بينما أكمل جدّي قائلاً:

– أعلم ... أعلم ما ستقوله ... إن هذا اللئيم – وأشار إلى عمي – قد منعك من ذلك ... يريد الثروة له وحده ... إنك ومنذ أن خاصمك وطردك من بيتي، اعتمدت على نفسك واتخذت لك عملاً شريفاً وزوجة شريفة ... قنعت بك كما أنت .. لم تطمع في مالي .. ولم تسألني يوماً أن أعطيها شيئاً رغم مرور الأعوام والسنين ... ورغم أنك أصبحت أباً ... لكني لا أذكر أنك طلبت مني مالاً يوماً ما ... وإن كنت أتمنى دوماً أن تفعل ذلك ... لكنك كأبيك أبيّ النفس ... وهذه البنت الجميلة ... – والتفتَ إليّ وكن لا أزال أضع كفي على محل الصفة التي تلقيتها على وجهي – فتقدم نحوي وأزاح كفي عن وجهي ثم قبّلني وقال:

– أمثل هذه الفتاة الجميلة يصفعون؟ .. لقد شاهدت كل شيء ... أين هو كأس الشراب؟ ..

ناولته إياه ... بعد أن كنت وضعته على المنضدة خوف أن ينسكب ما بقي من شراب ولم أذق منه شيئاً بعد .. تناوله جدّي من يدي واتجه نحو المقعد الثمين الملوث وأخذ يسكبه عليه ببطء حتى أفرغ الكأس .. أحسست براحة كبرى وداخلني إحساس بالزهو عظيم، وبتشف نظرت إلى (سامي) وضحكت بفرح طاغٍ وأنا أنطلق نحو جدّي فأحتضنه بيدي الصغيرتين وأقول له:

– مرحى لك يا جدي .. يا أحسن جد في الدنيا ... أنا .. أنا أحبك كثيراً .. كثيراً جداً .

دمعت عيناه لسماع ذلك مني وربّت على رأسي بحنان بالغ والتفت نحو (سامي) الذي كان ما يزال واقفاً ينظر إليّ شزراً لأنه أُهين أمامي وأكمل قائلاً:

– أنت تصفعها لأجل ماذا؟ لأجل مقاعد لا تملكها لا أنت ولا أبوك ... ثم ألا تحترم عمك يا ولد!!

التزم (سامي) الصمت ولم يحْر جواباً ... وتدارك عمي الموقف فألح على جدّي بالجلوس على الأريكة خوفاً عليه من التعب، فجلس وأجلسني على ركبتيه بحنان وقال مخاطباً أبي:

– سلْ ما تشاء يا بني، سأعطيك ما تحتاج إليه ...

صرخ عمي باهتياج:

– هذه ليست عدالة، لا يجب أن تعطيه قرشاً واحداً ... إننا عائلة كبيرة العدد ولا يكفينا ما لديك للنفقة .. فكيف للقروض؟ ..

قاطعة جدّي بعصبية:

– أنا حرّ فيما أفعله بمالي ... وأنا أهبه المال لا أقرضه إياه ... لا تحاول مقاطعة حديثي ثانية ...

وأكمل حديثه لأبي:

– نعم ... إن لك الحق في طلب ما تشاء ... كم تريد ألفاً؟ ... ألفين من الدنانير؟ ... فقط قل ...

أجابه أبي بفرح غامر – رغم نظرات عمي الغاضبة ورغم حركته المستمرة رواحاً ومجيئاً –:

– فقط أنا أحتاج إلى خمسمائة دينار .. لأوسع بها عملي إن سمحت وسأسددها لك عندما يتحسن وضع العمل إن شاء الله ...

وتشعب الحديث بعد ذلك ... لكني لا أنسى نظرات (سامي) الحاقدة إليّ، ولا أنسى الكراهية التي ارتسمت على وجهه الغاضب آنذاك، فهو لم يحظ في يوم من الأيام –كما فهمت فيما بعد – بمثل ما نلته من محبة جدّي ولطفه في تلك اللحظة .. كانت لحظة حاسمة في حياتي، لحظة حددت مصيري ومستقبل حياتي .. إذ إن جدّي وفي فورة غضبه من عمي وابنه أقسم أن يذل الأخيرين وأن يرفع من شأني – حسب اعتقاده – إلى مستواهما، وأن يزوجني من (سامي) حين أبلغ التاسعة عشر من العمر!!

صعق عمي وأبي لسماعهما هذا النبأ، فعمّ السكون المكان وأتم جدّي:

– سأودع في المصرف مبلغ مائة ألف دينار لكل من (سامي) و (سامية) ولن يستلماها إلا بعد مرور عام كامل على زواجهما! ..

أجاب عمي:

– وإن رفضت ذلك لابني!

– من لا يرضى بهذا يحرم من المبلغ ويعطى للآخر، لا تتكلم الآن ستنال أنت وأخوك عند زواجهما مبلغ الخمسين ألف دينار الباقية أما إذا رفضتما ذلك فسوف أتبرع بما أملك وفي حياتي للمشاريع الخيرية ..

ابتسم عندها عمي بخبث وكأنه تأكد من رجوع الثروة إليه كاملة فيما بعد، بينما سمعنا صوت الباب وهو يصفق بشدة خلف (سامي) المنزعج، وبالطبع لم أفهم شيئاً حينها، ولكنني أحسست أن أمراً مؤلماً قد حدث، وذلك من خلال قراءتي لتعابير وجه أبي المتألمة ... هممت أن أسأله، لكنه غمغم قائلاً بشيء لم أستوعبه:

– أتريدني أن أبيع (سامية) لقاء المال؟ لا .. لن أفعل ذلك .. مستحيل ...

ضحك عمي بنشوة؛ إلا أن جدّي أجاب:

– ومن أراد شراءها لكي تبيعها!! أنا أريد لـ(سامي) زوجة أهلاً له ولائقة لمكانته ومكانة أبيه، كأمها قنوعة وشريفة، وهذه الأموال التي أنفقها ليست لشراء أحد، وليس هنالك أي استغلال في الأمر .. فإذا كنت تحبني حقاً فلبِّ طلبي هذا ...

بعد صمت لحظات أجاب أبي بحنان:

– كما تشاء يا أبي ..

ابتسم جدي وعمي ولدهشتي رأيت عمي يصافح أبي بل ويحتضنه مقبّلاً:

– سامحني يا أخي ... لتكن هذه الزيجة نقطة التقاء بيننا لا فراق بعدها ..

أمسكت بيد أبي خائفة للاسبب معلوم واستأذن أبي مودعاً فاستمهله جدّي واضعاً في يده الكثير من الأوراق المالية .. رفضها أبي في البداية ثم استسلم أمام إصرار جدّي ... تبادلا النظرات للحظات ثم انحنى أبي يلثم يد جدّي ... وفي طريق العودة حاولت أن أفهم من أبي ما الذي حصل لكنني لم أفلح فقد بقي صامتاً طوال الوقت عدا ما تمتم به من لعن للفقر والحاجة التي تجبر الإنسان على فعل ما لا يريد أو ما لا يحب له ولأولاده.

* * *

- 2 -

علت الزغاريد في دارنا، كانت أمي تطلقها بفرح غامر والجارات من حولها يهنئنها ويربّتن على شعري وظهري، شعرت بالفرحة تجتاحني لأن الجميع أخذوا يبدون بي اهتماماً وتوجهاً كبيرين، لم أكن أعلم بأن أمي ستفرح إلى هذه الدرجة بما عاد به إليها أبي، وهي تمسح دموع الفرح من عينيها قالت لي:

– أوه يا (سامية) ... لشد ما فرحت لك ... ستعيشين عيشة الأغنياء، و ... و .. وستفرحين وترتدين أجمل الثياب ... لم أكن أعلم كم هو خير في وجودك معنا ... لقد اغتنينا والله يا حبيبتي ...

صفق الجميع تلك الليلة وفرحوا، وفرحت معهم فقد ألبسوني ملابس جديدة برّاقة وأحاطوني بكثير من العناية، أغدقوا علي مبالغ لم أكن لأحلم بها، إضافة للحلويات التي التهمتها بنهم وولع شديدين، وكنت كلما أخذت قطعة كبيرة من الحلوى رددت أمي مخفية إحساسها بالخجل لتصفي هذا:

– كلي ... كلي يا حبيبتي ونور عيني ...

ثم تلتفت قائلة لصاحباتها:

– هذا من حقها، ثم إنها لا تدرك أهميتها لدينا، إنها لا تزال طفلة!!

فيرددن معها:

– هذا صحيح ... فلتفعل ما يحلو لها ...

الواقع أنني فرحت جداً بهذا التغيير ولم أعلم أن هذه اللحظات هي احتفال العرس – لا وجود للعريس فيه – سيتم بعد سنوات عديدة ... نعم ... لي ولابن عمي!!

الطريف في الأمر أنني عندما استيقظت في اليوم التالي كن أود ارتداء الملابس ذاتها واشتقت لحضور الجميع حولي ... وعندما أخبرت أمي بذلك ضحكت مني هي وأبي كثيراً ... ولم أعلم لماذا!! وتجاهلت الأمر وأودعته طي النسيان وذلك لأن أخي أخذ يزعق ويشاغب محاولاً جلب الانتباه إليه، الانتباه الذي فقده منذ أن وضعت قدميّ في منزل عمي .

أثّرت النقود التي استلمها أبي على مستوى العمل في محله فوسع معمل النجارة بشرائه معدات جديدة وبالتالي فقد ارتفع مستوانا المعيشي أيضاً .. وكالعادة فإن للمال الأثر السيئ في الوجه الآخر للنعيم إذ أن المال أينما حلَّ أجج نار الجشع والطمع وغلفه بمسميات أخرى مثل الطموح والكفاح من أجل الحياة ... وكذلك فعل في بيتنا، إذ تراكمت المشاريع كثرت معها الديون وتعاظمت الآمال المعقودة على تركة جدي بعد وفاته!!

كبرت وأنا لا أحمل هماً ما، إذ أنني اعتقدت – ولبساطتي – أن الأمر رمزياً لا يعدو ذلك الاحتفال البسيط، وفاقم هذا الإحساس لديّ تلميحات عمي عن عدم دوام عمر جدي لحين بلوغي سن التاسعة عشر.

الرفاه المادي الذي دخل إلى عائلتنا نقلنا إلى مكان أكبر وأفضل مما سبق وفي موقع أرقى من المدينة ... ولكل محيط "آداب" تختلف عن المكان الآخر، وكان من ضمن "الإتيكيت" الجديد إكمال الفتيات دراستهن الجامعية – وكان هذا من حسن حظي طبعاً – .

وكان للمسجد القريب من منزلنا الأثر الكبير في مجرى الأمور في دارنا، فقد احتلت الكتب الدينية الصدارة في مطالعاتي حيث أن أبي ينحدر من عائلة تعشق الدين الإسلامي وتقدسه ... وأما (حسن) فقد تغيرت شخصيته كثيراً عما سبق وأضحى أكثر جدية وانطفأت أو أطفأ نار غيرته مني واتخذت اهتماماته منحى آخر فأكثر من الذهاب إلى

المسجد برفقة أصدقائه في المدرسة، لذا كانت الأسئلة المطروحة في جلساتنا العائلية تدور في معظمها حول مواضيع كان قد سمعها أو ناقشها مع أصدقائه فمثلاً كانت تجتذبه فكرة الآية الكريمة:﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾ وجاء مرة إلى البيت بعد أن قرأها ... سألني:

– إيه يا (سامية) ماذا تفهمين من هذه الآية الكريمة؟

– عموم الآية يدل على حوار بين جماعتين، إحداهما تطلب من الأخرى ألا تعظ الكفار أو من سيحل عليهم العذاب، وكانت الإجابة أنه ... أنه ..

– أنه ماذا؟

– لا أعرف!

– على أية حال أحسنت ... هذه الآية تشرح حال ثلاث فئات من الناس، وهي خاصة باليهود، فئتان منهما مؤمنتان والفئة الثالثة كافرة سادرة في غيّها وظلمها، الفئتان المؤمنتان إحداهما جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وهم دعاة إلى سبيل الله تعالى والجماعة الأخرى فئة مؤمنة كسولة ومتقاعسة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يداخلها اليأس من جدوى ذلك مع الكفرة، وأحب أن أتوقف عند هذه الفئة قليلاً، ماذا توحي لك هذه الكلمة، لم تعظون؟

– أيمكن القول إنهم ينهون عن المعروف مثلاً بقولهم "لا تعظوا"؟!

– هذا صحيح إن هذه الفئة من الناس تمثل الأغلبية من كل مجتمع تقريباً فهم يتخذون الدين ممارسة للعبادات التنسكية كالصلاة والصيام ويتركون العبادة في النهي عن المنكر لا بل وأكثر من ذلك أنهم يثبطون من يريد ذلك بمختلف التبريرات كأن يقولوا مثلاً أن لا فائدة من بذل النصيحة للآخرين لأن الله قد غضب عليهم فلن يتغيروا! أو غير ذلك من الأعذار ... بينما نرى أن جواب الفئة المؤمنة المملوءة بالتفاؤل والأمل في إرشادهم إلى طريق الصواب في كلمة "لعلهم يتقون"، ومن ناحية أخرى يريدون ... (ها أكملي!!)

– ماذا يا (حسن)!!

– من ناحية أخرى يريدون أن يتموا المسؤولية الملقاة على عواتقهم من إرشاد ونصح للآخرين، حيث قالوا: "معذرة إلى ربكم" إذن فالدافع الأصلي لديهم هو كسب مرضاة الله عز وجلّ، ومن ثم هداية الضالين ... هل تودين أن تعرفي ماذا حل بالفئات الثلاث بعد نزول العذاب؟

– وهل يحتاج الأمر إلى معرفة!؟ نجا المؤمنون وهلك الكافرون .

– أحسنت، ولكن الفئة المحايدة بينهما، المتقاعسة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ماذا حل بها؟!!

– إنهم مؤمنون، أليس كذلك؟؟

– نعم لكنهم تقاعسوا عن الجهاد في سبيل الله ولو بالكلمة، لا بل كانوا يثبطون معنويات الآمرين بالمعروف، في الوقت الذي يقول عز من قائل ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ .

– إذن! ماذا حدث لهم؟!

– حل عليهم العذاب وصُبّ عليهم صبّاً، نفهم من ذلك أننا يجب أن نكون واحداً من اثنين إما آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر أو مساعدين على ذلك .

وهكذا كانت جلسات الحوار بيني وبين (حسن) لذيذة وممتعة للغاية ... وزاد (حسن) من اهتمامه بتثقيفي أنا وأمي حيث خصص لنا جلسة أسبوعية يشرح لنا فيها آية أو آيتين حسبما يتيسر له من القرآن الكريم ويطلب مني تسجيلها ويرشدني إلى مطالعة أحد الكتيبات حول مواضيع مختلفة كالزكاة أو الصوم والصلاة أو حول سيرة النبي محمد (ص)، ثم يحدد في الجلسة القادمة حوالي ربع ساعة يسألنا فيها عما أنجزناه ...

وهكذا دخلت السعادة إلى نفسي واعتبرت تلك المرحلة من حياتي من أجمل الفترات فسلسلة المعلومات الواسعة التي حصلت عليها ساعدت ليس على هدايتي إلى الدين الحنيف فحسب بل على إبراز شخصيتي في المدرسة وبين زميلاتي وعُرفت في صفي المدرسي بالتديّن .

الواقع أن حب الإنسان للدين هو إحساس فطري ما لم تشوهْه الحضارة المزعومة فقد التقيت في المرحلة الثانوية من دراستي بفتيات طيبات للغاية لكنهن كن خليطاً من التناقضات، فمظهرهن ماجن لكن قلوبهن طيبة عامرة بذكر الله وحب رسوله (ص)، ومن بينهن زميلتي (خالدة)، السمراء المحبوبة ولم يكن لضعف جسدها أي أثر على خفة دمها وحلاوة أحاديثها، كانت المشاغبة الأولى في الصف وقائدة المشاكسات، والناظر إليها وإلى إبرازها لمفاتنها — على صباها - يتصور أنها تكره دينها الإسلامي أو حتى الاعتراف به، ولم يكن ذلك تصوري وحدي بل نظرة جميع طالبات الصف إليها حتى جاء اليوم الذي فهم الجميع فيه مشاعرها الحقيقية ... ففي ذات يوم وبعد أن أنهت مدرّسة الرياضيات شرح حصتها وكالعادة بدأت تتحدث إلى الطالبات في مواضيع مختلفة واندمجت بالحديث عن نفسها وعن قضائها لسهرة راقصة بين كؤوس الخمر، أثار كلامها هذا حفيظة الطالبات وقبل أن أتفوّه بكلمة رأيت (خالدة) وقد وقفت في محلها قائلة:

– ماذا تقولين يا ست!! لكن شرب الخمر حرام!!

ردت المدرسة:

– الخمر وشربه ليس بحرام .

– بل هو حرام لأن القرآن ذكر ذلك .

– القرآن الكريم ذكر أن الخمر رجس وليس بمحرم وأمرنا باجتنابه فقط وليس الامتناع عنه ..

– ما هذا الكلام يا حضرة المدرسة! هل يوجد في العالم من يقول إن الإسلام لم يحرم شرب الخمر!!

اندهشتُ والطالبات لموقف (خالدة) الجريء هذا في حين أكملت المدرسة:

– ما هو الدليل على ذلك ... لا توجد آية تدل على ذلك!

احمر وجه (خالدة) ولم تحر جواباً ... وبيأس اتجهت أنظارها نحوي وبلهجة حملتها الكثير من العتاب قالت لي:

– ما هذا يا (سامية) ألا تسمعين ما تقول هذه ... هيا ... قومي وادحضي آراءها ..

تبسمت مشجعة لها واستأذنت من المدرسة في الكلام، وبعد أن أذنت لي سألتها:

– ما هو الفرق يا سيدتي بين الحرام والرجس يا ترى؟!

– الحرام حرام، والرجس ذنب!

– ليس هذا ما قصدته يا ست ... لنعد قليلاً إلى الوراء حيث كيفية تحريم الخمر في الإسلام ... لم يحرم الله سبحانه وتعالى الخمر مرة واحدة على المسلمين وذلك لتعود العرب قبل الإسلام على شربه، وقد دخل بيوتاتهم وحتى أشعارهم ولم يستنكروه أو يستقذروه اللهم إلا الموحدين منهم ... والله غز وجل يعلم أن المدمنين لن يستطيعوا تركه مباشرة فحرّمه بشكل تدريجي، فأول ما حرمت الخمر على المصلين حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فامتنع المصلون المدمنون عن ذلك عند الصلاة، ثم وبعد فترة نسخت الآية بآيات أخرى ذات تحريم أشمل وأكبر مثل: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) . وقد قرن سبحانه وتعالى الخمر بالقمار لا بل بعبادة الأوثان أي بالشرك وكما نعرف أن الله يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به، فلو كان الشرك محللاً إذن لصح لك يا ست أن تقولي بأن الخمر غير محرمة ... ولا أظن أن المسلمين العرب آنذاك لم يفهموا معنى التحريم في النص، فهم يقولون إن كلمة الرجس في التحريم أعظم من كلمة الحرام ذاتها والدليل على ذلك ...

– نعم أريد الدليل على ذلك ما دمت واسعة الاطلاع هكذا ...

– التحريم العملي الذي قاموا به آنذاك هو أحسن دليل عليه، حيث إنهم سكبوا الخمور وما إليه من مواد مسكرة في الشوارع حتى إن رائحتها كانت تعبق في الطرقات لعدة شهور بعد سكبها لكثرتها ...

ولم أتم حديثي حيث وقفت (خالدة) والضحكة على وجهها وبادرت بالتصفيق لي مما جعلت البقية يفعلن مثلها ...

هذا الحدث جذب الكثير من الطالبات إليّ وعلى الأخص (سهام) وذلك من سوء حظي ... أقول من سوء حظي لأنها شقيقة صديق (حسن) الحميم (عمار) ...

وأقول لسوء حظي لأنها كانت معجبة بي أشد الإعجاب وربما كانت تحبني وأقول ربما لأنها لا تعرف كيف تعبر عن مشاعرها أو أحاسيسها فقد كانت صامتة طوال الوقت، مهمومة بمشاكل عائلتها الداخلية، وإعجابها بي وحبها لي كانا ينتقلان أولاً بأول إلى أخيها (عمار) فكوّن في ذهنه فكرة عني وعن تصرفاتي، فطبيعتي في المدرسة يغلب عليها المرح والحركة وحب الحياة والمشاركة في الفعاليات المدرسية وحتى الرحلات التي كانت تقام أحياناً، ولم يكن ذلك كله ليؤثر على اجتهادي العلمي وتفوقي الدراسي، فقد كان جو المدرسة بالنسبة لي جواً مليئاً بالبهجة والمرح، في حين كانت (سهام) بطيئة الحركة تبدو وكأنها في الثلاثين من عمرها، وأسوأ ما في الأمر أننا – أنا وهي – كنا نكره أخاها (عماراً) بشدة .

كانت تشكو لي باستمرار منه ومن تعنّته وتعصبه في الدار وإنه كصبي يحب أن يطاع حتى في أدق الأمور، ولم يكن يُقدّر مشاعرها فكانت تموت من الخجل عندما يصرّ على أن يدرّسها المواد الفقهية الخاصة بطهارة المرأة، ولا يكترث لرأيها في أنها تستطيع أن تقرأها وتفهمها وحدها، كان شاعراً أديباً ومفكراً – كما يصف هو نفسه لأخته – إلا أنه كان إنساناً متناقضاً لم يصقل الدين شخصيته . لا ولم يوصله إلى السكينة والرضا التي تعم المؤمنين وتبهجهم، كان يقسو على (سهام) بحجة الإحسان إليها، ويمنعها من مغادرة الدار أو المشاركة في الرحلات وفي الوقت ذاته يتحدث عن ضرورة تحرر الفتاة من القيود التي تكبّلها وتجعلها قعيدة الدار، ولم يكن يهتم للنجاح الدراسي ويعتبره شيئاً كمالياً والمهم لديه هو النجاح الفكري وكنت أعتبره متطرفاً في هذا الأمر فأنا أرى أن النجاح الفكري والمدرسي متلازمان، والداعية إلى الله يجب أن يكون من المتفوقين اجتماعياً، " فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف "، وغالباً كما نرى أنصاف المثقفين يميلون إلى الفلسفة والبعد عن الواقع المعاش وهو أمر يُكرّه الدين في نظر الأفراد الآخرين؛ المهم في الأمر أن (حسن) طلب مني ذات يوم وفهمت فيما بعد أن (عمار) هو المحرض على ذلك الذهاب لزيارة (سهام) بحجة توعيتها وتثقيفها دينياً، عجبت لذلك فقلت:

– لكني أراها يومياً في المدرسة يا (حسن) فما الحاجة للتزاور!!

– هذا أمر لا يعنيك، يجب أن تطيعي أوامري، في المدرسة لا تستطيعون التحدث بحرية .

فكرت فيما قاله ورأيت أن الحق معه فذهبت إليها وكلي تفاؤل بذلك اللقاء لعلمي بمحبة (سهام) لي، فالمرء يسعد بلقاء من يحبونه، وقد حصل ذلك فعلاً لولا ما تطرقت إليه صدفة عن موضوع المشاركة في الرحلات المدرسية؛ فأنا أؤيد هذا الأمر بل أعتبره ضرورياً للترفيه البريء عن النفس وتحسين العلاقات بين الزميلات والتقارب بين الطالبات والمدرسات اللواتي كن يحضرن معنا هذا إلى كثير من الفوائد الأخرى، ولسوء الحظ أنني كنت أصرّح بآرائي تلك بحرية أمام والدة (سهام)، وما أدراك ما والدة (سهام)، نار حامية، فهي من الأمهات القاسيات، إنها لا تتعمد القسوة أو تشعر بها، لكنها تفتخر بكونها امرأة قوية وقاسية كباقي النساء القرويات فما كان منها إلا أن فنّدت آرائي وأفكاري بهجوم ساحق لا منطقي، جعلني أشعر بالخجل والحيرة، فقد رمت كل الطالبات اللواتي يشاركن بالرحلات المدرسية بالثائرات على المجتمع الخارجات عن القيد وألخ ... كلامها هذا مسح كل استحسانها لي قبل أن أتفوّه بما تفوّهت ...

المهم ... حملت نفسي وعدت أدراجي كسيرة الفؤاد والخاطر، أفكر فيما حدث وكيف تطرقت إلى موضوع ذي حساسية شديدة عندها، لكني لا أحب النفاق أو الكذب فليكن ما يكون ...

وفي عصر اليوم التالي جاء (حسن) ضاحكاً ليخبرني أن خطة (عمار) قد فشلت ...

– أية خطة تعني يا (حسن)!!

– أصر (عمار) على زيارتك لشقيقته، لهدايتها وأخفى عني السبب الحقيقي من وراء ذلك .

– وماذا كان السبب الحقيقي يا ترى؟!

– لقد أراد لأمه أن تراك عن قرب وتتعرف على شخصيتك اللطيفة وآرائك الحلوة، فزدت الطين بلة بذهابك .

– ولماذا يريد لأمه التعرف علي؟!

– لقد صارحني اليوم أنه كان ... يريد التقدم لخطبتك ومن الضروري لديه إرضاء أمه ... فهي تريد تزوجه من ابنة خالته التي تكبره بأعوام ... لكنها تحبها رغم ذلك ..

– الحمد لله ... الحمد لله أنني أزعجتها بكلامي .. وآرائي الظريفة! ... يا له من منطق، ولماذا لم تحضر (سهام) وأمها لرؤيتي؟! أليس المتعارف عليه أن يتعرفوا على الخطيبة في دارها لا أن تذهب إليهم..!!؟

– على أية حال ... أصر (عمار) على رأيه فيك وسيحضرون غداً لخطبتك!!

– ماذا!! كيف ترضى بذلك يا (حسن)!! ثم ... ثم إني لا أفكر بالزواج ... أريد إتمام دراستي الجامعية ..

صعق (حسن) لسماعه ذلك مني، فهو من جهة لا يريد إرغامي على الزواج ومن جهة أخرى يود أن يكون (عمار) صديقه الحميم زوجاً لي، لكني لم أترك له الفرصة للتفكير ونهضت مسرعة إلى أمي أخبرها بما جرى ... أخذت أمي في الضحك وأسرعت بإخبار أبي ... نظر أبي إلى (حسن) معاتباً، وقال:

– كيف تفكر بمثل هذا الأمر ... إنّ (سامية) مخطوبة ... هل نسيت؛ لابن عمها (سامي)؟

دهشنا كلانا، فقد كان أمراً منسياً ... قال (حسن):

– إنه أمر مضى ولا أهمية له ... و(عمار) شاب ممتاز متكامل الصفات وهو يليق بها ...

كتمت غيظي وبهدوء قلت:

– أبي قال إني مخطوبة لـ(سامي) وعندما ينطق الأب بكلمة فلا مجال لنقاشها ... ثم إني أكره (عماراً) يا أخي، ولست الوحيدة التي تكرهه فأخته تكرهه أيضاً ... وأنا حالياً لا أفكر في الزواج .. أبي أرجوك يا أبي لا توافق عليه ... أريد إتمام دراستي الجامعية ..

– حسناً يا (سامية) سيكون لك ما أردت ..

وهكذا تخلصت من (عمار) وخطبته، واهتممت بالتركيز على المواد الدراسية وأمضيت فترة انتظار نتائج القبول في الجامعة على أحرّ من الجمر ... وكنت أخشى أن يضيع تعبي واجتهادي سدى ... حتى حان موعد ظهور النتائج .. لم تحملني قدماي على الذهاب إلى المدرسة واستعلام النتائج فذهب (حسن) عوضاً عني وبقيت في الدار أتجول قلقة وكلي لهفة لقدوم (حسن) ... لم تفارق عيناي عقارب الساعة التي كانت ثقيلة جداً ذلك اليوم فهي بالكاد تغادر مكانها ... وأخيراً جاء (حسن) ... وجاءت معه البشرى ... لقد تم قبولي في كلية الهندسة في القسم المدني ... وطرت من الفرحة ... نسيت أن أقول أن (حسن) قد قبل في كلية طب الأسنان قبلي بعام واحد ... وكانت كليته تقع بالقرب من كليتي فكنا نذهب سوية في أغلب الأحيان ... وكان (حسن) المشجع الأول لي على ارتداء الزي الإسلامي في الجامعة ... وهناك التقيت بفتيات مثلي محجبات ... جمعت الزمالة والصداقة بيننا ...

الصف أو القاعة في الجامعة هي ملتقى الفئات المختلفة من الطلبة والطالبات ... واتخذت وصديقتي الجديدة (نبوغ) مقعدين متجاورين في معزل عن الطلبة الشباب ... فما كان من بقية الطالبات إلا أن قلدننا في ذلك

فأصبحت القاعة مقسومة تلقائياً إلى قسمين أحدهما للفتيات من الجهة اليمنى للقاعة والآخر للفتيان ... وعلى خلاف ما تصوره الأفلام السينمائية من اختلاط الفئتين أو ضرب المواعيد واللقاءات في باحة الجامعة، لم يحصل شيء من ذلك في صفنا، اللهم إلا ما يجمع بيننا من عمل مشترك في المختبرات حيث لا مجال هناك للكلام خارج نطاق الدرس، فالتجارب المطلوب من الطلبة أداؤها صعبة للغاية وأقل ما يقال عنها أنها تتعب المخ والأعصاب إلى درجة كبيرة ... وأما الحصص الدراسية فهي معقدة جداً ومملوءة بالمسائل الرياضية التي يستوجب حلها مساعدة الآلة الحاسبة أو الكمبيوتر، فطلبة وطالبات الكليات المتخصصة كالطب والهندسة يكونون عادة من الأوائل على صفوفهم؛ لذلك تجدهم يستمتعون بالمواد الدراسية والمطالعة والبحث، وإن شذ القليل عن هذه القاعدة، فهم قلة لا يحسب لهم حساب ... لذلك كنت تجدنا نفرح بوقت الفارغ بين الحصص لنستطيع أثناءه حل ما بقي لدينا من المسائل أو إتمام نتائج التجارب التي قمنا بها في المختبرات، وإن لم يكن لدينا واجب دراسي اغتنمنا الفرصة وأغرنا بهجوم صاعق على مكتبة الجامعة لاستخراج المصادر المهمة التي تعيننا في مرحلتنا الدراسية تلك، هذا في حالة إكمالنا مخططات الرسم الهندسي التي يستغرق أقل مخطط فيها ما لا يقل عن ثلاث ساعات ... لذلك فأنا أعجب عندما أشاهد في التلفزيون ما يعرض من قصص ومغامرات تنسب ظلماً للجامعة ولطلبتها ... الطريق إن هنالك من يصدق مثل تلك القصص ويكون متحمساً بادئ الأمر معباً ذهنياً لما سيحدث له من مغامرات مع الجنس الآخر فيعود بخفّي حُنين حيث أنه لا يجد الوقت الكافي لإتمام واجباته اليومية فكيف بالمرح والمغامرات!!!

لم يمض على بدء الدراسة إلا شهور قلائل حتى تقدمت عدة وزارات بعقود للطلبة والطالبات للعمل لديها بعد التخرج مقابل رواتب شهرية ومنح بسيطة للدراسة، فتعاقد الكثير من الطلاب والطالبات وكنت ممن تعاقد معهم وذلك لأني لم أفكر في العمل الحر بعد التخرج ففضلت الارتباط بالعمل الوزاري المكفول ... مضت الأيام سراعاً وأشرف العام الدراسي على الانتهاء ... اقترب موعد الامتحان النهائي، وكنت قد تهيأت له وصديقاتي لكل جدية ... في اليوم الأخير من الامتحان عدت فرحة إلى البيت وظننت أن الجميع سيفرح معي بحلول العطلة الصيفية وانتهاء الامتحانات ففوجئت بأمي وهي دامعة العينين يجلس أبي إلى جوارها وقد وضع رأسه بين كفيه و أظنني سمعت صوت نشيجه، رميت الكتب وهرعت إليه، وجثوت قربه سائلة إياه عما حصل فأجاب:

– لا شيء مهم يا بنتي ... إنه ... إنه معمل النجارة الضخم اح–...

ولم يستطع الإكمال فأكملت أمي عوضاً عنه:

– احترق المعمل بأكمله ... يا بنتي ...

دارت الأرض بي ... إنه أهمّ مشروع لأبي ...

– كيف حدث هذا ومتى؟!

– ذهب أبوك صباح اليوم ليجده رماداً ... هو وجميع المخازن الحاوية على آلاف القطع الخشبية ... لكن لا يهم ... إن المصنع مؤمّن عليه لدى الدولة وسوف يحصل أبوك على قيمة التأمين إن شاء الله ...

أطلق أبي زفرة حملها كل همه وقال يطمئنني:

– لا عليك يا بنتي ... إنه أمر عادي يحدث في كل الأماكن والأزمان ... ولا مشكلة لدي إلا أنني حزين للجهد الذي ضاع وللأثاث الذي يجب أن يسلَّم في أوانه بعد أن قبضت ثمنه ...

اطمأننت لحديثه هذا أو ظننت الأمر لا يعدو إجراءات شكلية يعود بعدها أبي ومصنعه للحياة ثانية ... عندما عاد (حسن) لم يهتم للأمر بقدر ما اهتم بتجديد طلب (عمار) صديقه السابق خطبتي ... وهذه المرة عرض الموضوع

بطريقة أشبه بالجبر والإلزام ... فلم أبال به ... لكنه ظل يلحّ ويلحّ لكي يحصل مني على كلمة موافقة مبدئية على حضورهم ... دون نتيجة من جانبي ... لكنه عكر علي صفو حياتي بطلبه هذا .

* * *

- 3 -

بعد مرور بضعة أيام من ابتداء العطلة الصيفية عدت إلى بيتي مسرعة بعد أن أرسلت أمي في طلبي من دار صديقتي (سناء)، استغربت الأمر، وعندما اقتربت من دارنا، كانت سيارة الشوفرليت الفخمة تحتل مكانها أمام الدار، بيضاء ناصعة طويلة تدل على ثراء أصحابها، عجبت لذلك! ترى من يكونون؟! شجعت نفسي ودخلت الدار . لملمت أطراف عباءتي جيداً حين دخولي، ورأيت الإشراقة تشع من وجه أمي وابتسامتها تحتل صفحة وجهها على غير عادتها ... سمعت أصواتاً لضيوف رجال تأتي من غرفة الضيافة، فسألت أمي:

– من هم يا أمي؟ من هؤلاء الضيوف الأعزاء الذين أرسلت في طلبي من أجلهم؟

– إنهم السعد والحظ يا بنتي .

– السعد والحظ!! من هم يا ترى؟!

– جدّك وعمك وابنه (سامي) حضروا لأجلك .

– لأجلي!!؟ لماذا! أفصحي يا أمي أرجوك .

– ما هذا يا (سامية) هل نسيت أنك قد خُطبت لابن عمك في صغرك!! ألا تذكرين أن جدك صمم على تزويجك عند بلوغك التاسعة عشر من عمرك!!

اعترتني ارتجافة وذهلت لهذه المفاجأة، أمر مضى عليه العديد من السنين حسبته انقضى وانتهى، فإذا به اليوم يشخص أمامي كحقيقة لا مفر منها .

لاحظت أمي الوجوم الذي انتابني وشرعت تخفف من وطأة الحدث عليّ بكلامها وملاطفتها وأنّى لحديثها هذا أن يخفف من وقع الصدمة عليّ ... لم أتمالك نفسي عن السقوط فجلست على أقرب كرسي مني، وهنا خرج (حسن) من الغرفة غاضباً، ينظر إلى شزراً فعلمت أن الأمور تجري على ما لا يوافق هواه . في تلك اللحظة لم أعرف إن كان عليّ أن أحزن أو أفرح . أأفرح لأني سأتخلص من صديقه (عمار)، أم أحزن لأني سأزف إلى ابن عمي الذي لا أحمل له في ذاكرتي انطباعاً حسناً ... وفيما بعد فهمت أن غضب (حسن) كان لفشله في إقناعهم بالتراجع عن هذه الزيجة ... وقد عارضه الجميع فخرج مرغماً ...

سألتُ أمي — عن الضيوف –:

– لماذا؟ لماذا حضروا اليوم بالذات؟!

– أحس جدك بوعكة صحية ... فأراد أن يرى زواجكما قبل مماته..

– تقصدين ...

– نعم ... ستزفين هذا الأسبوع يا حبيبتي ...

حدّقت في أمي أكتشف ما في أعماقها ... إنها فرحة جداً وهي تحمل أقداح العصير بين يديها طالبة مني أن أذهب بها إليهم ... فغرت فمي بتعجب قائلة:

– ماما .. أحقاً ما تقولين ... إنني أكاد لا أصدق ما يحدث!! وأنت تريدين مني أن ... كلا ... كلا ... أنا ذاهبة إلى غرفتي ...

قلت هذا وغادرت الصالة مسرعة إلى غرفتي في الطابق العلوي بين حيرة أمي ودهشتها ... أسرعت بإغلاق الباب خلفي بالمفتاح وألقيت بالعباءة دون اعتناء على الأريكة بجانب السرير . توجهت نحو الستائر أزيحها بقوة أنظر

عبر الشباك إلى لا مكان محدد ... " أحقيقة ما أنا فيه .. أيمكن أن أتخذ قراراً بهذا الشأن ضد ما تمّ عقده خلال السنين الماضية ... أأستطيع أن أرفض هذا الزواج!! أيرضى لي أبي هذا المصير! وإذا رفضته هل سأضطر إلى قبول الزواج بـ(عمار)! وإذا ما رضيت به فهل سأستطيع أن أتحمّل عبء الزواج وعبء الدراسة الجامعية في آن واحد؟ إلام سيؤول مصيري مع ابن العم الغريب عني في كل شيء ...؟ و(سامي) هذا ما هي أفكاره؟ ولتكن أفكاره ما شاءت لكنني لم أحدد في ذهني وقتاً للزواج، وصديقاتي وتثقيفهن دينياً وجلسات القرآن، أأتركها كلها ورائي وأذهب لأتزوج؟! وهل سيسمح هذا الزوج بمجيئي إلى هنا وترددي بكثرة؟! أم أنه سيرفض ذلك؟ وكيف أقول لا يهمني نمط تفكيره؟ ... فأنا سأعيش معه ... إذن يجب أن أعرف إن كان إنساناً مؤمناً ملتزماً بتعاليم الشريعة الإسلامية أم لا؟!وكيف سأعالج الوضع الجديد!! وكيف سأوفق بين المنزل والزوج والكلية والجلسات الدينية؟ وهل سأسكن في دار عمي المتعجرف الثري؟! فمع من سأعيش؟ .. لا ... هذه كلها تُرّهات، لن أرضى به زوجاً أبداً ولن أغادر منزل أهلي ودار أبي مهما حدث ".

عندما وصلت إلى هذا القرار أحسست براحة عميقة وكأن المشكلة قد حُلَّت ... وتجاهلت دعوات أمي وأبي من خلف الباب لأنزل لملاقاة الضيوف، ولم تنفع توسلات أمي الهامسة أن أفتح الباب، انتابني خوف غريب من هذا المستقبل المفاجئ الذي لم أحسب حساباً قط، وها هو ذا جدي يأتي لإتمام الأمر وكأني سلعة لا رأي لها ولا اختيار وصممت أذني عن نداءات أبي وهو يطلب إلي بكل هدوء أن أنزل، لكنه في النهاية غضب وصاح بي قائلاً:

– أهكذا علّمك دينك يا (سامية)؟! أهذا هو برّك بأمك وأبيك؟! هل الدين كلام بلا تطبيق؟! ها! أليس هذا هو كلامك أنت وأخيك؟! ألم تصدعا رأسي بالحديث عن الصالح في الأمور؟ وأن الله سبحانه يختار الأفضل للإنسان، ألم تقرئي في القرآن الكريم ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم)؟!

صمتُّ للحظات كانت سكاكين صوته المبحوح تأتي من خلف الباب لتستقر في أعماقي وكأنه بكلامه هذا يواجهني مع نفسي، " الحق معه، أليس من واجباتي أن أبرَّ والديّ فيما لا يغضب الرب! وهما لم يفعلا ما يغضبه، ولعل في الأمر صالحاً لا أعلمه كما قال أبي، فالله سبحانه وتعالى لا يظلم عباده وعلي أن أطبق ديني وأعيشه لا أن أتحدث به فحسب .. "وعندما وصلت في تفكيري إلى هذه النقطة اتخذت قراراً سريعاً بالنزول على أن أقرر حسبما يستجد من أمور ... هرعت إلى الباب أفتحه، وألفيت أبي لدى الباب ينظر إلى نظرات غاضبة وأمي سارحة تحدق بي في حيرة ظانة أنني سأفرح مثلها فإذا بها تجد العكس تماماً ...

قلت لأبي:

– أستميحك العذر يا أبي .. لن أكون إلا ابنة بارة بك وبأمي ... سأذهب لملاقاة جدي والآخرين كما تحب ... لكن أرجو أن تترك لي الفرصة لاتخاذ القرار .

قال أبي:

– كما تشائين .

وجذبني من ذراعي بلطف ... كنت مرتدية الزي الإسلامي فدخلت معه إلى الغرفة ومشاعر مختلفة تنتابني من خوف ورعب إلى حب لاكتشاف المجهول والشوق إلى المغامرة، أول من طالعني وجهه كان هو جدّي المشرق مبتسماً، بدا أكبر مما رأيته بكثير وشعره مبيض بأكمله، لكنه كان في أحسن حال من الصحة والعافية على عكس ما سمعت من أمي، هرعت إليه أقبّله وأقبّل يديه، ثم انتقلت إلى عمي أسلم عليه، وهو الآخر بدا عليه الكبر، والتفتّ إلى الشخص الثالث الجالس جانباً، كان هو العريس سلمت عليه هو الآخر بإيماءة من رأسي دون أن أصافحه، أحس بالخجل لأنه كان قد وقف استعداداً لمصافحتي فأصيب بخيبة أمل كبيرة بدت على معالم وجهه الأسمر، بدا طويلاً وبعينين واسعتين وأنف وفم متناسقين وقد صفف شعره حسب الموضة والحق يقال أنه وسيم، لمحت الانزعاج على

وجهه وهو يجلس متأففاً وحاله حال من لم يتوقع أن يشاهد عروسه في مثل ملابسي، وأشار أبي إلى كرسي بقرب ابن العم، فجلست عليه بعد أن جذبته إلى الوراء قليلاً – دون وعي مني – كي لا أكون قريبة جداً منه، وقرأت في ملامح (سامي) الغضب الدفين ممزوجاً بنظرة احتقار وكأن لسان حاله يقول: أنت تبتعدين عني ... ومن يأبه لك؟!! وأردف انزعاجه بأن وضع ساقيه الواحدة فوق الأخرى باتجاهي والناظر إليه لا يشك في تعمده لهذه الحركة، كتمت غضبي وأنا أستمع إلى جدي وهو يقول:

– إيه يا (سامية) ... قد كبرت وأصبحت شابة جميلة وقد آن الأوان لنزفك لعريسك ...

وأتبع كلامه بضحكة جامله فيها أبي وعمي في حين وجه (سامي) إلي نظرة حملها كل ما في نفسه من حقد وازدراء ثم أشاح بوجهه إلى حيث جلس عمي، لقد كان يكره هذه الزيجة بقدر كرهي لها ولم يخف عليّ أن دافعه إلى المجيء هو حبه للمائة ألف دينار التي سينالها بعد عام من الزواج كما قرر جدي، وأما فرحة عمي وأبي بالمال الذي سيجنيانه من زواجنا فكانت لا توصف .

قلت مستدركة لما قال جدي:

– ألا يحق للفتاة أن تقرر مصيرها بنفسها يا جدي؟.. عفوك ... هل يجب إجباري على هذا الزواج؟!

زعق والدي بي يريد إسكاتي بينما أكد عمي أنه و (سامي) لا يريدان إرغامي على شيء وأن الأمر برمته متروك إلي ...

– إذن بإمكاني رفض هذا الزواج؟!

ودون أن يدع عمي أية فرصة لجدي أو لأبي بالرد عليّ، أجاب:

– طبعاً يا حبيبتي ... إذا كان هذا رأيك فلا مانع من ذلك أبداً ...

لاحظت الفرحة على وجهه بادية بشكل غريب وملفت للنظر، ارتبت لذلك وقررت فيما بيني وبين نفسي التريث، الحقيقة أنه إحساس ألم بي ولنقل الحاسة السادسة التي تقرع أجراسها مشاعر المرأة وقت الحاجة، فرغم إحساسي بالظلم والكراهية لهذا الزواج، إلا أن حاستي جعلتني أتريث قليلاً، فقلت:

– حسناً إذن أمهلوني أفكر بالأمر .

سمعت أبي يطلق زفرة حبيسة وبادرني جدي بالحقيقة:

– إذا رفضت أمري وعصيتني يا (سامية) فلن أرضى عنك، وبالتالي ستؤول الثروة بأجمعها إلى (سامي) ولن ينال أبوك فلساً واحداً، أفهمت يا ابنتي؟

– هكذا إذن!!

حدقت بوجه أبي والعرق يتصبب منه، فرأيته محتاراً شأن من يعاني من صراع داخلي ...

قاطعني عمي:

– إنها ترفض فكرة الزواج .

أجابه أبي بحدة:

– هي لم ترفض قط بل هي على العكس ... إنّها موافقة ... طبعاً.

وأشاح بوجهه عني محاولاً فرض رأيه علي بلا نقاش ... حينذاك خاطبني عمي بلا مبالاة بعد أن خاب أمله في الحصول على الثروة كاملة:

– حسناً إذن .. عليك التهيؤ غداً لكتابة العقد الرسمي وسأحضر (سامي) وأبي الجمعة القادمة لاصطحابك إلى دارنا ... ولن نقيم احتفالاً هنا أو هناك .

سأل جدي:

- ولماذا؟
أجابه عمي:
- لحين إكمال (سامي) لداره التي يبنيها ... ثم نقيم احتفالاً حينذاك ونزف العروسين لدارهما الجديدة ... وسنؤجل الاحتفال الآن لاحتياج (سامي) إلى كل قرش من أجل البناء ..
لم يعترض أبي بينما امتعض جدي وأراد أن يقول شيئاً لكن عمي نهض ونهض معه (سامي) فأنهضاه ورافقهما والدي حتى باب الدار ... خرجت من الغرفة لأرى أمي فاغرة فمها وهي لا تزال تمسك صينية الأقداح بيدها وقد عجبت لعدم استدعائها لتقديم العصير ... وجدت الفرصة مواتية لأختلي فصعدت إلى غرفتي و أنا أفكر في مدى جدية هذا الموضوع ... رضوخ أبي غير الطبيعي لما قاله عمي وكيف يتم العقد بلا احتفال، وإذا كان لا يريد أن ينفق فلساً من أجله الآن فكيف سيغدو الأمر فيما بعد؟! وصديقاتي إذا وافقت على الزواج أأتركهن هكذا دون وداع أو احتفاء لوداعي؟! .. ما هذا الهراء؟ ... أنا لن أوافق فلماذا أشغل نفسي بهذا التفكير ... لكن ... لكن ... ما بال أبي أجاب بالموافقة رغم فهمه لاعتراضي عليه ... قررت أن أستفسر منه فيما بعد ..
توضأت وأمسكت القرآن أفتحه وأقرأ السورة الأولى من أول الصفحة كعادتي كلما أحسست بالضيق فقرأت الآية الكريمة: ﴿يريد الله بكم اليسر ...﴾
عندها أحسست بنوع من الراحة والاطمئنان ... وسمعت طرقات خفيفة على الباب المفتوح، إنه (حسن) يستأذن في الدخول، أدخلته وطلبت منه الجلوس على الأريكة في مقابلتي فبادر قائلاً:
.(سامية) أنت لست مضطرة لقبول هذا الزواج، والاتفاق الذي أبرموه فيما مضى لا قيمة له الآن بعد أن كبرت ورشدت، ومن الناحية الشرعية يمكنك الرفض ... — بدا عليه أنه يريدني أن أرفض، وأكمل -:
- ارفضيه أرجوك ... لماذا تقبلينه وترفضين (عماراً)؟! أعطني سبباً واحداً لذلك؟!!
نهضت من محلي واتجهت نحو النافذة وأنا أكتم اشمئزازي من الموضوع، لكن (حسناً) أكمل:
- حكّمي عقلك يا (سامية) .. إن (عماراً) إنسان طيب وهو لن يؤذيك وسيتوخّى العدالة معك في كل الأمور.
أوحت كلمة العدالة لي بالجواب فقلت مسرعة:
- نعم إنه إن تزوج بامرأة ثانية للاسبب فسوف يعدل بيننا ... أليس كذلك؟!!
- بالطبع إنه سيعد ... أوه أقصد .. كلا ... ولماذا سيتزوج بأخرى؟! من قال لك ذلك؟!
- أنت ... صديقه الوحيد وحديثك دائماً يدور حول الزواج بأكثر من واحدة ... وأنت لم تخطب واحدة بعد..
الحقيقة أني ارتأيت ألا أخبره بالسر الذي أطلعتني (سهام) عليه، عن مغامرات أخيها بحجة الخطبة وقسوته في نقده لهن أو إطالة الحديث معهن، وخفي من (حسن) إن فهم ذلك أن يعاتب (عماراً) وسيعرف الأخير بمن أطلعني على أخباره وستنال (سهام) المسكينة العقاب وأي عقاب، وأنا لا أعتقد بوجود من ترضى بشاب ذي تجربة ومغامرات مع الفتيات فأقل ما يقال عنه أنه عديم الحياء، أو ضعيف أمام الجنس الآخر .
أكمل (حسن):
- ما لك ولي ... إن لي آرائي وهي تختلف عن آرائه ...
نظرت إليه كمن يقول:" وهل ينطلي كلامك هذا علي؟! " فشعر بالغضب ونهض وهو يقول:
- على أية حال إذا تزوجت من (سامي) فلسوف أتبرأ منك ...
استوقفته دون أن ألمح له عن رفضي للزيجة بأكملها وسألته:

– أنت أخبرتني عن فضائل (عمار) ولم تبد لي مساوئ (سامي)!! ولم تسنح لي الفرصة للتحدث إليه لأفهم عقليته أو أفكاره ... فهلا أفهمتني أنت ما الأسباب التي تدعوني لرفضه ... أرجوك!

– حسناً ... إنه شخص مستهتر عديم الأخلاق والقيم وهو متكبر لا يقيم وزناً لأحد وينظر بتعال للآخرين وكأنهم أقل منه شأناً .

استغربت ذلك من (حسن) فهو يبدو وكأنه يتكلم عن غضب وليس عن رويّة فقلت له:

– طيب يا (حسن) ... واحدة ... واحدة ... كيف ومتى اكتشفت ذلك!! أنت لم تزر بيت عمي ولو مرة واحدة، بل حتى لم تسأل عنهم فكيف عرفت ذلك أن أنك تحكم على الإنسان من مظهره الخارجي ... أقنعني لأرفضه ...

لكنه تركني دون أن ينبس ببنت شفة دون أي إيضاح ولم أفهم إن كان غضب مني أم لا! ... وتناهى إليّ بعد دقائق صوت الشجار بينه وبين أبي حول هذا الموضوع ... ببطء وخلسة اتجهت إلى الصالة ودون أن يشعر بي أحد كي لا أقطع عليهما أفكارهما شاهدت أبي لأول مرة وهو يغضب بهذه الصورة ... صرخ بـ(حسن) قائلاً:

– وما أنت؟! أنا لم أمت بعد لكي تصبح رب البيت ... أنا الذي أقرر الأمور ... ولتعلم بأني أنا الذي أرسلت في طلب أبي وأخي وابنه ... لأنك لا تدري بالورطة المالية التي أعيشها ... إن شركة التأمين لم تدفع لي ولا قرشاً واحداً بعد احتراق المعمل ... كذبت عليكم لأجنبكم الإحساس بالفقر والهوان ... لقد قرر المحقق أن الحريق مفتعل ومدبر وليس بقضاء وقدر ... ولا أعلم أي ابن حرام ذلك الذي فعله ... وأنا الآن لست فقيراً فقط ... بل .. ومداناً .. بقروض هائلة للبنك ... وحتى هذه الدار ارتهنتها لأؤجل بها القروض إلى نهاية هذا الشهر فقط ... هل علمت الآن لماذا أردت الإسراع في تزويج (سامية) ... إن عمك وابنه يتعمدان نسيان أمر الزواج أملاً في موت ... أبي – لا سمح الله – واستيلاء أخي على ثروته كلها ... وأنا أرجو أن أستلم عند زواج (سامية) ما يكفي لأسد بعض الديون كي لا يفتضح أمر إفلاسي في السوق ... ولأستطيع بذلك تأجيل بيع هذه الدار مدة عام آخر ... لحين استلام (سامية) لهدية جدّها ... إن لم ترض بزواجها من ابن عمها فإنك لن تفقد هذا الدار فحسب بل ... بل ستفقد سمعتك أيضاً وسمعة أبيك الذي سيزجون به في السجن ... وحينذاك ... لن ينفع (سامية) (عمار) ... فهو وإن كان طيباً ة ولكن ما أدراك ما هو رد فعل أهله إنهم سيحتقرونها ويعيبون عليها سجني ... وستعيش طوال حياتها في ذلة ... لا .. لن ترتاح معهم أبداً ... وأنت ... أنت أيضاً لن تستطيع أن ترفع رأسك بين زملائك بسببي ... وسأموت أنا إن فكرت بما أسببه لكم من ألم ... إن لله في تقديره للأمور حكمة لا تعرف ... كم ابتأست عندما أراد أبي تزويج (سامية) لابن أخي ... والآن أجدها الطريقة الوحيدة لإنقاذي من ورطتي ... لماذا أنت ساكت هكذا ... أجبني ... أنا أبوك ...

لم أتمالك نفسي فهرعت عائدة إلى غرفتي وصوت نشيج أمي يتناهى إلى سمعي وهي تتضرع لأبي تارة ولأخي تارة أخرى ...

وقفت قرب الستائر التي أبعدتها قبل قليل، وأخذت أفكر ... يا إلهي ... يا لهول ما سمعت؟ ... أرفضي للزواج سيجلب كل هذه المصائب إلى العائلة ... ولكن قبولي به مصيبة أيضاً ... إلا أنها ستكون مصيبتي لوحدي، هل أضحي بنفسي وبمبادئي في الارتباط بإنسان مؤمن نتعاون معاً على تربية جيل مؤمن بالله وبرسوله ... وأشعر بالسعادة والطمأنينة بقربه ... أو أرضى بهذا الذي اهتم بتصفيف شعره على أحدث موديل؟ ... وما أدراني ... لربما كان ظن (حسن) به في محله؟ ماذا سأفعل حينها ... إنه يشبه كثيراً أولئك الشباب الذين يلاحقون الفتيات بسياراتهم الفارهة!! وكيف سأعيش معه وأنا لا أعرف مستوى تفكيره ... ولم أسمع له رأياً ... إني خائفة منه ... أنا أخاف أن يجرفني معه في تياره عن عقائدي وديني!!!

وأبي ... وأمي و (حسن) ... ماذا عنهم؟ أأتركهم في مشكلتهم ... وسُمعة أبي ... هل أضحي بنفسي ... أم بهم!! أحسست بصداع مدمر فارتميت على الفراش ومع حيرتي غفوت ... ولم تكن إغفاءة هنيئة بل كابوساً مزعجاً رأيت فيه (سامياً) وكأنه من الأشباح ممسكاً بسوط يضربني به على وجهي ... وأنا أبتعد عنه بصعوبة ... لكنه عندما اقترب مني أكثر أحسست بالاطمئنان ورأيت أسارير وجهه الغاضب تنفرج وتبدو الفرحة عليه ... أفقت مرعوبة ... وتحاملت على نفسي ونهضت ... فرشت السجادة وتوضأت ثم صليت ركعتين قضاء حاجة ... وأخذت أقرأ في القرآن الكريم عسى الله أن يهديني لما يحب ويرضى ...

وها هي ذي ساعات الليل قد انصرمت دون أن أصل إلى حل ... لم أتناول عشائي وعندما سألتني أمي عن السبب أجبتها إن المناسبة قد أثرت على مشاعري فلا أشكو الجوع ... ولم يغمض لي جفن وبقيت في صراع مع الأفكار ... ومع إشراقة الشمس، اتخذت قراراً ورضيت به وهو أن أضحي بنفسي وأقاوم ما سأواجهه من مصاعب وأحتسبها عند الله عز وجل وكلي ثقة أنه هو الذي سيساعدني فلولا أن هنالك مصلحة لي فيما حدث لما حصل ذلك ... فأنا أحسن الظن بالله سبحانه وتعالى وهو سيتولى أمري وأنا إن أطعت أبي وبررته فسأطيع الله، وهكذا ارتحت نفسياً لهذا القرار وبعد ساعات قلائل سيحضر عمي وابنه ومعهما القاضي ليثبتا عقداً أبرم منذ الطفولة ولأدخل لذلك عالماً جديداً ... غريباً عليّ أحلى ما فيه هو المعاناة والمقاساة مع أناس غرباء وإن كانوا يعدون أقرباء ... عالماً مجهولاً جداً بالنسبة لي .

* * *

- 4 -

تم العقد في جو أبعد ما يكون عن الفرح والبهجة، جاء جدي وعمي وابنه من طرف العريس، وحضر أبي وأمي وأخي الكبير وزوجته دون أطفالهما بينما تخلف (حسن) عن الحضور، وذلك حسب طلب عمي الذي لم يكن يملك الوقت الكافي لإجراء أي احتفال ... وقبل العقد طلب (سامي) من أبي ملاقاتي والتحدّث إليّ قليلاً فوافق أبي، وجلست إلى جوار أمي في الصالة وارتديت العباءة فوق ملابسي كالعادة وكذلك فعلتْ أمي، قدمه أبي إلينا وطلب من أمي مرافقته إلى الغرفة المجاورة، استغربت في البداية وتملكني خوف مبهم من هذا القريب الغريب ... جلس أمامي، كانت تفصل بيني وبينه طاولة صغيرة وضع عليها إكليل من الزهور الطبيعية صفف بشكل هرمي، وجاءني صوته هادئاً عميقاً كرجل في الأربعين، خفضت رأسي حياء ولم أنظر إليه عندما كان يقول:

– لا أعلم إن كنت ستفهمين ما أقوله أم لا، ولكني أتمنى أن تفهمي ذلك جيداً .

تريّث برهة ثم قال:

– إن الأمر ليبدو أقرب إلى صفقة تجارية منه إلى زواج واستقرار .. فلا شك أن أول المستفيدين فيما بيننا هما والدانا ... على أن بإمكاننا نحن أيضاً أن نحصل على ثروة ضخمة بعد مرور عام على إبرام هذه الصفقة ... أنا لا أحب الكذب أو المراوغة ... أنا لا أحبك ولا أشعر تجاهك بأي نوع من العاطفة ... وإذا كنت أفكر في يوم من الأيام أن أتزوج من فتاة ما ... فلن تكوني أنت بالطبع ...

أحسست به يتطلع إلى وجهي المحترق احمراراً ... ليدرس أثر كلامه عليّ ... فلم أقاطعه رغم المرارة والحرج اللذين شعرت بهما ... فهاأنا اليوم مضطرة لقبول مثل هذا الكلام وكأنني أستجدي رضاه ... كتمت لوعتي أنتظر ما ستتفتح عنه قريحته، فهاهو ذا أول الغيث ... ترى ماذا سيقول بعدها، لا شك أنه أحس بالحرج الذي أعانيه، وتابع حديثه قائلاً:

– أنت لا ذنب لك فيما حدث ... لا ولا أنا ... وربما إن رفضت الزواج فستنالين من هو أفضل مني ... لأني لن أعتبرك أو أعاملك كزوجة لي وستعيشين معنا في الدار وستخصص لك فيه غرفة فقط ... فيجب أن نجامل جدّي ونرضيه لحين مرور هذا العام بسلام، وعندما نستلم الثروة التي وعدنا بها فسوف ... يرجع كل منا لما كان عليه قبل العقد ... لذلك ولمصلحتي ومصلحتك يجب ألا يشيع خبر هذه الزيجة وأرجو منك أن تلتزمي الحرص في ذلك بحيث لا تفهم أية واحدة من صديقاتك أو معارفك به وهذا في صالحك طبعاً ... وبالنسبة لي فأنا لا أحب بعد مرور هذه الصفقة أن أُعرف بالشخص المزواج الذي يتزوج ويطلق في نفس العام ... فأنا أعتبره أمراً مشيناً يُسيء إلى سمعتي ... والآن ماذا قلتِ؟ ... إذا وافقتِ على هذه الشروط فبها .. وإلا فيمكنك الرفض ... فلا يزال هنالك متسع من الوقت .

قلت له دون تفكير:

– أنا موافقة ...

– فكري جيداً فيما قلته لك .. أنا إنسان جاد وصارم ولا أحتمل التهاون في أمر من الأمور ... ولا تتوقعي مني أية مساعدة خلال إقامتك لدينا ... فلا تتعجلي في الجواب وكوني صريحة معي ...

– لا عليك ... فكرت بالأمر جيداً ... وأرى أنك في تكتمك على هذا الزواج والمحافظة على سريته تسدي إليّ معروفاً أيضاً .. لكن لي شرط واحد فقط أرجو أن تحققه لي ...

– وما هو يا ترى؟

– ألا تضايقني أو يضايقني أحد ما على حجابي أو ارتدائي له في الدار.

– لا بأس عليك ... لكن إياك أن يفهم جدّي أنك لست بزوجتي ولا تتوقعي أية حقوق عليّ لكِ كزوجة ... أفهمت ما أعنيه ..

– نعم .. لقد فهمت ذلك جيداً وأشكر لك صراحتك ...

نهض دون أن يرد بأي شيء وملامح وجهه تعلن عن خيبة أمله في صرفي عن هذا الزواج ... وكيف أرفض وأترك أبي في مأزقه ... وعلى أية حال فإنني قد توكلت على الله وتركت الأمر إليه وهو حسبي ... الحقيقة إن صراحة (سامي) أعجبتني ووضّحت لي ما سألاقيه في مستقبل لهذه السنة من متاعب ومصاعب وهاهو ذا يقول لي أنه لن يكون معي لطيفاً ودوداً، فقلت: هيه يا (سامية) عليك بالاستعداد للمعركة القادمة ...

بعد خروجه أسرعتُ بإخبار أمي وأبي بما قاله (سامي)، فشهقت أمي بينما ابتسم أبي فرحاً، وقال:

– يا له من فتى أصيل وهل هناك أفضل من هذا الحل ... نعم سنتكتم على الموضوع ومن يسأل عنك سأقول بأنك قُبلت في القسم الداخلي من الجامعة ... ولا شك أنك في بيت عمك أقرب إلى الجامعة منها في بيتنا ... ابنتي الحبيبة ... لا تخبري زميلاتك في الكلية بشيء وليبقين على ظنهن أنك لا زلت في بيتك ... يا عزيزتي إن هذا الحل لهو في مصلحة الجميع وأولهم أنتِ ... فسمعة البنت أهم من سمعة ال– ...

قاطعته أمي:

– ماذا تقول يا رجل؟! .. هل جننت ... كيف تتحدث بمثل هذا الكلام!! ولماذا لا يعلن زواجهما؟! أنا أريد إقامة حفل لابنتي الوحيدة .. أدعو إليه كل من أحب .. إنها صغيرتي ... ولن أُفرّط بها من أجل هذا السخيف ...

نظر أبي إليها في عتب كمن يذكرها بمأزقه، وكل ظنهما أني لا أعلم ما يعانيانه حينذاك بترتْ أمي حديثها واعتراضها لكنها بلعت غصتها وحاولت جهدها ألا تتساقط الدموع من عينيها ...

أحببتُ أن أسرّي عنها رغم إحساسي بالهوان:

– لا عليك يا أمي ... إن تكتمنا على الأمر فستسنح لي الفرصة بالزواج الحقيقي بمن هو أفضل من (سامي)، ولن أبلغ الأربعين من عمري خلال عام واحد ... عام واحد فقط لا يهم ...

نهضت أمي وضمتني إلى صدرها وهي تحاول إخفاء نشيجها، أمام نظرات أبي الحائرة، جاء جدّي وأنقذني من الموقف المؤلم وتم العقد الرسمي فاستغرب جدي عدم سماع الزغاريد بادرت أمي وزوجة أخي الكبير بإطلاق الزغاريد وفهم جدّي أنه لا أصدقاء لدينا ندعوهم للحفلة كما أن ضيق وقت (سامي) وأبيه لا يسمحان بذلك،وقد أجّل الاحتفال لحين إتمام (سامي) بناء الفيلا وهنالك سيدعو أصدقاءه وستقام حفلة رائعة للزفاف ... وعلى أية حال لقد اقتنع بعدم إمكانية حضور أصدقاء (سامي) إلى مدينتنا البعيدة عن العاصمة ... المهم، وُزّعتْ أقداح المرطبات بين ضحك، العم وابنه وأبي وفرح أخي الكبير وزوجته ووجوم أمي، تناولت قدحي بفرح لأنني حاولت أن أنسى كل شيء سوى هذه اللحظة التي أتلذذ بها بقدح المرطبات! .. بعدها غادر عمي وابنه قائلاً:

– هيا يا جدّي ننتظر (سامية) في السيارة، لنغادر بسرعة فوالدتي وأختاي ينتظران على أحرّ من الجمر وصول العروس!!!

أجاب جدّي ملاطفاً:

– مهلاً يا عريس ... يجب أن أفي بوعدي أولاً ... اجلس اجلس .. وهذه هي هديتي لأبيك وعمك بمناسبة هذا الزواج السعيد ...

قال هذا ووضع مظروفين فيهما كميّات من الأوراق النقدية الملفوفة بإحكام ... نهض عمي وتناول المظروفين وبمزاح قال:

– الاثنين لي ... أليس كذلك يا أبي؟ ...

نظرت إلى أبي المسكين وقد اصفرّ وجهه خجلاً وحيرة، ورأيته في وضع لا يحسد عليه، لم ينقذه منه إلا صوت جدّي الآمر:

– اترك هدية أخيك يا ولد ... لن تكبر أبداً ...

أطاع عمي الأمر ضاحكاً وغادر وابنه إلى السيارة ... ناول جدّي أبي المظروف بكل حنان فقام أبي وقبّل وجهه ويديه وطلب مني أن أفعل الشيء ذاته، فأطعت في الفور، استبشر جدّي وقبّل جبهتي واضعاً كمية من الأوراق النقدية في يدي، وعندما تعجبت محاولة إرجاعها له ... استاء من ذلك ففهمت أنه عليّ قبولها ... فقبلتها ولم أكن أعلم أنني سأحتاجها بشدّة في المستقبل القريب في بيت الزوجية ...

* * *

عند العصر وضعت أمي حقيبة ملابسي في مؤخرة السيارة الفخمة، جلست في المقعد الخلفي مع عمي بينما جلس جدّي بجوار (سامي) الذي كان يقود السيارة، لحظات الوداع لأمي وأبي من أقسى اللحظات التي عانيتها في حياتي، وغير بعيد عن السيارة وقف أخي الكبير يتطلع إليّ في صمت وكذلك بدت زوجته حزينة لأجلي، وأما (حسن) فلم ألحظه معهم لوداعي، وشاهدته عندما انطلقت بنا السيارة يقف عند مفترق الطريق الذي نسكن في حارته، وقد أسند ظهره للحائط القريب عليه وأظنني لمحته يرفع يده إلى الأعلى مسلمّاً عليّ، سلاماً خجولاً سريعاً. لمس عمي يدي برفق مربتاً عليها وكأنه أحس باللوعة التي أعانيها فأراد بهذا أن يخفف من وطأة الحدث عليّ ... حمدت الله في نفسي لأن مظهر عمي هذا أدخل الراحة إلى نفسي ... التفتَ جدّي إليّ بعد مسيرة بضع دقائق ومن بين سُعاله قال لي:

– الآن ارتحت يا بنيتي.. أحس أني أستطيع أن أموت بسلام وراحة..

قاطعته قائلة:

– بعد عمر طويل يا جدّي ... أرجوك لا تتحدث عن الموت ... نحن الآن في عرس .

ضحك قائلاً:

– الموت حق يا عزيزتي (سامية) ... وهو عرس أيضاً لكن من نوع آخر ... إنه دخول إلى حياة ثانية جديدة ... إن كانت أعمالي في الحياة الدنيا حسنة وموافقة لما أراده عز وجل مني ... فحياتي الآتية ... عرس حقيقي ... مع الحور العين وبين الولدان المخلدين ...

وفجأة أكمل عمي وابنه – وكأنهما كانا متفقين – الآية في رنة تجويد مضحكة:

– ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون ... عاليهُم ثياب سندس خُضرٌ وإستبرق وحُلّوا أساور من فضة﴾ ...

ثم قهقها معاً دون أن يهتما لمعالم الأسى التي ارتسمت على وجه جدّي، بسبب استهزائهما به، أغاظني موقفهما ذلك جداً، فجدي لم يقل ما يشين، لكن يبدو أنهما لكثرة ما سمعاه يردد الآية أصابهما الملل ... على أية حال قلت له:

– ونِعمَ بالله يا جدّي ... قرأت حديثاً قدسياً ذات مرة يقول:" أنا عيد حسن ظني عبدي المؤمن بي "، وآخر يقول:" سأل أحدهم رسول الله (ص) قال: يا رسول الله، أرأيت إذا صليت المكتوبة، وصمت رمضان وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة، قال (ص): نعم ".

رأيت الدمعة تلمع في عينيه مع فرحة غمرت تجاعيد وجهه، ولا أعلم ما الذي أغاظ (سامي) حيث علق ساخراً:

– نعم وسيذهب إلى الجنة فيلبسونه الحرير الأخضر كساري الفتيات الهنديات مع أساور فضة في يديه ويقفز ويرقص مع الحور العين ... يا له من منظر مضحك ...

أجابه جدّي وقرّب عصاه من وجه (سامي):

– اصمت ... ولا تستهزئ بالدين يا ولد وإلا حطمت رأسك بهذه العصا ...

فزع (سامي) واعتذر بسرعة عما قاله ولاحظته يحدّق بي خلال مرآة السيارة بحقد وغضب ولسان حاله يقول:" كل هذا بسببك "، ولسوء الحظ أنني ضحكت عليه وإن كان ضحكي خافتاً إلا أنه لحظهُ جيداً ...

ولم نتبادل غير هذا الحديث طوال الطريق ... كان الطريق إلى العاصمة رائعاً ... شوارع عريضة ... الأشجار على طرفي الطريق ... يطالعنا بائعو البسكويت والعلكة والمثلجات على طرفي الشارع بين حين وآخر ... وعند أحدهم توقفنا قليلاً للاستراحة ... كان يضع مقاعد متعددة وبينها طاولة صغيرة ... تناولنا المرطبات جلس جدّي إلى جواري ثم عمي وابنه، وسعدت جداً بقربه مني فمعه أحس بالاطمئنان، سأل جدّي (سامياً):

– متى ستشتري خاتم الخطبة يا (سامي)؟

– مساء غد أو بعده .

– لماذا هذا التردد؟ حدد موعداً ثابتاً؟

– لا أستطيع ... متى ما حصلت على إجازة من محل عملي ... سأشتري الخاتم .

– حسناً .. ولكن أريدك أن تشتري خاتماً ماسياً لـ(سامية) ...

أجابه (سامي) بفتور:

– لكنه غال يا جدّي!!

على الفور أجبت:

– لا حاجة لذلك يا جدّي ... فالتواضع في كل الأمور محمود ... ولا أريد ما أتميز به عن صديقاتي فينظرن إلى ما في يديّ في حسرة ..

سأل جدّي:

– ولماذا يجب عليك أن تتواضعي بين صديقاتك؟! ولا تتميزي عليهن!!

قلت:

– جدّي العزيز ... إن غالبية صديقاتي من الطبقة الفقيرة أو ذات الدخل المحدود، ولا أعتقد أن أهميتي تكمن في غلاء ما سأشتريه من خاتم، فهاهي ذي سيدة نساء العالمين (فاطمة الزهراء) وسيدتي، أضرب أنا ورفيقاتي بها الأمثال في تواضعها؛ على ما هي عليه من رفعة وسمو كونها بنت النبي (ص)؛ في جلساتنا الدينية ونحاول جهدنا الاقتداء بها في الملبس والمأكل والمشرب ... وعلى العكس أجد أن رفعتي في التواضع وكما تعلم "أن من تواضع لله، رفعه" ...

بفرح قال جدّي:
– بارك الله بكِ يا بنتي ... إذن اشتر لها يا (سامي) ما تراه هي مناسباً لها ...
أجابه:
– حسناً ... حسناً يا جدّي ...

عند المساء وصلنا إلى البيت الجديد، الذي سأسكنه لسنة كاملة من حياتي لم يكن نفس البيت الفخم الذي زرته وأبي في الصغر، إنه الآن – فيلا بالتعبير الحديث – قصراً فخماً آخر، أول ما تفتح البوابة عنه، شارع معبّد يسع أكثر من سيارة يحيط بالدار بشكل نصف دائي من يمين الحديقة الغنّاء الواسعة حيث يحتلّ نبات (الثيّل) أو الحشيش الأخضر مساحة واسعة، قُصّت ونُظمت بأشكال هندسية وأخرى بيضوية وفُصل ما بينها بالقرميد الأحمر للمُشاة، ويحدّ الحديقة من داخل الدار نبات الآس القصير برائحته العبقة، أما السور فتبطنه أشجار مختلفة من الحور والصنوبر، ولفت انتباهي عند دخولنا بالسيارة فيها أنها تحيط بالقصر من جميع نواحيه ... أما القصر فقد بني على الطراز الحديث وهو يعلو أرض البستان هذا ببضع درجات واطئة الارتفاع من سلالم مرمرية ناصعة البياض تدخل بعدها إلى صالة صغيرة تقودك إلى بهو كبير رصت فيه أرائك جذابة على شكل نصف مستطيل ويتوسط القاعة تلفزيون ملون كبير ... ومن القاعة إلى الخلف يبدو بابان عرفت فيما بعد أن أحدهما يقود للمطبخ والثاني يطل على الغرفة التي سأسكنها .

وقفت زوجة عمي وابنتاها (سها) و(لمى) وشقيقهما الأصغر (سمير) في القاعة لاستقبالنا وأظنه كان استقبالاً لجدي وليس لي أنا ... جلس جدّي وعمي و(سامي) بينما ذهبت أنا وقبّلت النساء رغم امتعاضهن مني، وأومأت برأسي لـ(سمير) علامة على السلام وجلست قرب جدّي.

انشغل الجميع عني في الحديث عن أشخاص يعرفونهم هم، تطلعت إلى زوجة عمي، إنها عجوز متصابية لطخت وجهها بالأصباغ المتنافرة وخطت حاجبيها وعينيها بكل ثخين ... والواقع رغم مكياجها هذا إلا أنها ليس جميلة حيث أن أنفها كبير ومدور ويحتل مساحة واسعة من وجهها ولا يمكن تلافي النظر إليه وعلاوة على ذلك فهي سمينة جداً وتحشر نفسها في ثوب بالكاد تستطيع التنفس من خلاله ... وأما (سها) و(لمى) فلم يشبهاها في شيء بل إنهما جميلتان ورقيقتان وواضح أنهما تعتنيان برشاقة جسميهما كثيراً، فهما إلى النحافة أقرب، وقد ارتديتا ثياباً للسهرة طويلة وأنيقة، و(سها) كبيرة العينين كأخيها (سامي) وذات شفتين جميلتين وهي على العموم أكثر شبهاً بـ(سامي)، و(لمى) ذات عينين عسليتين إلى الاخضرار أقرب ترتدي ثوباً أبيض مع عقد ماسي في جيدها أبرز لون جسمها الأسمر النحيل، و(سمير) شاب وسيم أيضاً لولا أنه ورث أنف أمه الضخم وأفلح في إخفاء عيبه بإطالة شواربه بكثافة وغزارة، وهو متزوج أيضاً رغم كونه يصغر (سامي) بأعوام ثلاثة، وهو و(سها) لا يقيمان في الفيلا بل لكل منهما دار منفصلة، جلس بقرب (سمير)، (نهى) و(شهلا) وهما جميلتان كأمهما (سها) وكانتا بين الحين والآخر تهمسان بحديث خافت إلى أبيهما (مراد) وهو مدرس لمادة الفيزياء، وكل هؤلاء لم أعرفهم من قبل لانقطاع الرابط بيننا وبين عمي أو بالأحرى نفور عمي من أبي، قطع جدّي الحديث فجأة:
– كفاكم كلاماً ... أنا متعب وجائع .. هيا .. جهزوا العشاء بسرعة لأذهب للنوم ... (أم سامي) ... قودي (سامية) لغرفتها لترتاح قليلاً ... هيا ... انهضا ...

نهضت عمتي –كما أخذت أناديها فيما بعد– وسرت معها إلى نهاية البهو حيث يتفرع بعد ذلك إلى عدة غرف دلّتني على أولها وفتحتها ودخلت خلفها غرفة صغيرة، أصغر من غرفتي في دار أبي، كانت مُرتبة وبأثاث لا يتجاوز السرير وخزانة للملابس صغيرة بمرآة كئيبة مع منضدة صغيرة والأرض خالية من أي شيء سوى البلاط؛

وشباكها والباب الأخرى يطلان على الحديقة من الخلف، وخمّنت أن منظرها في النهار أفضل مما في الليل، والإنارة فيها خافتة جداً لا تصلح للمطالعة، قالت عمتي:

– لا أظنك تحتاجين إلى أكثر مما هو موجود هنا يا (سامية)؟!

– شكراً يا عمتي ...

أدارت ظهرها مغادرة لكنها تذكرت أمراً فعادت قائلة:

.(سامية)، هل ... هل شرح لك (سامي) ما نريده منك؟!

– نعم قال لي أن أتكتم على الأمر، أليس هذا ما قصدتِهِ؟!

أومأت برأسها وقالت:

– الحمام في آخر الممر ...

ثم ذهبت، تلفتُّ حولي .. الجدران من أي شيء، وتذكرت الحقيبة لم يحضرها لي أحد عندها ذهبت أفتح الباب فوجدت الحقيبة قد وضعت أمامها، ومن بعيد كان (سامي) يتجه إلى الصالة بعد أن أحضرها ... رتّبت ملابسي في الخزانة وطويت العباءة ووضعتها في الرف العلوي لأنني قررت ارتداء الزي الإسلامي لتسهيل الحركة علي في البيت ... أخرجت جهاز الراديو الصغير من حقيبة يدي ووضعته مع صورة أمي وأبي و (حسن) وأنا برفقتهم إلى جوار أصص للزهور الصناعية وساعة منضدية على شكل قارب أهداها لي والدي ذات مرة، وضعتهم على المنضدة بجوار السرير، وبقيت كتبي التي أعتز بها التي احتلت القسم الأعظم من أثاثي الذي أحضرته معي فتركتها في الحقيبة لحين تدبيري مكتبة لها، بعد أن صليت أحسست بدوار وتعب شديدين . إن سهر الليلة الماضية والقلق مما سيحدث وعدم تناولي الطعام أثّرا كثيراً على صحتي العامة ولحسن الحظ أنقذني جدّي بإرساله (سها) تدعوني لتناول العشاء .

* * *

سرت مع (سها) عبر البهو الكبير إلى باب جانبي فيه على يمين الداخل إليه، وهي غرفة الطعام، غرفة جميلة جداً محاطة بالشبابيك الكبيرة من جهات ثلاث وفيها بوابة زجاجية ضخمة تطل على الحديقة الأمامية، تدلت عليها ستائر رقيقة بيضاء شفافة، يتوسط الغرفة مائدة طويلة مستطيلة تستدير عند طرفيها غُطيت بغطاء وردي جميل مشغول بالإبرة، تحيط بها كراسٍ أنيقة طويلة الظهر، زحزحت لي (سها) أحد المقاعد إلى جوارها، جلست عليه، جلس جدّي على رأس المنضدة وتوزع الباقون كل على مقعد معين وعرفت فيما بعد أنه لا يجوز الخلط بالإتيكيت والجلوس في مقعد آخر!! كالدوائر الحكومية أو الهيئات الرسمية ... جلست أنتظر العشاء كالبقية، الطعام مكدّس وبكثرة على المائدة، قد صب في صحون وأوانٍ جميلة مختلفة ولكن لا أحد يمد يده إلى الطعام، فانتظرت معهم، أخيراً جاءت الخادمة تدفع منضدة بعجلات رُصّ فوقها أنواع السلطات والمقبّلات يتوسطهن إناء الحساء الساخن، صبت لكل واحد من الموجودين حساءه، زكمت رائحته الأنوف ... حينئذ مد الجد يده إليه وتوالى البقية في أخذ ملاعقهم واللطيف أن الملاعق مختلفة الأشكال والأحجام، نظرت بسرعة إلى ما تناولوه من ملاعق، وأخذت شبيهها ... كانت عميقة وغير مفلطحة ويتناولون الحساء من جانبها يرتشفونه سريعاً، قلت: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وفعلت مثلهم فاكتوى لساني، لكني لم أبد أي ألم أو انفعال غير طبيعي، رغم إحساسي بالحرق والحرج الشديد لتواجدي مع هذه المجموعة الكبيرة من الناس، تناولوا أربع ملاعق أو خمساً من الحساء، ثم تركوها جانباً، فعلت مثلهم، رغم جوعي وحبي للحساء، أشادت (سها) بالطهي وأثنت على أمها، شكرت الأم ابنتها في إحساس بالزهو والفخر واضحين، أردت مدحها كذلك لكن لساني لا يزال يؤلمني، فسكت وانتظرت مع الباقين، شككت هل انتهى العشاء أم لا؟! وسرعان ما أبعدت الشك عني عندما نظرت إلى الطعام على المائدة، وبعد قليل قامت عمتي بتوزيع قطع اللحم المطبوخ مع باقي الأطعمة المنوعة للجميع كل حسب ما يحب، الحقيقة أن الطعام لذيذ وأحسست بالشبع فشكرت الله عليه، أبعدت يدي عن الطعام وإذا بالجميع ينظرون إلي في تعجب!! استُفهمت عن السبب، قلت:

– الحمد لله لقد شبعت .

قال جدّي:

– لا ... بل أتمي طعامك ... أنت لا زلت جائعة .

قلت:

– أنا لا أجاملك يا جدّي العزيز ... شبعت والحمد لله ...

أدار البقية وجوههم في استياء ... أكملت الحديث لعمتي:

– أحسنت يا عمتي الطعام لذيذ جداً، دمت لي ...

حينذاك ابتسمت عمتي في استحسان مما خفف من وطأة انتهائي قبلهم ... بعد ذلك جاء دور الأطباق الثانوية ثم أطباق الحلوى ثم المرطبات المنعشة .. ثم الشاي وبين كل تقديم وآخر فاصلة زمنية لا تقل عن عشرة دقائق ... كانت الأحاديث تدور بين الجالسين في هدوء وخفوت، تناولت الشاي وشعرت بتجدد قواي قليلاً، وأثناء ذلك غادر جدّي المائدة عائداً إلى جناحه مسلماً على الجميع ... وبعد خروجه مباشرة باءت محاولتهم تجاهل وجودي بالفشل، إذ إن (سمير) افتتح الجلسة مخاطباً إياي:

– ما هذا الذي ترتدينه يا (سامية)، أأنت امرأة عجوز؟! أو ماذا؟!

ضحك الجميع مرة واحدة، أجبت:
– وماذا تريدني أن أرتدي يا ترى؟ بنطال الجينز مع قميص رقيق!؟
– ولم لا! ما أجمل من ترتديه؟!
– نعم ما أجمل من ترتديه لزوجها فقط وليس للعموم ...
ثم حاولت تغيير مجرى الحديث فسألته:
– أين زوجتك لماذا لم تحضر معك؟ وهل عندك أطفال؟
– ما ... ماذا! زوجتي ... إنها ... إنها حامل ... فلم تستطع الحضور ... وليس لدي أطفال سوى النونو الذي في الطريق .

يبدو أن سؤالي قد أثّر فيه بشكل ما ... فقد شحب وجهه وعلاه الوجوم، لكن عمتي استلمت زمام المبادرة قائلة:

– ولماذا تخنقين نفسك بهذا الإيشارب البسيط ... وكأنك صلعاء ... بالمناسبة ... هل أنت صلعاء حقاً كما تبدين ...

قالتها وهي تنظر إلى بنتيها اللتين ضحكتا تشجيعاً لها ...
بروح مرحة أجبتها:
– بالطبع يا عمة ألا يبدو ذلك علي؟
واستأنفت حملتها الهجومية:
– وما هذا الجلباب الواسع الذي ترتدينه؟ إنك تبدين كشيخ جامع! ... فلا تنقصك سوى العمامة .. ها .. ها ها ..

وشاركها البقية في الضحك ... فكرت أن أجيبها بقسوة وأقول لها أنني خلقني الله سبحانه وتعالى وهو أدرى بمصلحتي وهو يريد أن يحميني من أعين السراق ونظراتهم الجائعة فحماني بهذا اللباس من أعين المتطفلين، وهو غزة لي ورفعة لمقامي من الانحطاط عن عرض مفاتني لكل من هبّ ودبّ دون حياء أو خجل، وجعلني أمنع الناظر من أن يفكر بي بعواطفه ... إنه عز وجل اعتبرني جوهرة لا تمسها الأيدي كلؤلؤة يحافظ عليها بي غطاءين خشنين للصدفة ... و .. و ... ولكني خمّنت أن من أمامي من أقارب يريدون إغاظتي لكي أنفعل وأتألم فتشفى صدورهم مني ... قرّرت ألا أسمح لهم بذلك بل سأتخلّص من سخرياتهم عندما يجدونني كالجدار الصلب الذي لا يهتم بمعول خشبي فسيتحطم سريعاً جراء صلابة الجدار ... ويجب أن أتغاضى عن هذه الكلمات لأنه سيُسفح لي الوقت الكافي خلال هذا العام إذا أراد الله ذلك وسيسعني حينها أن أوضح لهم مفاهيمي جيداً بعونه تعالى، لذلك اصطنعت اللامبالاة وبمرح قلت:

– والله إنها فكرة جيدة يا عمتي ... سأقتني لي واحدة ... — أقصد العمامة — ...

وكان التأثير مثلما خمّنت بالفعل فقد استلطفوا جوابي وضحكوا وأيقنوا أن لا فائدة من استفزازي لذلك انقطعت المناقشة عند هذا الحد فحمدت الله في سري. نهض الجميع ونهضت معهم واستأذنت من عمتي في المغادرة فسمحت لي وعدت مسرعة إلى غرفتي، وكرد فعل طبيعي لما حصل فإن أول شيء فعلته هو أنني وقفت أمام باب الخزانة أتطلع إلى نفسي في المرآة، هل حقاً أبدو كالصلعاء في جلباب شيخ الجامع!!؟ ورغم أنها لم تكن المرة الأولى التي أشاهد فيها نفسي في المرآة، إلا أنني وفي هذه المرة أحسست أنني أتطلع إليها لأول مرة ... رأيت أمامي فتاة بيضاء اللون بعينين شهلاوين واسعتين حدّتهما رموش سوداء طويلة، التوت إلى الأعلى في رقّة، وأما الإيشارب فقد أظهر استدارة الوجه بشكل محبب للنفوس، ولم يقبّح الجلباب جمالي بل خفف منه وغطى مفاتنه بأناقة ... خلعت غطاء رأسي والجلباب

ووضعتهما في محلهما من الخزانة ... ثم فتحت شعري الطويل الناعم تركته ينسدل على كتفي ليصل إلى خصري في هدوء ... وجدت الفتاة التي في المرآة جميلة جداً بأعضاء متناسقة وجمال فتّان فابتسمت لها وبذلك برزت الغمازتان في وجهها لتضفي عليه مسحة ساحرة من الجمال ... قلت لنفسي: الحمد لله أنني فتاة محجبة ... لا لن أرضى لنفسي أن أعتدي على مشاعر الشباب بأنوثتي كما تفعل المتبرجات ذلك ... ولن أكون مبتذلة فلا أحوز إعجابهم إلا بمفاتن جسدي الذي لم أتعب في الحصول عليه ولا فخر لي فيه ... ولن تهمني تعليقات (سمير) حوله، إنه يريدني أن حجابي ليتلذذ هو وأمثاله بالنظر إليّ ... وماذا سأجني سوى الإثم لألقى ربي بوجه أسود من الندم ... نعم هاأنذا فتاة جميلة ... ولكن كيف سأغدو بعد ثلاثين عاماً!! عجوزاً ...؟ إن لم أكن شمطاء ... فسأكون عجوزاً لا ميزة فيها ولئن نظرت حينئذ إلى ما مضى من عمري بلا حجاب أو التزام بالدين فستذهب نفسي عليه حسرات ... وعندما لن ينظر إليّ أحد ... سأعرف أني كنت مخدوعة ... حينذاك أيجب عليّ أن أموت وأدفن لأني لا أثير أو ألفت انتباه أحد ما .. لا بالطبع ... إذن فيجب أن يكون إعجاب الآخرين بي أنا لا بجمالي أو لجمال جسدي وتناسق أعضائه ... يجب أن يُعجب الآخرون بإيماني وعقلي وفكري وبما أستطيع أن أخدم به هذا المجتمع في رضا الله تعالى ... فهذه الأمور لا يذويها الزمن ولا يؤثر عليها بأصابعه بأخاديد الوجه ... وابتسمت ثانية لنفسي مكافأة لي على تفكيري هذا .. اندسست في الفراش وقرأت ما تيسر لي من القرآن الكريم ثم أقّتّ الساعة لأفيق قبل أذان الفجر بعشر دقائق ليتسنى لي أداء صلاة الليل قبل أذان الفجر وبعده أصلي صلاة الصبح في أول وقتها ولو إن صلاة الليل يمكن أداؤها في جميع أيام الأسبوع إلا أني كنت أصليها ليلة كل جمعة، وقبل أن أغمض عيني قرأت الدعاء الذي اعتدت قراءته كل يوم قبل أن أنام:" إلهي قصُرتْ الألسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك وعجزت العقول عن إدراك كنه جمالك وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهك ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك ... إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم وأخذت لوعة محبتك بمجاميع قلوبهم " وذكرت حديث (حسن) حول صلاة الليل:" إن العبد إذا تخلى بسيده في جوف الليل المظلم وناجاه، أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال: يا رب يا رب، ناداه الجليل جل جلاله: لبيك عبدي سلني أعطك، توكل عليّ أكفك ... ثم يقول جل جلاله لملائكته: انظروا إلى عبدي فقد اختلى بي في جوف هذا الليل المظلم والبطّالون لاهون والغافلون نيام، اشهدوا أني قد غفرت له".

أفقت عند الصباح وأنا أشعر بنشاط وسعادة، أبعدت الستائر عن النافذة والباب وخرجت منه إلى الحديقة الخلفية الرائعة الجمال، شعرت برذاذ قطرات الماء الذي يرشه الساقي الآلي على الأرض، فانتعشت له ولرائحة التراب الرطب ... لفت انتباهي تنوع الأزهار وجاذبية ألوانها، فعدت إلى غرفتي وأحضرت من أدوات خياطتي مقصاً وجمعت بواسطته باقة ورد منوعة حملتها معي إلى غرفة الطعام ووضعتها في مزهرية أثرية كانت موضوعة للزينة داخل المكتبة الجانبية فيها ووضعتها على المائدة ... فتحت النوافذ وأزحت الستائر إلى الأطراف وتركت الباب مفتوحاً فسرى تيار هوائي محمل بعطر أزهار الحديقة، ذهبت إلى المطبخ، كان مطبخاً واسعاً بحاويات برتقالية وبيضاء اللون على شكل حرف U مع غسالتين آليتين إحداهما للملابس وأخرى للصحون، وفي طرف من المطبخ احتلت منضدة بيضاء اللون دائرية مساحة كبيرة وضع حولها كراسٍ برتقالية اللون ... كانت (أم أحمد) وهي الخادمة التي أحضرت الطعام أمس في الخمسين من عمرها وهي تعد الشاي فابتسمت لرؤيتي، حينئذ تجرأت وطلبت منها أن أساعدها في إعداد طعام الإفطار، فلم ترض في البداية لكنها وافقت أخيراً فاستمعت لإرشاداتها وطبقتها بسرعة أعجبتها، وتم إعداد كل شيء، وظننت أن البقية سيفيقون سراعاً، لكنها أخبرتني أن عمتي وعمي وابنتهما (لمى) لن يفيقوا قبل التاسعة صباحاً، فقط (سامي) يفيق قبل الثامنة بدقائق ليتناول إفطاره مغادراً بعده بسيارته إلى عمله، ولأن اليوم هو الجمعة فحتى هذا الأخير لن يستيقظ مبكراً ... سألتها عن المستوى العلمي لأبناء عمي، فأخبرتني أن (سامي) يعمل مهندساً في مقاولات البناء، وكذلك (سمير)، وأما (لمى) و (سها) فلم تذهبا إلى الجامعة، فـ(سها) تزوجت وهي في المرحلة الإعدادية، و(لمى) أكملت الإعدادية

وهي لا تحب المدرسة كثيراً، والآن هي في انتظار العريس المناسب لها ... فكرت في نفسي بسرعة وقررت ألا عمتي أو أبناءها أنني طالبة جامعية ولو إلى حين بدء الدوام! شعرت أنني لو أخبرتهم بهذا فستشعر الفتاتان على الأقل بالغيرة مني وأعتقد أن هذا سيضيق إلى متاعبي الكثير وأنا أحاول ألا أسبب إزعاجاً لأي منهما، وأما بشأن (سامي) فلا أعلم لماذا أحببت أن أخفي الأمر عليه أو خوفاً من أن يكيد لي ولا يتركني لشأني كما هو الحال، أم أنني في اللاشعور أردت أن أضايقه لما أهانني به من كلام حول صفقته التجارية هذه ... لا أعلم حقاً ... سألتها:

– وهل يجتمعون يومياً على مائدة الإفطار مع جدّي؟ ..

– كلا ... الجدّ لا يحضر يومياً، فقط في أيام الجمع أو المناسبات فهو يعيش في الفناء الخارجي ... ألم تلاحظيه ... ذلك البناء الجميل المعزول في فناء الحديقة الغربي ... وأما عمتك وعمك و (لمى) فهم يتناولون الغداء هنا يومياً ويشاركهم في العشاء (سامي)، أما (سمير) و (سها) وزوجته وزوجها وأطفالها فهم يتناوبون الحضور تقريباً معهم عدا الضيوف من أصدقاء الجميع ...

سألتها:

– وإذا أحس أحد ما بالجوع – أقصد نفسي – ألا يمكنه أن يتناول الفطور أو غيره بدونهم؟ ..

– يمكنه تناول شيء خفيف لحن حلول وقت الطعام .

شكرتها وعدت إلى الحديقة أتجوّل فيها حتى وصلت دار جدّي طرقت الباب ففتح لي خادم عجوز طيب الملامح في نفس عمر جدّي أو ربما أكبر منه، ألقيت إليه بالسلام وسألته إن كان جدّي قد استيقظ أم لا. فدعاني للدخول إليه رأيت جدّي جالساً على أريكة ضخمة تتسع لشخص واحد فقط ينظر إلى الحديقة عبر النافذة، التفت إليّ فرحاً بقدومي، قبّلت يده وجلست أمامه وسألته:

– جدّي، لماذا أنت هنا؟! لم لا تسكن معنا هناك؟ ومن يعتني بك هنا؟!

ضحك جدّي وقال:

– صبرك يا (سامية) عليّ، أنا أحب الهدوء، وأعلم أن عمك وزوجته لا يُطيقون رؤيتي، وما مجاملاتهما التي شاهدتِها إلا طمعاً في الإرث، إنهما يخافان أن أحرمهما من ثروتي فأهبها لأحد ما، كأبيك أو لدار الأيتام مثلاً ... ولقد حاولت منذ فترة طويلة أن أبني مستشفى وداراً للعجزة لكن عمك الطيب هذا، منعني من مجرد الخروج وهددني إن فعلت هذا فسيتهمني بالجنون، وسيرشو من يشاء لكي يثبت هذا علي ... إيه ... ألا ترين يا بنتي أني حاولت جاهداً أن أختلق مسألة زواجك لكي ينال أبوك بعضاً من ثروتي ولا يسرقها مني هذا الابن العاقّ!!؟

– أحقاً ما تقول يا جدّي! و(سامي) والآخرون، كيف يرضون عن عمله هذا؟!

– لقد أعمتهم المادة فهم لا يرون سواها ..

لم أجبه بشيء ...

أجلت النظر في هذه الغرفة الواسعة ... تزدان جدرانها بصور جميلة، وأرائك متعددة مع مكتبة متوسطة الحجم، فرشت أرضيتها بالسجاد الفاخر ووزعت فوقها مناضد زجاجية بتناسق ولطف، وفي إحدى زواياها وضعت أرفف مطبخية مع طباخ وساحبة هواء فوقه مباشرة، ومقابل هذا المطبخ يوجد سريران وثيران أحدهما للجد والآخر لخادمه. سألته:

– ألا تشعر بالوحدة يا جدّي؟

أجاب:

– وحتى إن شعرت بالوحدة فماذا سأفعل، إن (أبا خضر) وهو ليس بخادمي فقط بل أمين سري وصاحبي منذ عشرين عاماً يسليني، فنحن نقرأ معاً، نتناقش معاً، نتمشى في الحديقة معاً ... إيه .. هو إنسان مؤمن يخاف الله صائم

مُصلٍّ، وأنا أرتاح إلى هذه الخصلة فيه، نبذه أهله وأولاده عندما استغنوا عنه مادياً، وبوفاة زوجته ظل عالة على الآخرين من أبنائه ... بعد وفاة زوجته طلبت إليه العمل عندي في الدار إضافة إلى عمله عندي كسكرتير في المصنع ... في البداية لم يرض، لكن الواقع الذي يعيشه من إهمال له جعله يرضى، ومنذ تلك الفترة لم يتقصّ أخباره أحد منهم .. لا ... ولا سألوا عنه ... لا أبناءه ولا أحفاده ... رغم زياراته لهم المتكررة بين الآونة والأخرى حاملاً لهم الهدايا واللعب ... لكن بلا فائدة، فمتى ما عمّر المرء قل اهتمام الباقين به ... إنهم لا يصلونه بشيء أبداً ... الحمد لله أنه يؤنسني ويخفف عني وحدتي ... في السابق كان يعمل لديّ واليوم هو صديقي ...

وهنا أحضر (أبو خضر) أقداح الشاي ووضع أمام كل منّا قدحه، وحمل قدحه وأراد الانصراف فأبقاه جدّي قائلاً:

– أعرّفك بحفيدتي (سامية) يا (أبا خضر) ... اجلس هنا معنا ... إنه كحفيدتك ...

– أهلاً وسهلاً بك يا بنتي ... ومبروك زواجك .

– شكراً لك يا عماه ... أرجو ألا يضايقك وجودي ... فأنا لن أتركك وجدّي وحدكما ... وسآتي لأساعدك فيما تحب ...

وهنا قال جدّي:

– هذا جيد ولكن ... أرجو ألا يكون إعدادك للطعام أسوأ مما يفعله (أبو خضر).

حملق الأخير قائلاً:

– ماذا وهل يجرؤ أحد على إعابة طهوي للطعام؟ ... كلا .. كلا يا حاج ... خف الله وقل الحقيقة ..

– وأية حقيقة إنك لا تميز بين السكر والملح وفي كل مرة تضع أحدهما بدلاً من الآخر .

– هذا صحيح، ولكن ما رأيك بالمهلبية لا أحد يجيدها مثلي ...

– نعم أنت في هذا محق ... لولا نسيانك أن تضع فيها الحليب أحياناً.

ضحكت من كل قلبي وضحك جدّي ورفيقه أيضاً ... وبعد أن شربت الشاي نهضت وألقيت بنظرة سريعة على المطبخ وطلبت من (أبي خضر) إحضار بعض المواد التي كانت مفقودة في المنزل وباشرت في إعداد وجبة لذيذة للغداء والعشاء من أجل جدّي وصاحبه وانتهيت منها بسرعة وودعت جدّي وانصرفت عائدة إلى الدار على أمل أن يكون الجميع قد أفاقوا من نومهم ... وبالفعل وجدت الجميع في الصالة بملابسهم المنزلية، و (لمى) قد وضعت في شعر رأسها اللفائف إعداداً منها لتسريحة المساء. بادرتني عمتي:

– أين كنت يا (سامية)؟

– ذهبت لزيارة جدّي لبعض الوقت، أرجو ألا يكون لديك مانع من ذلك؟

– لا ... ولكن لماذا ترتدين هذه الملابس!! هيا اذهبي واخلعيها إن منظرك مقرف للغاية .

– أرجوك يا عمتي لا تنسي الاتفاق ... فأنا لن أخلع حجابي وكان هذا شرطي الوحيد للموافقة على هذا النوع من الزواج.

استدرت إلى حيث كان (سامي) جالساً يطالع في كتاب بيده، وبادرته بالسؤال عله يساندني في الكلام:

– أليس كذلك يا (سامي)؟!

رفع عينيه إليّ محدقاً للحظات ثم قال:

– نعم ... ولكن يمكنك أن تخلعيه إذا أردت!! لا عيب في ذلك! .. إن أمي تنزعج من منظرك هكذا!

غلت الدماء في عروقي بسماعي ذلك إنه يشبه من تسأله لماذا يقف اللقلق على رجل واحدة فيجيبك بأنه إن رفع الثانية سوف يقع!! لذلك أجبته بنفس منطقه:

– حسناً إذن ... فنحن على ما اتفقنا عليه سأذهب لأساعد (أم أحمد) ...

ضحكت (لمى) كثيراً ... وضحكت في سرّي منهما ... المهم من يضحك آخراً وليس أخيراً .

بعد الفطور جلس الجميع في الصالة حول التلفزيون وفتحت (لمى) المذياع تستمع إليه بأعلى صوته حالمة على كلمات الأغنية وجلست معهم، رغم أن الصداع أصابني جراء صوت الراديو المرتفع، إلا أنني سكتّ وحاولت عدم الاستماع إليه، وأمّا البقية فلم يهتموا لما تفعله ... حاولت أن أركّز على أفلام الكرتون في التلفزيون فلم أستطع ... حينئذ فكرت أن أقوم بأي عمل أو مساعدة فهو أفضل من الجلوس هكذا ... لذلك سألت عمتي إن كانت بحاجة إلى أيّ مساعدة ففاجأتني بأسلوب جارح في الكلام بألا أتدخل في أمورها وعللت ذلك لأني لم أهتم بطلبها مني خلع حجابي وزادت في كلامها حتى طلبت مني عدم التواجد أو الجلوس في حضور ضيوفهم لأنها ستشعر بالخزي مني ... سألتها:

– ولماذا تخجلين يا عمتي ... فملابسي جميلة وأنيقة وليست مهترئة أو قذرة فما الذي يخزيك فيها؟ ..

وهنا خفّفت (لمى) من صوت المذياع لتستمع إلى المناقشة بيننا ولربما احتاجتها أمها فتكون على أهبة الاستعداد لنصرتها ...

– إنها لا تعجبني وفي هذا الكفاية .

ببرود أجبت:

– ولكنها تعجب رب العالمين عز وجل.

– إنها تشير إلى أنك معقدة ورجعية وغير متطورة ولا تواكبين العلم والمعرفة ... جاهلة ..

– وهل التبرج إشارة إلى التقدم العلمي، أي كلّما انكشف الشعر أكثر دلّ على عدم الرجعية، وزوال الحواجب من الوجه يدل على زوال التعقيد أما ظهور السيقان والأذرع فهو ظهور للمعرفة، وقصر الثوب أو طوله مثلاً لهو دلالة واضحة على مواكبة العلم – وأكملت وأنا أضحك بشكل أغاظها كثيراً – والتميع والتكبر يدلان على عدم الجهل ... و ...

وصرخت عمتي بابنها:

– ألا تُسكت هذه السليطة يا (سامي)؟ ..

وجّه الأخير كلامه إليّ غاضباً:

– اذهبي إلى غرفتك ولا تغادريها إلا إذا بعثنا في طلبك ... هيا انهضي ...

ابتسمت وقلت لعمتي وأنا أغادر المكان:

– آسفة يا عمتي لم أقصد إزعاجك ...

وسمعتها تشتكي لعمي:

– أرأيت كم هي مشاكسة؟!

وببرود أجابها عمي:

– أنت البادئة والبادئ أظلم ... ثم ماذا تريدين منها ... إنها رغم كل شيء قد اعتذرت لك ...

ولم أتوقف لأستمع إلى بقية الحديث ثم طغت أصوات الموسيقى على أصوات الجميع حيث صعّدت (لمى) من صوت الراديو إلى أقصى حد .

* * *

في الواقع أنني لم أتقصّد ولم أود أن يحدث مثل هذا الجدال بيني وبين الجميع ولكن ما حصل قد حصل ولا مفر منه ... تساءلت أكان بإمكاني تفادي إهانتها الصريحة لي ... وإن تفاديتها ألن تعتبرني ضعيفة وتتمادى في طلباتها؟ أم أنها كانت ستثوب إلى رشدها؟!

فكرت في حقيبة كتبي ورأيت من الواجب أن أشتري لي مكتبة ولو بسيطة ... وقررت أن أستأذن من عمتي في ذلك تفادياً للمشاكل وذلك بعد تناول طعام الغداء ... رتبت سريري ونظفت غرفتي ولمعت زجاج النافذة فازدادت تألقاً مع الستائر النظيفة التي علّقتها، أخرجت بعض السور القرآنية المؤطرة وأحببت أن أعلقها على الحائط، فلم يكن لدي مسامير أو مطرقة، فاستعنت بجدي وبدأت أدق على الحائط أثبّت المسمار فيه، وما هي إلا لحظات حتى هرعت عمتي ترافقها ابنتها وفتحتا الباب دون استئذان صارخة:

– ماذا تفعلين؟! هل تكسرين الحائط انتقاماً مني؟!

كانتا غاضبتين وتنظران إليّ شزراً، الحقيقة أن منظرهما أفزعني وإن يَبدُ علي ذلك، أجبت:

– لا يا عمتي ... أنا لا أخرّب شيئاً بهذا الجمال أردت تعليق بعض الصور، ولم أعتقد أن الأمر سيزعجك، سأترك الأمر كله إن لم توافقي ...

– أنت إنسانة غير مريحة ومزعجة و ... وضوضائية، لا تكفين عن الإزعاج لحظة واحدة .

احترمت كبر سنها ولم أجبها بشيء أملاً في أن تسكت وتُنهي الجدال، إذ ما الفائدة من الجدال والنزاع على أشياء وأمور لا تُجدي ... إنني عندما تناقشت معها على حجابي فلأنها أهانت ما أحترمه، أما عراك وجدال لأجل مسمار ... فلا ... قلت:

– حسناً يا عمتي العزيزة، لا تزعجي نفسك كثيراً سأترك تعليق اللوحات .

أخرجت المسمار وجمعت بقية المسامير والمطرقة لكي أعيدها إلى جدّي، فإذا بها تستمر في الزعيق والجدال شأن من لا شغل له يؤديه سوى الخصام، فحضر (سامي) وعمي على إثر سماعهما لزعيقها وقد بدا الانزعاج عيهما قال عمي يستفسر مني:

– ماذا حصل؟

– أردت تعليق الصورة والآن اعتذرت عن ذلك وسأرجع الأدوات لجدي .

توجه لزوجته قائلاً:

– إذن لماذا هذا الصراخ والزعيق يا امرأة؟!

– إنك لا تعرفها إنها تريد أن تغيظني فقط! فبعد أن شوّهت هذا الجدار الجميل تظهر نفسها وكأنها مسكينة مظلومة .

نظرت إلى مكان التشوه المزعوم فلم أر إلا ثقباً لا يكاد يُلحظ أو يرى .. وكذلك فعل عمي وابنه بعدي والظاهر أنهما أحسّا بمقدار تجنّي عمتي عليّ، لأن عمي غادر المكان مسرعاً دون أن ينبس بشيء، وبقيت عمتي تزعق وتولول وكأنني قد قتلت عزيزاً عليها، ويظهر أنها لن تسكت على الإطلاق، شعرت بالضيق وناجيت ربي، " إلهي أنت المستعان به على كل شيء، خلصني من هذه الورطة " .. الشيء الذي لم أتوقع حصوله أبداً هو أن يدخل (سامي) الغرفة ويتناول المطرقة والمسامير مني وعاد يدق المسمار في محله الأول وبشكل جيد ثم يضع الصورة هناك!! وسكتت عمتي عندما رأته يفعل ذلك فاغتنم فرصة سكوتها الذهبية وسألني:

– ألديك لوحة أخرى تودين تعليقها؟ ..

أجبته ممتنة:

– نعم لدي واحدة أخرى إن لم يكن هنالك أيّ مانع.

ثبّت الأخرى في المكان الذي أشرت له عليه هو يقرأ آية الكرسي، قلت في نفسي:" إلهي لك الحمد ولك الشكر لم تخذلني يوماً ما حاشاك " التفت (سامي) لأمه قائلاً:

- إنها آية الكرسي يا أمي ... وهي بكل الأحوال أجمل من هذا الحائط الأجرد . أليس كذلك؟!!

بانزعاج شديد غادرت عمتي المكان وهي تتمتم:

- أردتك لي عوناً فأصبحت عليّ فوعوناً .

وبسرعة تناولت الأدوات من فوق المنضدة لأعيدها لجدّي والفرحة تغمرني فالإحساس بالظلم مؤلم يشعر المرء بمرارة في فمه وفي العدل فرحة ... أبطأت حتى رجعت إلى الغرفة فوجدت (سامي) لا يزال في الغرفة وقد نسيت أمره، جلس على حافة السرير يتأمّل اللوحة من بين دخان سيجارته التي أشعلها لتوه ... أحسست بحرج شديد ... ولم أدر ماذا يجب عليّ أن أفعل؟! فكرت أن أبقى واقفة عند باب غرفتي المطل على الحديقة حتى يحسّ بوجودي فيغادر الغرفة لكنه كان مستغرقاً في تفكيره، سعلت سعلة خفيفة أجفل لها ونظر إليّ ثم قال بحدة:

- أين كنت؟! إلى أين ذهبت؟!

- أرجعت المطرقة لجدي .

- لماذا لم تستأذني عند خروجك؟

- عفوك ... إنني ي غرفتي .. ولم أتصور أنني بحاجة للاستئذان!

صمت هنيهة ثم قام يغادر فشكرته لمساعدته لي، لكنه لم يجب بشيء بل عاد للصالة مباشرة، فأغلقت الباب خلفه وأطلقت تنهيدة راحة . إذ ظننت أن المشاكل قد انتهت لليوم الأول من إقامتي هنا، ولكني كنت جد مخطئة ... فعندما حان موعد تناول طعام الغداء، جاءت (أم أحمد) تستدعيني على المائدة أسرعت بالذهاب منعاً للمشاكل واتخذت مقعدي السابق دون أن أنبس ببنت شفة، وسلّمت على (سمير) و (سها) وطفلتيها اللتين حضرتا لتناول الغداء مع العائلة، بإيماءة خفيفة من رأسي، ردّ (سمير) عليّ ببرود وكذا فعلت (سها) ... انتبهت إلى أن الجميع يطيلون النظر إلى كرسي جدّي الخالي بامتعاض، لا شك أن الجوع قد أضناهم ولا يعلمون سبب تخلّفه عن الحضور ... ألمح (سمير) بابتسامة خبيثة:

- لعله متوعّك أو ليس على ما يرام؟!

ضحكت عمتي لتعليقه، بينما ابتسمت بنتاها وكذلك عمي لهذا التلميح التي تزفّ إليهم البشرى بنهاية الجد الطيب!! (سامي) فقط هو الذي لم يظهر أي انفعال تجاه الموضوع وبقي ساهماً وكأنه ليس معنا ... صرخت عمتي بـ(أم أحمد) لتذهب إلى الفناء ترى ما الأمر، بعد دقائق عادت (أم أحمد) لتخبر الجميع بصوتها المرتفع أن الجدّ يعتذر عن الحضور فهو قد تناول طعام الغداء اللذيذ الذي أعدته له (سامية) منذ الصباح!! ولا تسلْ عن وقع هذا النبأ على الحاضرين الذين سئموا الانتظار، تجمعت حواجبهم بقسوة استعداداً لخوض معركة جديدة وفغر عمي فاه وزعقت عمتي:

- ألم أقل لكم إنها مؤذية؟! لم يمض بعد على وجودها يوم واحد، وهاهي تخرب كل شيء .

نهضت من مقعدي قائلة:

- المعذرة يا جماعة ... سأغادر لأني أحس بالشبع ولا أريد أن يفوتني وقت فضيلة الصلاة، وغداؤكم هنا يستغرق الوقت الطويل وأنا غير معتادة على ذلك ...

قلت هذا وهربت عائدة إلى غرفتي، بينما صعّدت عمتي من صوتها لأسمعها:

- إنها مشاكسة ... يا إلهي ... من أين جاءت هذه المشكلة ولماذا اختار هذا الجد الأحمق فتاة خرقاء مثلها لـ(سامي)؟

وسمعت صوت (سامي) الغاضب:
– كفاك عراكاً ... إنه يضرّ بصحتك ..
– لا أنا أريد أن أضع حداً لهذه الفوضى ... إنني لا أحتملها ... لا أستطيع النظر إلى وجهها القبيح .
– أمي ليس لدينا خيار آخر ... تحمّليها ولا تزعجي نفسك بها وسترين أن الزمن سيمر سريعاً فتعود من حيث أتت ...

يبدو أنها اقتنعت فلم يعد يصلني صوتها ... أقفلت باب غرفتي بالمزلاج خوفاً من أن أتعرض لهجوم كالمرّة السابقة، وارتميت على السرير دون إرادتي، خرّت دموعي ساخنة ... ثم تناسيت الأمر وصليت وأخذت أتلو القرآن فأحسست براحة عظيمة وكأن همّاً كالجبال قد انزاح عن صدري وعندما انتهيت سمعت طرقات خفيفة على الباب، قلت:

– من الطارق؟

بهمس قالت:

– أنا افتحي ...

فتحت الباب لـ(أم أحمد) الطيبة، فإذا بها تناولني سندويشاً قد ضمّنته لحم الدجاج، شكرتها كثيراً، فردت:

– لا تخبري أحداً بذلك ... إن احتجت إلى شيء أخبريني ... لقد ارتحت لك منذ البداية وكأنك ابنتي، وهؤلاء إن اجتمعوا على الأكل فلن يذروا منه شيئاً ... هيا كلي ولا تهتمي لشيء ..

شكرتها ثانية وقبل أن تتركني ضممتها وقبّلتها من خدها ... فدمعت عيناها وذهبت مسرعة ... حمدت الله في سري أن جعل لي أصدقاء وسط الأعداء ...

* * *

حان وقت العشاء ولم يرسل أحد في طلبي، خمّنت أنهم يريدون عقابي فأحسست بالحزن، لذلك ذهبت لعند جدّي وأعددت له ما بقي من طعام الغداء وأضفت له القليل من المقبلات وطلبت منه أن أتناول العشاء عنده إن كان لا يمانع!!

رحّب جدّي بذلك وعند العشاء أخذ يحدثني عن أيامه الماضية وعن كثير من الأحداث المريرة وما قاساه من غربة وسط أبنائه، أحسست بالحزن لأجله، لذلك تعمدت أن أسأله عن الأمور الحلوة والمضحكة في حياته، وقد سعدت كثيراً بحديثه هذا، وشارك (أبو خضر) في النهاية عندما أحضر لنا فناجين الشاي ولم أرتشف من الفنجان سوى رشفة واحدة حتى رأيت (سامي) قد حضر، فماتت الضحكة على شفتي، أما جدّي ففرح بقدومه كثيراً ورأيت الابتهاج على وجهه فتأكدت أنه يحبّه حقيقة لا يتصنع فيها وللأسف أنه مهجور من قبلهم وهو يرضى بأقل ما يمكن من محبتهم، نهض (أبو خضر) من مقعده فوراً وأدنى مقعداً قرب جدّي لـ(سامي) ليجلس عيه فاعتذر الأخير قائلاً:

– كلا يا جدّي ... يجب أن أعود إلى الدار ... جئت أصطحب (سامية) قليلاً .. إن لم تمانع ... أو البقاء معك أكثر ... لكن عليّ الاستيقاظ عداً مبكراً لألتحق بعملي ... و ...

– الحق معك يا بني ... وأنا أوافقك على اصطحابها فهي جميلة ولطيفة للغاية وهي تُشيع المرح أينما وجدت فتدخل السرور على القلب ...

قلت بحرج:
- أخجلتم تواضعنا يا جدّي ...
ضحك جدّي بفرح وأجاب:
- شكراً لك يا (سامية) ... ملأت علي وحدتي لأول مرة منذ سنين .. وجعلت (سامي) يأتي لزيارتي بسببك ... هل ستأتين غداً لتخلصيني من أطباق (أبي خضر) الشهيرة؟ ..
- بكل سرور يا جدّي ولكن بشرط!
- وما هو؟
بصوت خفيض شجعت نفسي كثيراً حتى قلته:
- أن أشاركك الطعام ...
ضحك الجميع وأكمل جدّي:
- إنه لمن دواعي سروري أن تشاركينا الطعام ويا ليت (سامي) يفعل ذلك أيضاً .
لم يجبه (سامي) بشيء بل أومأ لي بالخروج، فأسرعت أقبّل جدّي من جبهته:
- تصبح على خير يا جدّي، اعتن بجدي جيداً يا (أبا خضير).
أجاب الأخير:
- على عيني يا بنتي .
خرجنا معاً إلى الحديقة وفي منتصف الطريق استوقفني (سامي) قائلاً:
- انتظري قليلاً ... هل أخبرت جدّي لما حصل اليوم؟!
أجبته بالنفي فأكمل:
- ألم تخبريه بحقيقة الاتفاق بيننا؟
- كلا، ولماذا أفعل ذلك؟
- ربما لتنتقمي من أمي التي آلمتك بحديثها!!
- لا ... اطمئن من هذه الناحية ... فحتى إن أردت أن أنتقم منكم جميعاً فلن أنتقم من جدّي الحبيب، لقد فرح بزواجنا وهو سعيد به ولن أكدره لسببين، أولاً: أني أحب أن أراه سعيداً فهو طيب للغاية ولم أكتشف هذا قل أن أستمع لأحاديثه، وثانياً: أني إن آلمته فسوف أكسب إثماً عظيماً، فالجد كالأب في المنزلة، فمثلما لا يجوز أن تغضب الوالدين فكما أنه ﴿ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾، فكذلك رضاه تعالى من رضاهما، ونفس المنزلة للجدّ، حتى أنني أحس بالإثم كلما فكرت أنني ربما أتسبب في إيذاء مشاعر جدّي بعد مرور العام ...
- لا عليك حينها سيبدو الأمر طبيعياً ... سنبدأ بالخصام وإثارة المشاكل حتى يطلب مني أن أطلقك، ولا شك، فهو يحبك ولا يريد لك الأذى ...
- ليس باليد حيلة ... فوضت أمري إلى الله فهو سيحل الأمر بأفضل الحلول. أتعرف يا (سامي) أنه من واجبي وواجبك إسعاده ... وبالمناسبة لماذا لا تزوره؟! لماذا تجفوه هكذا؟! إنه يحبك ...
- أتعتقدين ذلك؟!
- بل إنني متيقنة ... هل انتبهت إلى السرور الذي عمّه لدى رؤيته لك .
- وما الفائدة من حبه ... إنه أناني لا يفكر سوى بنفسه ..
- لا أسمح لك أن تقول عنه هذا ... لماذا لا تصدق أنه يحبك؟!

أجاب بغضب:

– ومن شدة حبه لي أنه يحرمني هو وأبي من أمواله الطائلة ... لا .. بل ... كبّلني بزواج رغماً عني .

– اسمع يا (سامي) لا تتكلم عنه بلسان غيرك، إنه يتصور أنه يُسدي لك معروفاً بهذا الزواج، وأما لماذا لا يعطيك من أمواله فهو جزء من حريته الشخصية، ربما ... ربما أراد لك أن تنشأ عصامياً لا مدللاً فتعرف قيمة المادة أكثر مما لو يسّرها لك، وليس من المتوقع أن تخطط لنيل المال منه بمقابل أو بدون مقابل، ثم ... ثم إنك لا تحاسب نفسك وتحاسبه، وما الذي يجعلك تعتقد أنك على صواب؟! هلا سألت نفسك ما الذي قدمته له وهو في هذه المرحلة من العمر؟! ها! إنك حتى لا تتعب نفسك في أن تطل عليه ولو إطلالة بسلام ... و ..

– كفى ... كلامك لا يروقني ... هيا ... اذهبي ونامي ...

ببرود قلت:

– يا للعجب ... لماذا جئت تطلبني إذن ... لو تركتني عند جدّي لكان أفضل لي ...

تلكأ قليلاً قبل أن يقول:

– أمي طلبت مني ذلك .

– آه ... فهمت ...

– ماذا فهمت؟!

قلت وأنا أتركه راجعة لغرفتي:

– فهمت أنك ابن أمك ... تصبح على خير ...

ولم أستدر لأرى تأثير كلامي عليه فقد نفّست من حقدي عليه لأسلوبه معي في الكلام ... نمت تلك الليلة وأنا أشعر بالسعادة لأني اعتقدت أن مشاكلي مع أهل البيت قد انتهت فسوف أقضي جُلّ الوقت لدى جدّي ولسوف أبتعد عنهم ... ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن .

* * *

في بداية الأمر أخذت أتناول الطعام مع جدّي وبذلك تحاشيت عمتي وعمي والآخرين قدر المستطاع، وكان السلام بيننا لا يعدو الإيماءات من قبلي وردهم عليه أحياناً وتجاهلهم له أحياناً أخرى .

مضت أيام ثلاثة دون حصول ما يكدّر حتى صباح اليوم الرابع حيث حضرت (سها) باكية ناحبة تسحب طفلتيها سحباً وهما تبكيان، بينما صوت السباب واللعن من زوجها الذي دخل بعدها يملأ الجو، وهذه هي المرة الأولى التي أشاهده فيها، هو شاب متوسط القامة ذو عيون زرقاء وأنف أقنى وملامح معتدلة مع أناقة كاملة وعلى الرغم من حالته هذه فهو لم ينس أن يتعطر جيداً، بل كثيراً جداً وكأنه قد سكب زجاجة عطر كاملة ... كنت قد دخلت لتوي من الفناء إلى الصالة عندما واجهت هذا المشهد .. تجمدت في محلي، جلست (سها) وهي تصرخ وتشتم زوجها، أما ابنتاها فكانتا تزعقان وتبكيان بأعلى صوتيهما خوفاً، وزوجها يهددها بالطلاق ويتوعدها، إن لم تسكت بالضرب، انضمت عمتي إلى صف ابنتها وأسرعت (لمى) بالنزول من غرفتها ودون أن تفهم شيئاً تبادلت وزوج أختها الصراخ والزعيق، فجأة وجدت نفسي وسط معركة حامية الوطيس ... كان مُناي أن أستطيع الإصلاح بين الجميع لكنني خفت من التدخّل بين الأطراف فكلهم إن لم يكرهوني فهم لا يكنّون لي حباً، ورغم هذا لم أستطع أن أبقى واقفة هكذا فبادرت إلى الطفلتين أسكتهما وأحاول تهدئتهما حتى استجابتا لي أخذتهما إلى الحديقة ورحت أقص عليهما بعض القصص حتى اطمأننت عليهما فتركتهما هناك وعدت إلى الداخل فرأيت عمتي تتصل هاتفياً ب(سامي) تريد منه الحضور لحل المشكلة، لكن عاملة (السنترال) أخبرتها أن الخطوط الداخلية عاطلة ولن يتم إصلاحها قبل يومين ... أغلقتْ الهاتف بغضب وبقيت المسكينة في حيرة ... قلت لها:

– لماذا لا تتصلين بعمي للحضور؟

نظرت إلي شزراً وأجابت بعد أن أدارت وجهها عني:

– لقد سافر هذا الصباح.

نادت بأعلى صوتها تستدعي (أم أحمد) طالبة منها الذهاب إلى محل عمل (سامي) وإحضاره، فاصفرّ لون (أم أحمد) وقالت:

– اعذريني يا سيدتي فأنا إن عبرت حدود شارعنا هذا سأتوه ولن تجديني بعد ذلك أبداً ...

نظرت الأم إلى نسيبها الذي أخذ يضحك باستهزاء منها ومن (أم أحمد) قائلة:

– اضحك ... ستضحك كثيراً عندما يأتي (سامي) ... لن أتركك اليوم .. ابق هنا ... هيا يا (لمى) عليك الذهاب لإحضار (سامي) وبسرعة.

أجابتها:

– ولكن يا أمي ... إن (نادية) وأمها وخالتها قد اتصلن هاتفياً وسيحضرن بعد نصف ساعة ... — ثم استدارت صوبي وأكملت — لماذا لا تذهب (سامية)؟ ... ابعثيها هي ... ما فائدتها إذن إن لم تساعدنا في مثل هذه الظروف؟!

أجبت فوراً:

– أنا على أتم الاستعداد للذهاب يا عمتي ... فقط دوّني لي العنوان وسأذهب إليه سريعاً .

وعلى مضض كتبت (لمى) العنوان وخرجت مسرعة فاستقلّيت أول تاكسي صادفته وما هي إلا نصف ساعة حتى كنت أستقلّ المصعد إلى الدور الخامس، سألت عنه فأشاروا إلى مكتب جلس خلفه رجل ضخم بشوارب كثيفة ذا شخصية مهيبة خمّنت أنه مسؤول إداري فسلمت عليه باحترام وشرحت له احتياجي في الدار لوجود (سامي) لأمر عاجل استدعى حضوري، فرحب الرجل بي وطلب مني الجلوس لحين حضور (سامي) ... جلست وكلي إحساس بالقلق، مرت دقائق رأيت بعدها (سامي) مقبلاً من إحدى الأبواب الجانبية وهو يحمل في يديه حزمة من الأوراق كان يقرأ فيها وضعها مباشرة على مكتب المسؤول وبدأ يشرح له دون أن ينتبه لوجودي ... الحقيقة أن هيئته العامة توحي بأنه شخص محترم في محل عمله ...

قال له:

- لم أرسل في طلبك من أجل المشروع يا سيد (سامي)، لكن هذه الفتاة – وأشار إليّ فالتفت (سامي) إلى حيث أشار – تود التحدث إليك .. تفضل .

شحب لونه للحظات وتوترت عضلات وجهه لدى رؤيتي ولم يتحرك من محله، بعبارة أخرى أنه صعق عندما شاهدني. حينذاك تقصدت أن أبتسم لكي يطمئن نفسياً ... فربما تخيّل حدوث أمر مُرعب لعائلته استدعى حضوري، حينئذ أشار إليّ باللحاق به في زاوية الغرفة ... قلت أطمئنه:

- لا ترتعب يا (سامي) لم يحصل أي مكروه لكن عمتي أرسلتني في طلبك إنها في مأزق يستدعي وجودك ... إنها (سها) وزجها يكادان ينفصلان ... وعمتي الآن في وضع لا تحسد عليه .

استأذن (سامي) من المسؤول في الانصراف وقال:

- على أية حال لقد دققت هذه الخارطة وقد وافقت على تنفيذها وأرجو منك الإشراف عليها ...

ترك (سامي) المدير وخرج من الغرفة ... بقيت في مكاني لا أدري ما أصنع، هل سيعود ويصحبني معه أم لا؟ إنّه لم ينطق ولا بكلمة معي ... في هذه الأثناء رن جرس هاتف المسؤول فاستغربت ذلك إذ أن عاملة السنترال أخبرت عمتي بعطل الخطوط الداخلية وهاهو ذا المدير يتحدث بهاتفه ببساطة، انقطع حبل تفكيري بدخول (سامي) وأشار إليّ بالانصراف معه، فودعت مديره بسرعة وخرجت أمشي لا بل أركض خلف (سامي) ذي الخطوات الواسعة ولحقت به عند المصعد، ونزلنا معاً إلى كراج المديرية حيث سبقني إلى سيارته البيضاء، استقلّها وفتح لي بابها الأمامي فجلست فيها والواقع أن منظر الشارع وهو قريب إلى الجالس جميل ومحبب، قرأت الفاتحة في سري عندما بدأ (سامي) بالقيادة فهو سريع للغاية، ولم أتوقع أن يسألني بغضب عن سبب حضوري؟! ... بدهشة من سؤاله أخبرته ما حدث ووضحت له أني ما حضرت إلا لاستدعاء المساعدة فقاطعني قائلاً بحدة:

- في المرة القادمة لا تحضري إلى محل عملي مهما كان السبب، وحتى الهاتف لا تستخدميه ... مفهوم؟

سكتّ ولم أجبه فعاود سؤاله:

- ألم تسمعي ما قلته لك؟

- بلى، سمعت فلا داعي لكل هذا الزعيق فسمعي جيد والحمد لله، ولكني لم أفهم سبب انزعاجك من إلى هذه الدرجة ... يمكن للمشاكل أن تحصل في أي بيت بحيث يحتاجون ابنهم الأكبر لحلها، خاصة إن كن نساء ضعيفات لا حول لهن ورب الدار غائب ... فلماذا يا ترى لا ترغب بمساعدتهن ... أظن أنه واجبك!

قال بعد أن أطلق زفرة حبيسة:

- وكيف لا أنزعج منك وأنت تضايقينني في عملي ثم إنك لا تعرفين أمي ونزواتها ... ولو استجبت لطلباتها فلن أستطيع الاستمرار في العمل!! فـ(سها) وزوجها دائما العراك والخصام بل قولي هوايتهما المفضلة .. لقد هددها بالطلاق والضرب أمامك أليس كذلك؟!

قلت:

– نعم .

أضاف:

– نعم، ثم شتم أحدهما الآخر ...

بتعجب قلت:

– نعم، نعم كيف عرفت ذلك؟

وأكمل:

– ثم اتصلت أمي بالهاتف فأخبروها بوجود عطل فيه فالتفتت إلى (أم أحمد) وطلبت منها الحضور إليّ فاعتذرت عن ذلك بأنها ستضيع لو تُركت وحدها!

قلت بحماس:

– وكأنك كنت حاضراً معنا! أو أنك دبّرت كل ذلك؟!

أجاب:

– نعم .. أوصيت عاملة السنترال بذلك وكذلك (أم أحمد) .

قلت:

– و(لمى) هل أنت أوصيتها أن تعتذر لعمتي بحضور (نادية) وأهلها؟

وما إن سمع اسم (نادية) حتى ضغط كابح السرعة وأوقف السيارة على جانب الطريق والتفت إليّ قائلاً:

– ماذا؟ ماذا قلت؟ أعيدي ذلك!

قلت:

– عمّن؟ عن (لمى)!

بلهفة قال:

– نعم، ماذا قالت (لمى) لتعتذر لأمي؟

– اعتذرت لها بأنها تنتظر وصول (نادية) وأمها وخالتها ... هذا ما سمعته منها .

انزعج (سامي) لسماع الخبر وضرب مقود السيارة بكفه وأدار وجهه إلى الجهة الأخرى وقد شرد في تفكيره ... احترت ماذا أفعل ففضلت الصمت على أمل أن يشرح لي ما الأمر، مضت دقائق قبل أن ينطلق بالسيارة من جديد ... فقال:

– اسمعي يا (سامية) ستترجّلين على مقربة من البيت وعليك أن تعودي لوحدك سيراً على الأقدام وتخبري أمي أنك لم تجديني ... لأني .. لأني قد خرجت منذ الصباح في مأمورية ولا تعرفين متى سأعود، أفهمت؟ ..

لم أجبه، فتعجّب لذلك وقال:

– لماذا لا تنطقين؟ ها! هل في الأمر صعوبة عليك؟!

قلت:

– بل في غاية السهولة، إلا أنني لست على استعداد للكذب هكذا لا من أجلك ولا من أجل إنسان آخر ... فالكذب حرام ... نهانا رسول الله (ص) عنه حيث قال:" إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عنه الله صدّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً ".

– أوه ماذا دهاك ... إنه كذب أبيض ... لن يضر أحداً .
– ولو ...
– أف لك ...
– ولماذا الكذب؟! أخبرني بالسبب!
– هذا ليس من شأنك ... إذا أردت أن تصنعي لي معروفاً ...
– أرجوك لا تعد للكلام حول الكذب ثانية ... ولن أقول إلا الحقيقة.

بغضب قال:

– والصفقة التجارية التي وافقت عليها، أليست كذباً؟! ألم تكذبي على جدّي!!
– كلا لم أكذب، وإن سألني جدّي فلسوف أخبره الحقيقة كاملة، أنا أخفي الحقيقة عنه فقط ولم أكذب عليه بعد!!
– حسناً ... يكفي الآن، قولي لهم أني أوصلتك للباب وذهبت ... وهم سيفهمون ...

عند باب البيت ترجلت من السيارة وانطلق (سامي) بها مسرعاً، عندما دخلت إلى الصالة رأيت أمراً لم أتوقعه مطلقاً، كانت عمتي تضحك مع صهرها وابنتاها وقد حضرت امرأتان في متوسط العمر مع فتاة رائعة الجمال، بيضاء اللون زرقاء العينين بملامح فاتنة وقد صبغت وجهها بالكثير من الألوان والمساحيق، والجميع في سعادة تامة حتى رأوني، سلمت على الجميع فسألت عمتي عن (سامي)، أخبرتها أن (سامي) رفض الحضور، فلم تهتم كثيراً، لاحظت انزعاج الفتاة – وكانت هذه هي (نادية) – صاحبة (لمى)، سألت (نادية) (لمى) عني ومن أكون، فأجابتها الأخيرة بكل خجل وإحراج بأني ابنة عمهم ضيفة لديهم لفترة مؤقتة وأنني أسكن هنا لخدمة جدّي والعناية به في أمور حياته ... كل ذلك حدث أمامي، فلم أبد اهتماماً لما قالت فلا هم ولا ضيوفهم يعنونني بشيء، واستأذنت بالانصراف عائدة لغرفتي لمعرفتي بأني إنسانة غير مرغوب بها بينهم حسبما أخبرتني عمتي سابقاً، عندما كنت أعود لغرفتي لاحظت نظرات (نادية) الحارقة إليّ وكأني منافسة لها ... عدت إلى شأني أفكر في أحداث هذا اليوم! ما كل هذه الضجة وما معنى هذا الوئام والانسجام، أين الآن من الصبح؟ وما هذه الأكاذيب التي تحيط بي؟ ... ولا أظن أن (سامي) سيخبرني بما يدور هنا ... أرسل جدّي يستدعيني للغداء معه، لقد نسيت اليوم أن أعدّ له طعام الغداء، فحضر المسكين ليتناول طعامه هنا معهم ... رأيته جالساً في محله المعتاد، سلمت عليه ولاحظت اكفهرار وجوه الباقين لحضوري ... الغريب في الأمر هو حضور عمي الذي كان يُفترض فيه أن يكون مسافراً ... اعتذرت من جدّي لتركه دون طعام بسبب انشغالي بالذهاب إلى دائرة (سامي)، فابتسم لي وقال:

– لا عليك يا (سامية) لست مضطرة لذلك ولا مجبرة عليه ...

وقاطعت عمتي جدّي بأحاديث أخرى مع (أم نادية) التي جاورتها في المقعد في محاولة منها لتغيير الموضوع، وهكذا انشغل الباقون عني وحمدت الله على ذلك ...

خامرني فضول في معرفة ما جرى لـ(سها) وزوجها لكنني خشيت أن أسمع منهم رداً فظاً فأكملت غدائي وانصرفت على عجلة إلى غرفتي ...

* * *

في المساء جهّزت لجدي العشاء وبعده انضم (سامي) إلينا ... منذ أن دخلت دار جدّي و(أبو خضر) يتناول طعامه لوحده ويتركني وجدّي معاً، وفي هذا المساء طلب (سامي) فنجان شاي، ولما رأيته لا يزال يتناول طعامه رققت لحاله وأسرعت بإحضار الشاي نيابة عنه فكان (أبو خضر) ممتنّاً مني ... فرح جدّي كثيراً بقدوم (سامي)، وهو الذي قلّما كان يزوره، وضعت فناجين الشاي كلاً بقربه وتركت فنجان (أبي خضر) الطيب قرب فنجان جدّي لعلمي بمحبته له، وكان (أبو خضر) قد فرح بفنجانه كثيراً وجلس قرب جدّي يرتشفه على مهل، اندهشت لما قام به (سامي)، لقد طرده من المكان وطلب إليه أن يتناول شايه في المطبخ وزاد في الطين بلة ما طلبه منه من عدم التحدث إليّ — أنا – خطيبته ... فَغرت فيّ من الدهشة وأحسست بالأسى تجاه (أبي خضر) المسكين، وقبل أن أعتذر منه وجّه (سامي) كلامه لي بحدة قائلاً:

– وأنت ... لقد فهمت أنك تعدين الطعام لجدي وتتناولينه معه ... ولكن ما الداعي لحديثك مع الغرباء أمثال (أبي خضر)؟ ...

بهتّ ولم أجبه بشيء ... فالأمر كله تجنٍّ وظلم وهاهو ذا ينتقم مني لأني لم أطع أوامره بالكذب من أجله ففضلت الصمت، ولحسن الحظ فإن جدّي قد أجابه:

– اسمع يا (سامي) لك الحق في أن تمنع خطيبتك من مجالسة الغرباء ولكن ليس (أبا خضر)، ثم ... ثم إن الرجل لا يجالسنا ولولا أنها وضعت له فنجان الشاي هنا لما جلس ... ثم ... ثم إنك في بيتي .. وهل تظن أنك أكثر غيرة عليها مني يا ولد؟!

وبدلاً من أن يُجيب عليه التفت إليّ مخاطباً:

– هل سمعت ما قاله جدّك ... هذا هو جدّك أرأيت كيف لا يحترمني ... وتطلبين مني زيارته وصلته ... ها قد رأيت بنفسك طريقته وأسلوبه في الكلام معي ... وكأنني طفل صغير ..

بقيت صامتة لأنني شعرت أن الجدّ وحفيده لا يعدوان أن يكونا طفلين صغيرين .. وقد تملّكهما الغضب ... وبلا سبب حقيقي .. فدعوت الله سبحانه وتعالى في سرّي أن يحل هذه المشكلة وقد نذرت في نفسي أنه إن حُلّت هذه المشكلة فلسوف أسبّح مائة مرة أصلي على محمد وآله (ص)، فأنا أكره الخصام وأخافه ولكن يبدو أن كل من في هذا البيت لا عمل له سوى الشجار بعضهم مع البعض ... فجأة وكأن الله سبحانه استجاب دعائي ... ضحك جدّي وربّت على ركبة (سامي) بجواره قائلاً:

– برّد أعصابك يا بني ... وتناول الشاي ... لك الحق أن تغار عليها ... ها، لم تخبرني متى ستشتري خاتم الخطبة لك ول(سامية)؟

ببرود أجابه:

– الجمعة إن شاء الله تعالى ... هذه الجمعة كنت تعباً للغاية ... لذلك سأصطحبها الجمعة القادمة ..

قلت:

– ولكن يا جدّي ...!

– ماذا يا (سامية)؟!!

– ألا يمكن تأجيل شراء الخواتم؟ ..

– لماذا يا بنيتي؟

– إنني ... إنني أخجل أن أضعه في إصبعي .. و ...

وهنا قاطعني (سامي) مستغلاً الفرصة:

– هل سمعت ما قالته ... ألم تجد لي عروساً غيرها؟!
– إن لم تفعلي ذلك فلسوف أغضب منك يا (سامية) .
– حسناً ... حسناً ... أيها الجد العزيز الكثير الغضب للاشيء ... لن أدعك تغضب مني .
سرحت وأنا أرتشف الشاي الساخن في حالي وما أنا عليه .. بينما كان جدّي وحفيده يتناقشان حول أمور بسيطة يُضخمانها وكلٌّ يحاول أن يّثبت للآخر صواب رأيه تساءلت في نفسي ... إن الفتاة في مثل حالي ستُسعد جداً بشراء خاتم لها وستفرح كثيراً وتتباهى به أمام صديقاتها ... ولكن أنا!! ... لا بأس ... الحمد لله على كل حال، استأذنت جدّي في الانصراف فاستوقفني (سامي) قائلاً:
– مهلاً ... سآتي معك .
خرجنا سوية ... وارتأيت ألا أتكلم معه فما فائدة الكلام مع إنسان يكذب ... ولم يخب ظني به، فقد قال:
– آسف إن كنت آلمتك بكلامي ... فأنا أريد من جدّي أن يعتقد حقيقة أننا مخطوبان، و إلا من يغير عليك ومن رجل عجوز مثل (أبي خضر)؟!
– لا بأس عليك .. فأنا ابتدأت أشعر باللامبالاة تجاه ما يحدث من أمور غريبة حولي ... ولكن ما الذي جعلك تزور جدّي هذا المساء؟! هل اعتقدت بكلامي لك سابقاً ... أو .. أو ..
– أو .. ماذا؟
– أو إن عمتي قد أرسلتك ثانية؟!
بانزعاج قال:
– دعيك من أمي ..
– لم تخبرني ما الذي أتى بك؟!! هل اقتنعت بصلة الرحم؟!
– هكذا ... أردته أن يشعر أننا مخطوبان فعلاً ... فليس من المعقول أن يترك الخطيب خطيبته طوال الوقت الذي يتواجد فيه في الدار مع جدّه ولا يسأل عنها ... ثم ... ثم ... إنك لا تسأمين من التحدث إلى كبار السن حتى إنك تفضلينهم على الشباب .
أطرقت هنيهة أفكر بما قاله، أحسست أنه يتعلل بهذا السبب، فجأة ذكرت موقفه من (نادية) وهربه منها فتوقفت عن السير وسألته:
– حسناً ... قل لي ... لماذا هربت صباح اليوم من (نادية) وأمها؟!
تسمّر في مكانه وبدأ يتنفس بصعوبة كمن قد أصابه سهم قاتل، وبغضب قال:
– وما شأنك أنت ... أنت فضولية جداً ... هذا أمر لا يهمك ولا يعينك ...
ومشى قليلاً إلى الأمام ثم عاد إلي كمن تذكر شيئاً، فقال:
– بالمناسبة ... إذا طلبت أمي أو أي شخص آخر منك ...
أكملت له:
– لن أحضر إلى دائرتك .. فهمت ذلك جيداً ... ألا توافقني أن الحديث إلى الكبار الهادئين أفضل من الحديث إلى الشباب النزقين السريعي الغضب؟
قال بفتور وقد أحس بالخجل:
– بالطبع لا ... ولكنك تتدخلين فيما لا يعنيك فتسمعين ما لا يرضيك ..
– وهل يمكن لإنسان أن يتجاهل ما يحصل حوله وكأنه حجر أو شجرة أو جماد، هل يمكن أن أتجاهل كل ذلك الشجار الذي حصل في الصباح بين (سها) وزوجها وعمتي و (لمى)؟ لقد تشاجروا حتى ظننت أنه سيقتلها ...

وجئت أستنجد بك ... فإذا بك تعرف كل شيء وتتجاهله ... وعندما أعود ... أجد المشكلة قد حُلت ... أمر عجيب .. لماذا لا تخبرني عن سبب ذلك كله!!

- ألم أقل لك .. أنت فضولية! ..

- أشكرك ...

قلت هذا وتركته وأنا أتميز غضباً متجهة لغرفتي، فناداني:

- تمهلي ... رويدك ...

توقفت فتبعني ووقف في مواجهتي وهو يقول:

- إنها قصة لا تنتهي ... هما على هذا المنوال منذ أن أنجبت ابنتها الصغيرة ... يتخاصمان في الصباح ويتصالحان في الظهيرة ويتناولان الغداء والعشاء معنا ويعودان إلى دارهما سوية ... وتستمتع أمي بالظهور أن لها ابناً يساعدها في العراك عند الحاجة ... رغم علمها سلفاً أن مشكلتها لا تنتهي وهي مشكلة أسبوعية إن لم نقل يومية ... وهي لا تهتم في الواقع لحضوري ... ولا تستوعب ما تسببه لي من ضرر في محل العمل ... لذا أوصيت عاملة البدالة أن تخبر من يتصل من البيت بذلك ... إن أمي تظنني مستغنياً عن العمل الحكومي بسبب غنى أبي وثرائه ... لكنها مخطئة فلأبي مشاريعه ... العاطفية ... الخاصة التجارية التي لا يعلم عنها أحد ... وهو يتكتم على أموره ... اتركينا من هذا الحديث ... أخبريني .. يبدو أنك تملكين قدراً من الثقافة ... هذا واضح من أسلوب كلامك ... هل أكملت مرحلة دراسية ما؟

- خمّن أنت!

- أكملت المتوسطة ...

بخيبة أمل أجبته:

- لقد حزرت ... بالضبط فأنا قد أكملت المرحلة المتوسطة من المدرسة ..

وعندما رأيته لم يقتنع استأذنت منه قبل أن يكثر من الأسئلة وتركته راجعة إلى غرفتي ... وعندما كنت أسدل الستائر لاحظته يقف في محله الأول حيث تركته وقد أمسك بيده سيجارة يدخنها ساهماً ينظر صوب غرفتي ... فأسدلتها بسرعة وأطفأت النور ثم دخلت في الفراش وقد عزمت أن أفي بنذري من الصلوات فأخرجت المسبحة من تحت وسادتي وبدأت بها ثم غفوت دون أن أفكر بشيء آخر ...

* * *

بعد تلك الليلة تغيرت أطباع (أبي خضر) وأخلاقه، وأصبح يريد العزلة ويتعلّل بمختلف العلل لكي لا يبقى مع جدّي ...

كما أن أخلاقه من ناحيتي قد تغيّرت أيضاً، فلم يعد يرحب بي كالسابق ... بل ربما على العكس، فكرت في أمره كثيراً ووجدتني قد ظلمته وسببت له الكثير من الحرج، كان يشعر بأهميته وحاجة جدّي المنبوذ من قبل عائلته إليه حتى حضرت أنا فتغيرت المعادلة، هذا من ناحية، وأما من ناحية أخرى فإن خصام (سامي) معه جعلني في موقف محرج، جعلني أحس بالإثم لذهابي لعند جدّي، وأشك أنه قد تعمد فعل ذلك كي أترك جدّي وزيارته، فهو لا يريد زيارة جدّي وكذلك لا يستطيع أن يتركني عنده طوال الوقت المتواجد فيه في البيت، وهل من المعقول أن أكون مرتبطة بـ (سامي) وأتركه في الوقت نفسه الذي يكون موجوداً فيه في الدار؟!! .. فكرت في هذا الأمر ورأيت أن وجهة نظر (سامي) مقبولة خاصة بعدما سببه لـ(أبي خضر) من انزعاج، لكني لا أستطيع أن أترك جدّي!! لذلك ذهبت إليه وشرحت له ما دار في ذهني حول (أبي خضر) وأنني من الآن فصاعداً لن أزعجه وسأحضر إليه كضيفة وليس كربة بيت، لكن الأمر الذي لم أتوقعه هو فرحة جدّي لهذا القرار!! حمدت الله في سرّي الذي ألهمني وهداني إلى هذا الحل ... فهمت الآن أن جدّي يحب (أبا خضر) كأخ وصديق في آن واحد ... وقبل أن أعود لغرفتي طلبت من جدّي ردّ الزيارة إليّ فرحب بذلك كثيراً ... في غرفتي أعملت فكري فيما يجب عليّ فعله، فهاهو ما قد تخيلته حلاً سابقاً قد أثبت فشله، وفي الوقت ذاته لا أستطيع أن أذل نفسي لأجل لقيمة أسد بها رمقي فأذهب لتناول الطعام معهم دون أن يكلفوا أنفسهم ولو مرة واحدة تلك الفترة باستدعائي للأكل بصحبتهم ... وإذا أردت أن أشتري الطعام جاهزاً فلن تكفيني النقود التي أعطاني إياها جدّي في إبرام العقد إلا فترة ضئيلة ... احترت يا ربي ماذا أفعل؟ وكيف سأحل هذه المشكلة؟ ... أكان (سامي) محقاً عندما طلب مني التروي في قبول الزواج لأنه لا يوجد لي أحد هنا أستطيع الاستعانة به؟ ... كلا ... إن ربي سيهديني إلى حل ما ... وأنا أشكو همي إلى الله وحده؛ فتحت باب غرفتي على الحديقة وتأملت الساحة أمام الغرفة، أرضها مبلطة بعرض مترين وطول أمتار ثلاثة وبسقف من الأعلى أي هي غرفة بلا جدار سادس وفجأة اهتديت إلى فكرة جيدة سرعان ما رفرفت روحي سعيدة بها، عندها ذهبت إلى عمتي وبحذر قلت لها:

– عمتي إذا لم يكن لديك أي مانع أريد أن أشتري لي موقداً طباخاً صغيراً كي أستقل عنكم فلا تنزعجوا أو تتضايقوا من وجودي، وكذلك كي لا أحس بالحرج لوجود (سمير) أو زوج (سها)!!

تطلعتْ إليّ برهة ثم أجابتْ:

– وإذا تلطخت الجدران بالدخان ف– ...

قاطعتها:

– لن أستعمله داخل الغرفة، سأضعه في الباحة أمام الغرفة وأعدك أن أنظفه يومياً كي لا يضايقك منظره!!

قالت:

– لماذا لا تتناولين طعامك عند جدّك؟! أم أنه طردك؟

– كلا يا عمتي ... جدّي لم يطردني ... لكن أظن أن (سامي) ينزعج من ذهابي إلى هناك علاوة على أني لا أحب أن أسبب له المشاكل ..

علمت أني قد مسست الوتر الحساس لديها عندما جعلت الأمر يبدو وكأنه طلب من (سامي)، فقالت:

– هذا أفضل من رؤيتك يومياً على مائدة الطعام، لا بأس استقلي بطعامك ...

شكرتها وبفرحة غامرة عدت لغرفتي أعدّ النقود التي منحني إياها جدّي فوجدتها تكفي لشراء طباخ صغير مع ملحقاته وأوان قليلة وأدوات صنع الشاي ... وما هي إلا ساعتان حتى كان كل جزء منها يحتل مكانه الذي حددته له .. حمدت الله كثيراً وبعد أن تناولت أول وجبة طعام صنعتها بيدي، أحسست براحة نفسية عظيمة وتأملت، كيف رحمة ربي وسعت كل شيء ... جعل السعادة في أمور صغيرة لا يتصورها الإنسان ... شعرت بالاستقرار وأخذت أفكر في جلب مكتبة أنظم بها الكتب ورأيت الفرصة سانحة لذلك ما دامت عمتي قد سمحت لي بالخروج ... وهكذا فعلت، أوصيت النجار على صنع مكتبة متوسطة الحجم رسمت لها شكلها بحيث أنها تكفي لضم كتبي في جزء منها وفي الآخر أستخدمه كمخزن للأواني وأدوات الشاي، وتعمدت أن يستخدم فيها أقل ما يمكن من الخشب، حيث وافق النجار على إحضارها بعد أيام ثلاثة قبل الساعة التاسعة أي قبل استيقاظ عمتي والبقية فلا أريد أن أثير المشاكل ... وفى بوعده وأحضرها لي في الموعد المحدد رتبت الكتب والأدوات فيها وألقيت بنظرة سريعة على غرفتي أو لنقل شقتي حيث أصبح لي الآن بيت صغير مستقل جميل ... سجدت لله شكراً، وأحسست بالاطمئنان يغمرني، وخالجني شعور بالارتياح خال من الإزعاج ... وحافظت بعد ذلك على الحضور إلى مائدتهم عندما يستدعوني وذلك عند حضور جدّي ... وصباح هذه الجمعة بعد الإفطار لم ينس جدّي أن يذكّر (سامي) بشراء خاتم الخطوبة، وكأنه قد نطق بما يشين فإذا بعمتي تقول بعد أن قطبت جبينها:

– سآتي معك يا (سامي) فأنتما لا تعرفان ماذا تشتريان!

– على الرحب والسعة يا أمي .

لكن جدّي قال:

– لا ... لا تذهبي معهما .. دعيهما وحدهما ... وكفاك تدخّلاً.

ثم وجّه كلامه لعمي غاضباً:

– لماذا لا تنصح زوجتك يا بني؟

قال عمي لزوجته بعد أن غمزها بإحدى عينه:

– الحق مع أبي يا حبيبتي ... دعيهما .

صاحت (لمى):

– لكني أريد أن أشتري فستاناً لذلك سأذهب معه أليس كذلك يا (سامي) .

قاطعها عمي:

– كفاك هراء، لن يرضى جدك بهذا ...

فسكتتْ على مضض وهي تنظر إلي وكأنها تقول: افرحي ... لقد انتصرت .

الواقع أن الأمر كان سيان بالنسبة لي، فما هو إلا مشروع وهمي لذلك قلت:

– أرجو معذرتك يا جدّي، ولكن المألوف مرافقة العريس لأهله كي يفرحوا بما سيشتريه لخطيبته، فلماذا تمانع في حضور عمتي أو (لمى)، وأنا سأسعد بوجودهما كثيراً ... ثم إنها سيارة واحدة ومن الطبيعي أن يستفيد الجميع منها وأما بالنسبة لي فسأفيد من خبرتهما ...

انشرح وجه عمتي و (لمى) لكلامي هذا فأحسست بثقل يزاح عن كاهلي ... أما (سامي) فأزعج الجميع بقوله:

– لماذا تناقشين أمراً بتّ فيه جدّي، كل من في هذا البيت لا يخالف لجدي أمراً وعليك أيضاً أن تطيعيه ... جدّي قال اذهبا بمفردكما والأمر كما قال هيا استعدي للذهاب ...

إن أسلوبه في الكلام لم يعجبني بل أغاظني فقد كان يتحدث إلي بعلياء وتكبر لذلك أطرقت ولم أعلّق على كلامه بشيء .. فأعاد أمره إليّ بالاستعداد، فأجبته بكل برود:

– إني على أهبة الاستعداد للخروج، وعليك أنت الاستعداد لذلك فأنت لا تزال بالملابس المنزلية ... إلا إذا كنت تريد الخروج بها ... فهيا ...

ضحك الجميع فنظر (سامي) إلى ملابسه وابتسم وقام يتهيأ للخروج رافقته إلى محل الصاغة وكنا لا نتبادل الحديث أثناء الطريق وكأننا في مهمة رسمية، فانتقيت لي خاتماً رفيعاً أقرب إلى الحلقة لا زينة فيه كي أستطيع التحلي به دون أن يعتبر زينة، وبثمن بسيط أيضاً، أما (سامي) فاختار لنفسه خاتماً كبيراً من الذهب الأصفر اللماع، قلت له بهمس وأنا أغالب ضحكتي:

.(سامي)، لا يجوز للرجل التزيّن بالذهب ... الذهب للنساء ... اختر لك خاتماً من الفضة ..

بدا التعجب عليه وبعد أن تأفف قليلاً من كلامي، انتقى واحداً من الفضة، ففرحت في نفسي، لأنه قبل كلامي، انشغل (سامي) بدفع فاتورة الحساب بينما كنت أشتري مناديل للرأس كنت بحاجر إليها من المحل المقابل للصائغ، ودفعت له الثمن من نقودي، حضر (سامي) وأراد أن يدفع ثمنها لكنني شكرته وأخبرته بعدم حاجتي لذلك ... استغرب وقال:

– لكني أنا الرجل وأنا الذي يجب أن يدفع الثمن ...

– لا بأس في ذلك، لقد دفعت ثمن خاتمي وفيه الكفاية ..

وبلين ومداهنة لم تَخفيا عليّ قال:

– إذن دعيني أدعوك للغداء بدلاً من ذلك .

قلت في نفسي ماذا يظن نفسه، أيعتقد أني سلعة رخيصة لأقبل دعوته! قلت بدون أن أجامله:

– لنعد للبيت ... هيا بسرعة .. أنا لست من تلك الفتيات اللواتي تعرفهن ..

قلت هذا وسبقته إلى السيارة، عندما صعد هو الآخر رأيته محمراً من الخجل ارتحت لهذا، ولخجله لم يتبادل معي أية كلمة طوال طريق العودة، وكان هذا الشيء يريحني في (سامي)، أنه قليل الكلام ..

* * *

عندما استلمت مكتبتي الصغيرة زاد النجار على الثمن الذي اتفقنا عليه قليلاً فاضطررت أن أدفع له ما تبقى عندي من النقود ولم يتبق لي سوى النزر القليل، الفرحة التي غمرتني بعدما رتبت فيها الكتب والأدوات نستني حاجتي للمال ... إن دخولي وخروجي من الدار أمر أقرب للمستحيل، أي أنني إلى السجينة أقرب، فعمتي لم تسمح لي بالتسوق إلا مرة واحدة أسبوعياً ويوم الجمعة فقط عندما تكون هي نائمة ... ولم يزح إحساسي بالسجن هذا سوى زياراتي لجدّي العزيز، الذي بدأ يبادرني بالزيارة، وفي أول زيارة له استغرب وجود طباخ عندي واستفسر عن السبب فأخبرته أنني أشعر بالحرج من وجود (سمير) زوج (سها) الدائم تقريباً فأفضّل أن أنعزل بالطعام علاوة على طول فترة الطعام المرهقة بالنسبة لمن لم يعتد عليها ... ولم يكن هذا بالأمر المهم قياساً إلى مشكلة الحجاب ... نعم فعند زيارتي له كنت مرتدية الحجاب ومتعللة بوجود صاحبه (أبو خضر) ... أما الآن ولأنه في غرفتي يجوز ألا أرتدي حجاباً منه فالجد كالأب يجوز خلع الحجاب أمامه وارتداء الملابس المنزلية وهو أمر سهل، لكن الصعب فيه هو عندما سمعت وقع

أقدام رجل تقترب من غرفتي فخمّنت أن يكون (سامي) أو أحد ما، أسرعت بارتداء عباءتي لئلا أفاجأ وقد علقتها قرب الباب ليسهل تناولها عند الحاجة ... وإذا بالقادم (سامي) جاء يطلب جدّي لأمر ما، استغرب جدّي عدم خلعي العباءة أمام (سامي)، فسألني:

– ما هذه الأفعال يا (سامية) أترتدين العباءة أمام خطيبك، بل هو زوجك، لماذا إذن أبرمنا العقد الشرعي بينكما ...

قلت:

– يا جدّي إن القضية ليست كما ...

أما (سامي) المزعج فقد قاطعني مستغلاً الفرصة لصالحه وهو يضحك علي لشدة ارتباكي وهذه هي أول مرة أراه يضحك فيها هكذا ...

– ها أنت ترى بنفسك يا جدّي ... إنها لا تطيعني ... وهي تحرمني حتى من مجرد لمسها .. انظر ...

وتقدم مني يحاول مس يدي فصرخت به دون أعي:

– ابتعد ... ابتعد عني ... إياك أن تلمسني وإلا ...

تقهقر (سامي) عندما شاهد جدّيتي في التهديد، وتراجع إلى جدّي وهو لا يزال يتضاحك مما جعل جدّي يخاطبني معاتباً:

.(سامية)!! ما هذا! .. أأنت حقاً تفعلين ذلك .. هل هنالك أمر تودين أن تطلعيني عليه؟ ...

وقبل أن أتفوه بكلمة أجابه (سامي):

– لا عليك يا جدّي ... إنها لا تعرف بماذا تبرر تصرفاتها ... لكن .. لا بأس .. فأنا لي سعة صدر وصبر كبيرين ... أنا لا أهتم لتصرفاتها ... فهي لا تزال صغيرة ... ستلين فيما بعد .. والآن هيا معي أريدك في أمر عاجل ..

ورافقه خارجاً .. تألمت كثيراً لما حصل، وشقّ عليّ ألا أخبر جدّي بالحقيقة، وأزعجني أكثر ما يُظهر (سامي) نفسه أمامه بمظهر المظلوم أو يصفني بالصغر، واحتقرت كذبه هذا واستهزاءه بي حتى أن الدموع طفرت من عيني .. وفكرت من أين علم ها السامي بوجود جدّي معي؟ وما الذي أتى به!

* * *

في اليوم التالي حسبت ما عندي من نقود فوجدتها لا تفي بحاجتي لشراء مواد الطهي فأصبت بخيبة أمل كبيرة، فأنا لا أريد إخبار جدّي بحاجتي إلى المال فهو سيسألني لماذا لا أطلبه من زوجي!! وأنا لا أريد أن أهين كرامتي أمام (سامي) أو أهله بل لا أستطيع أن أتخيل نفسي أستلم نقوداً من (سامي) ونظرات الكراهية والحقد تملأ عينيه، فكل شيء ملك للمؤمن إلا كرامته وكبرياؤه فهما من عزة الله تعالى ... فكرت بالاتصال بوالدتي هاتفياً أقترض منها بعض المال إلا أني تراجعت عن ذلك فهي ستسألني عن دقائق الأمور ولن أستطيع الكذب عليها وستثور ثائرتها فتذهب لنجدتي وربما ستفضح كل شيء لجدي، وهو أمر لن يؤول إلا إلى ضرر الجميع وأولهم جدّي ... نعم .. أولهم جدّي سيفقد ثقته بي ويعتبر حبي له خداعاً ... ماذا أعمل؟ يا إلهي ... وفجأة نظرت إلى ساعة يدي وكان تاريخ اليوم هو السادس والعشرون من الشهر، فتذكرت أنه لم يبق على استلامي لراتب الجامعة سوى يومين فقط وفي هذين اليومين

يمكنني أن أكون ضيفة على الغداء عند جدّي وأستغني عن العشاء، وبقي لدي خبز يكفي لإفطاري ليومين، سأعوضهما بعد أن أستلم النقود!! تبقى مشكلة واحدة وهي أنه كيف سأذهب إلى الجامعة؟ وكيف أخرج من الدار؟ .. فكرت سأغادر قبل استيقاظ الجميع وسأبذل جهدي في العودة سريعاً إذا ما حالفني الحظ .. وهكذا كان فاستضافني جدّي يومين على الغداء حيث نعمت بطبخ (أبي خضر) الشهير الذي كان يخلط بين الملح والسكر ووجدته أطيب من العسل عند بيت عمي وفي صباح اليوم الثالث خرجت مبكرة دون علم أحد، وصلت إلى الجامعة ودخلت غرفة المحاسب، القوائم قد جُهزت وبرفقتها قوائم التدريب الصيفي لهذه السنة ... كنت قد نسيت هذا الأمر تماماً، لما استلمت النقود وأعطاني المحاسب ورقة التدريب تحمل اسم الموقع الذي سأتدرب فيه لمدة شهر ونصف، أخبرني المحاسب بضرورة الالتحاق بمحل التدريب خلال يومين .. حاولت تأجيل التدريب إلى النصف الثاني من العطلة الصيفية لأعطي لنفسي مهلة من التفكير فيما عساني أفعل وكيف سأشرح الأمر للأعداء من حولي، وباءت محاولتي هذه بالفشل ولن أنتقل إلى الصف التالي إن عارضت ... عدت إلى البيت مثقلة بالهموم وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة وهذا أمر لم أتمكن من السيطرة عليه فالجامعة تقع في أطراف العاصمة علاوة على سوء المواصلات. المهم هيأت نفسي لاستقبال سيئ، ووطّنت نفسي على الصبر ... أول من رأيته لدى وصولي هي (لمى) تراقب الطريق وأسرعت بإخبار الجميع لدى رؤيتي .. وهكذا جاءت عمتي يتبعها عمي و (لمى) تبدو عليهم سيماء الغضب الشديد قبل أن تبدأ عمتي جولتها المعتادة أزاحها عمي من طريقه فوقف أعلى السلم المؤدي إلى القصر ولم أكن قد صعدته بعد، صاح بي غاضباً:

– إلى أين يا (سامية)؟! أين كنت منذ الصباح وإلى الآن؟! ها! ماذا تفعلين في الخفاء يا بنت؟! انطقي .

عادت إلى ذاكرتي مواقفه من أبي وأنا صغيرة، فأحسست باليأس من إنصافه لي، فقلت له بيأس:

– أرجوك أن تسمح لي بالدخول يا عمي لأشرح لك ما حصل.

– كلا .. لن تدخلي .. أخبريني هنا وحالاً ...

ونزل درجات السلم مسرعاً وقد تملكه الغضب، فابتعدت عنه، وفكرت أنه ليس هناك شيء أفضل من قول الحقيقة، بسرعة قلت:

– عمي .. لقد ذهبت لاستلام راتبي ..

– أي راتب يا بنت يا راهبة يا مؤمنة، أتكذبين أيضاً؟ ..

أخرجت دفتر الشيكات الجامعي، ودون أن أرد عليه قدمته له مع الدنانير اللواتي استلمتهن وتاريخ هذا اليوم مشخص عليه .. أمسك بالدفتر جيداً ووضع نظارته وأمعن نظره تارة به وأخرى بي ثم بضيق قال:

– لماذا لم تخبرينا أنك خارجة، ولم لم تخبريني من قبل أنك طالبة جامعية؟!

تبادلت عمتي و(لمى) النظرات بدهشة وحيرة، وشهقت عمتي قائلة:

– طالبة جامعية ... كذب .. هذا كذب وافتراء ...

أجابها عمي:

– بل الحقيقة ...

– إذن لا شك أنها طالبة خاملة راسبة في معهد مغمور ..

أحسست الدماء تغلي في عروقي ولكني أجبتها ببرود نرفزها:

– بل أنا طالبة مجدة وذكية وفي قسم الهندسة المدنية وعندما أتخرج إن شاء الله من الجامعة سأكون مهندسة مثل (سامي) و (سمير) وربما أفضل منهما.

– تكذبين .. إنك كاذبة .. لو كان حقاً ما تقولين لأخبرتنا به منذ أول يوم وصلت فيه ..

أجبتها:

– لكنك لم تسأليني عن مستواي الدراسي .. بل اعتقدت أنني جاهلة ومعقدة منذ اليوم الأول ... بل الساعة الأولى لوصولي، أما على أي أساس بنيت اعتقادك هذا؟ فهذا ما لا أعرفه!!

– والله عشنا وشفنا، المعقدات مهندسات ... و ..

– ﴿ولا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ..) صدق الله العظيم ..

بان الإحباط والانكسار على وجهها بوضوح، ومن شدة كمدها أشارت لابنتها بالدخول فتركاني وعمي، عمي الذي لم يتركني لحالي وتابع يقول:

– أنت يا (سامية) ماكرة جداً، لقد شغلت الجميع بكونك تدرسين في الجامعة، لتغطّي على الموضوع الأصلي، ألا وهو خروجك من دون استئذان فلماذا فعلت ذلك؟! ها! نحن عائلة محافظة ولا أسمح بخروج الفتيات لوحدهن .. أفهمت ..

– عمي العزيز .. الحقيقة أني لم أوّد إثارة المشاكل، خمّنت أنك لن توافق أو عمتي على خروجي .. كما حصل الآن!! حسناً، ماذا كنت سأفعل؟ أأصوم الليل والنهار وأكتفي بشرب الماء!! افهمني يا عمي، نفذ ما عندي من مواد للطهي ولا أستطيع مضايقتكم أو محادثة جدّي، أخبرني لو كنت في موقفي هذا ماذا كنت ستفعل؟! إنني وحيدة هنا، فلا أنا متزوجة وزوجي متكفل بإعالتي ولا أنا بنت عند أبي يرعاني ويرعى احتياجاتي، أم أن واجبه وأنا أعيش لديكم أن ينفق عليّ عاماً كاملاً، فلا أنا ضيفة عندكم ولا أنا من أهل البيت!! نعم لقد استقللت عنكم قدر استطاعتي لكن أيّ منكم لم يكلف نفسه عناء سؤالي كيف تأتّى لي أن أعيش ومن سينفق علي؟ .. وربما كنتم تنتظرون يوماً ما أعود إليكم فيه ذليلة حقيرة ... وهو أمر الموت أسهل منه .. قل لي بربك يا عماه إذا كنت قد طلبت الإذن من عمتي هل كانت ستسمح لي بالذهاب؟ أم تمنعني ... بالطبع ستمنعني لتتمتع برؤيتي أتعذّب ..

احمرّ وجه عمي خجلاً فلم يجبني بشيء بل ناولني الدفتر وعاد من حيث أتى وكما توقعت فإنه لم يسألني عن كيفية إمراري لمعاشي بعد ذلك ... وكأنه اكتفى وهو الثري بكوني أملك مالاً أنفق منه على نفسي .. غفر الله له، لم يكتف بهذا بل بعث إليّ بابنه يرعبني .

في المساء كنت جالسة على سجادة صلاتي أسبح تسبيح الزهراء (ع) بعد صلاة المغرب وهي 34 مرة أقول فيها الله أكبر و33 مرة الحمد لله و33 مرة سبحان الله، وأنا أثابر على هذا التسبيح إذ قرأت ذات مرة ما مضمونه أن رسول الله (ص) دخل بيت فاطمة (ع) ووجدها تطحن القمح وتؤدي أعمال المنزل بيديها وأنها سألته خادمة تعينها على الأعمال فأجابها (ص): هل تودّين ما هو أفضل من ذلك يا فاطمة؟ الملائكة تسبّح معك!! فعلّمها هذا التسبيح وسُمّي باسمها، وكنت أتسلى وأستأنس به أيضاً علاوة على إحساسي بأني سأُثاب عليه، عندها سمعت طرقاً على باب غرفتي ونهضت بملابس الصلاة الفضفاضة أفتح الباب وقد أمسكت المسبحة أتم السبحانيات الثلاثة الأخيرة ... إنه (سامي) جاء يكمل انتقام أمه مني ولا شك ذلك واضح من سحنته المكفهرّة .. استعذت بالله منه في سرّي وسألته بعد أن أكملت التسبيح:

– نعم يا (سامي) ... تفضل ... هل تريد شيئاً ما؟

وبدون أن يرد على سؤالي أو يستأذن في الدخول دفع الباب بشدة ودخل الغرفة وبعد أن ألقى بنظرة سريعة على محتوياتها اختار حافة السرير يجلس عليها ... بقيت واقفة مترددة قرب الباب لا أعرف ماذا أفعل ... قررت بعد لحظات أن أترك باب الغرفة مفتوحاً كي لا يعتبر جلوسي معه خلوة، إذ ذكرت حديث الرسول (ص) ما معناه: ما

اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما .. ببطء عدت إلى سجادتي فجلست عليها في مواجهته بعيداً عنه، وسألته:

– تفضل .. هل حدث شيء ما؟ ..

كان طول الوقت يحملق في وقد جحظت عيناه فبدتا في إنارة الغرفة الضعيفة واسعتين بشكل مخيف، ثم انفجر قائلاً:

– من يراك بملابس الصلاة يظنك ملاكاً طاهراً ... ولا يعلم أيّ شيطان داخلها.

بفزع قلت:

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... لماذا تقول لي ذلك .. ماذا فعلت من أفعال الشيطان لأستحق منك كل ذلك؟ ..

– ماذا فعلت؟! حسناً ... ألم أطلب منك سابقاً أن تنفي وجودي في الدائرة عندما بعثتك أمي فرفضت وتحججت بأنك لا تكذبين!!

– نعم ... هذا صحيح ..

– إذن لماذا كذبتِ عليّ طوال هذه الفترة ولم تخبريني بحقيقتك؟!

– وبماذا كذبت عليك؟!

– ألم تجيبيني بالإثبات عندما سألتك أنك طالبة في المرحلة المتوسطة!! أكنت تسخرين مني؟!

صمتُّ أفكر بما سأجيبه به فأكمل دون أن ينتظر جوابي:

– ألا تخجلين من نفسك أن تكذبي عليّ وعلى أهلي ... ما كل هذه الأفعال الشيطانية التي تقومين بها؟! ها! أجيبي بسرعة!!

الحقيقة أنه قد أفزعني بشكله وكلامه هذا وشعرت بالخوف منه، فقلت بلين:

– أرجو المعذرة على ما حدث، عندما أخبرتك بأني لا أكذب فهذا صحيح، وعندما خمّنت أنت في أية مرحلة أنا، أجبتك أني قد أتممت المرحلة المتوسطة، ربما كي لا .. تشعر بالخجل إن فهمت الحقيقة ... أو ربما لأني وجدتك لا تهتم بالسؤال عن أي صف أنا فيه الآن من المرحلة الثانوية ... نعم .. لو سألتني في أي صف أنا الآن .. لكنت أخبرتك أني في الجامعة .. وربما .. اعتقدت أنك لا تهتم بالأمر فتجاهلته ... أما عمتي و (لمى) ... فقد ظننت أني بإخفاء هذه الحقيقة عنهما أساعد في عدم إثارة المشاكل ...

– لماذا؟ ما علاقة كونك تدرسين الهندسة بالمشاكل معهما؟!

– الحقيقة .. أن ... أن استقبال عمتي لي ووصفها لي بالجهل والتخلف قد حزّ في نفسي .. فأنا لا أعرف لماذا يتوقع الجميع مني أن أكون جاهلة أو متخلفة عقلياً أو مدرسياً ... أحسست أنها إن فهمت الحقيقة ستحاول أن تستنبط لي مشاكل من مستوى آخر .. لتثبت لنفسها أني أقل منها ومن ابنتها شأناً ... فهي لا تريد أن تعترف لي بالتطور وتعتبره من حقهما فقط ... هل فهمت ما أعني؟ .. ألست معي أن اكتشافهما لحقيقتي قد أثار فيهما الغيرة النسائية؟ ... فبدلاً من أن تفرحا بأن قريبتهما على مستوى علمي جيد ... جعلتا من الأمر كذبة ... أو مصيبة ... هي تظن أن الرقي بدخول الجامعة .. لكن أخبرها ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ..

سكتُّ بانتظار ما يقول فلم يجب يبدو أنه اكتفى بما سمع مني حيث أن سحنته الغاضبة قد هدأت، وأخذ يدير وجهه يميناً وشمالاً، محتاراً، توقعت منه الانصراف لكنه أخرج سيجارة وأخذ بالتدخين ثم قال:

– الحق معك في هذا، فكونك طالبة جامعية ليس بمشكلة حقيقية، إذ ماذا يهمهم من ذلك؟ ... لكن الأمر الآخر ..

– ما هو؟ أنا أفضل أن تخبرني ما تشكل به عليّ لتتيح لي فرصة الدفاع عن نفسي على الأقل ...
فجأة قال:

– لماذا لم تطلبي مني النقود إن كنت بحاجة لها بدلاً من أن تشتكيني لأبي ... الذي اتهمني بالتقصير عليك؟ ها! أليس هذا إثارة للمشاكل؟!

أطرقت أفكر ... من هذا الذي يجلس أمامي؟ وما أحقر هذه الحياة ... إنها لتبدو في نظري ضئيلة، بماذا يريد مني أن أجيبه؟! إن توضيح الواضحات من أصعب المهمات، لذا دعوت الله في قلبي قائلة:" رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي " .. ثم أجبته بهدوء:

– يا أخي العزيز ... عندما جئت لإبرام العقد قبل أسبوعين ... ألم تطلب مني تجاهل وجودك وتجاهل مساعدتك؟! ألم تطلب مني نسيان حقي عليك كزوجة؟ أم إنك قد نسيت؟ ... كيف تريدني إذاً أن أفكر في طلب النقود منك؟ ... ثم ... ثم إن المسألة لا تحتاج إلى كل هذه الضوضاء، فأنا لم أقصد أن أشكوك لعمي، بل الحقيقة أني كنت أدافع عن نفسي لأبرر له سبب خروجي دون استئذان من عمتي ... ولم تكن أنت المقصود بذلك ... ومع هذا فسأذهب إلى عمي بعد أن أصلي العشاء وأعتذر له أمامك عما قلته له، إن كان يرضيك هذا ... أو .. أو اقترح علي ما أفعله كي لا تغضب هكذا ... إن .. منظرك مخيف جداً ... وأنا فتاة ضعيفة ... فلا تحاسبني وكأني رجل مثلك ..

نهض لدى سماعه كلامي هذا واتجه إلى باب الحديقة ففتحه ونفث آخر نفثة من سيجارته ثم سحقها بقدمه والتفت يخاطبني بلين لم أتوقعه منه ... يبدو أن كلامي قد أثّر فيه فقال:

– الحق معك ... أنا الذي طلبت منك عدم الاعتماد علي ... إذ لم أكن أتخيل ما آلت إليه الأمور ... ولم أتوقع أن تكوني عنيدة لهذه الدرجة فتستقلين بنفسك وتنبذين حياتنا المرفهة في المنزل أو ألا تشاركينا الحياة في داخل المنزل .. إنك إنسانة فريدة ... لم أتوقع ألا يكون لشخصية أمي تأثير ذو بال عليك .. حسناً .. إذن .. أنا آسف عما سلف ... أقول لك الآن ... يمكنك الاعتماد عليّ من الناحية المادية ...

قال هذا وأخرج رزمة من الأوراق النقدية في حدود المائتي دينار وهو مبلغ كبير نسبياً إذا عرفت أن مصروف الشخص الواحد لا يزيد على العشرين ديناراً ... وضع الرزمة على حافة المكتبة وأكمل:

– إذا احتجت المزيد ... فاطلبي مني ذلك ...

دهشت لتصرفه هذا لكني نهضت وناولته نقوده قائلة:

– أشكرك كثيراً جداً على هذا ... لكني الآن لا أحتاجها ...

لاحظت الألم على وجهه ... يبدو أنه أحس بتفاهة عمله، فأكملت:

– وثق أني لو احتجت إلى النقود فسأطلبها منك ما دمت قد وعدت بالمساعدة ...

حينذاك أخذ النقود واتجه نحو باب الغرفة يغادرها، وفي اللحظة الأخيرة استدار بتثاقل يسألني:

– هل هنالك أمر آخر تخفينه عني؟ .. ربما نسيت أن أسألك عنه؟!

ابتسمت لتلميحه وقلت:

– دعني أفكر .. آه تذكرت ... نعم ... بعد يومين يجب أن أباشر في التدريب الصيفي ... أرجو ألا أحتاج في هذا الأمر إلى الاستئذان اليومي عند الدخول والخروج من عمي وعمتي و (لمى) و (سها) و (سمير) و (أم أحمد) كذلك؟!

تبسم وهو يقول:

– لا ... لن تحتاجي إلى ذلك .. سأخبرهم كي لا يضايقوك .. وأين رُشّحت للتدريب؟

– لحظة واحدة ... استلمت كتاب الأسماء ولم أقرأه لشدة تفكيري بما سأواجهه من مشاكل ...

أخرجت القائمة من حقيبتي وفتحتها وبينما كنت أقرأها لاحظت أن (سامي) يُطيل النظر إلي فتركت القائمة وسألته بجد:

- هل هنالك شيء ما؟!!

- لا .. لا شيء ... فقط ... تذكرت أنك خاطبتني بأخي العزيز ... هل .. تعتبريني كأخيك الكبير ... أو كـ(حسن) مثلاً؟

- أنت بمثابة أخي (حسن) أليس كذلك؟

قلت هذا وناولته الكتاب فقرأ اسمي ولدهشتي اتضح أني رشحت للتدريب في نفس المؤسسة التي يعمل فيها (سامي) .

- هل تعمدت أن تتدربي في نفس مدريتي؟

- لا .. صدقني .. وزعت استمارات التدريب قبل نهاية العام الدراسي أي قبل حضوري إلى هنا بنحو شهرين ... فمن أين لي أن أعرف محل وظيفتك وأنا التي كنت قد نسيت أمر زواجي منك بالمرة ...

بفضول سألني:

- أحقاً نسيته؟

- هذه هي الحقيقة لا أكذب عليك ...

- إذن لماذا بعث عمي يستحثني على هذه الزيجة؟

- الواقع أن الحريق الذي شب في مخزن النجارة قد جعل أبي يفلس تماماً واشتدت عليه الضائقة المالية ... ولم يكن لديه من وسيلة أخرى غير النقود التي وعده بها جدّي عند زواجنا ... لذا طلب من عمي الإسراع بالأمر . هل ستخبر الجميع؟

وبحنان لم أتوقعه قال وهو يبتسم بهدوء:

- أنت مسكينة لأنك ضحية لأبيك وجدك .. وأنا أقدّر فيك صبرك وشجاعتك في تحمل المصاعب .. و ..

شعرت أنه يريد أن يتودد إليّ فلم أشجعه على الكلام فأدرت وجهي عنه وبجد قلت:

- إذا سمحت ... أريد أن أتمّ صلاة العشاء ...

عند ذاك ذهب مسرعاً فأغلقت الباب خلفه وعدت أكمل الصلاة.

* * *

اتصلت أمي بي هاتفياً صباح اليوم التالي لتطمئن عليّ، ولتسألني إن كنت بحاجة لمساعدة ما، وتحدثت إليها عبر الهاتف الموضوع قرب عمتي الجالسة تستمع ما نقوله، طمأنت أمي بأن كل شيء على ما يرام وأني والحمد لله مرتاحة، ولم أخبرها بشيء يزيد همها هماً، فأخبرتني فرحة أنها ستزورني الأسبوع القادم برفقة (حسن)، فرحت بهذا الأمر كثيراً، وعندما أغلقت الهاتف سألتني عمتي:

– ماذا قالت أمك؟

– إنّها تهديكم السلام، وستحضر مع أخي (حسن) لزيارتي الأسبوع القادم إن شاء الله .

– ماذا؟ أين سيحضران! هنا؟ ومن سمح لهم بذلك؟

– لا عليك يا عمتي إنهما لن يبقيا أكثر من ساعة وأرجوك تحملهما لأن أمي إن شعرت أني لست مرتاحة هنا ربما تغضب وتخبر جدّي بحقيقة وجودي هنا وهذا أمر ليس في مصلحتك ولا في مصلحة (سامي) .. تأففت قليلاً ثم قالت:

– إن حضرت أمك فسأغادر الدار أنا و(لمى) ونترككم معاً ... نعم هذا أفضل من رؤيتهما والحديث إليهما .. أليس كذلك يا (لمى)؟!

سألتني (لمى) قبل أن تجيب أمها:

– وأخوك (حسن) هذا، هل يشبهك؟!

أجبتها بمرح:

– بل هو وسيم جداً، وربما أجمل مني ...

– وهل يذهب إلى الجامعة أيضاً؟ أخبريني عنه قليلاً!!

– بالطبع، هو طالب في كلية طب الأسنان، وهو مؤمن حنون ذو شخصية رائعة ..

التفتت (لمى) تنظر إلى أمها نظرة ذات معنى قائلة:

– ولم الهرب من الدار يا أمي؟! لا بأس فلنتحملهما هذه الساعة كما قالت (سامية) ... إنّه أفضل لنا ول(سامية) ... ألست من رأيي؟!

بعد تفكير وافقت عمتي على استقبالهما .. إنّ انتظارهما لأمي و (حسن) جعلهما تلاطفاني ولا تؤذيانني، وبالفعل مر الأسبوع دون أية مشاكل حتى إن عمتي لم تعترض أو تشاكس حول ذهابي إلى التدريب ولم تعترض على وقت رجوعي قط ... وأما في المديرية فقد وزع الطلبة على الأقسام المختلفة وكنت ضمن مجموعة صغيرة في قسم الرسم الهندسي للخرائط تحت إشراف المهندس (محمود) والأخير يشرف عليه (سامي) لأنه المهندس الأسبق في المؤسسة ... وكان (سامي) يطل علينا بين الفينة والأخرى .. كُلفت برسم الخرائط الهندسية ومن ثم تحبيرها بعد موافقة المهندس (محمود) عليها ... ويلقي (سامي) علينا محاضرة عملية أسبوعياً كمجموعة ضمتني وزميلة لي تدعى (نوال) مسيحية وطالبين من صفوف أخرى لا أعرفهما ...

أمضيت الأسبوع في راحة وسعادة حيث أعود من التدريب فأصلي وأتناول الطعام الذي أعددته منذ الصباح وبعد ذلك أذهب لمساعدة (أم أحمد) الطيبة في أعمال المطبخ فنتحدث سوية في مختلف المواضيع ونضحك معاً على الأمور الطريفة التي تصادفني، فتكافئني (أم أحمد) بفنجان شاي ساخن يعيد إليّ نشاطي وحيويتي ... وبعض الأحيان

أجلس في الحديقة الغنّاء أطالع، أو أطل على جدّي فأستمتع بالحديث معه أو أدعوه لتناول بعض الأطباق الشهية التي أفهم منه أثناء حديثه ميله إلى تناولها، ولا أستطيع أن أصف سعادتي عندما يمتدح ما أقدمه له، حتى إنه بوجوده معي شغلني عن التفكير بأهلي، لكنني لم أنس صديقاتي العزيزات وكنت كلما سنحت لي الفرصة أتصل بهن هاتفياً من مركز التدريب ... وفي آخر مرة اتصلت بـ(نبوغ) فيها ندمت كثيراً لما حصل بعدها ... فقد اندمجت بالحديث معها دون أن أشعر بوجود (سامي) بقربي، وخلال اللحظة التالية انتبهت إلى أن السكرتيرة قد غيرت من وضعية جلوسها كمن يخاف من شخص ما كمسؤول أو مدير، التفت بسرعة فرأيته واقفاً خلفي حاملاً بعض الأدوات الهندسية وقد بدت ملامح الغضب على وجهه كالعادة، أنهيت المكالمة معها قائلة:

– حسناً .. سنلتقي كما اتفقنا وحسب الموعد سأتصل بك اليوم ..

قلت هذا وانصرفت إلى غرفة الرسم الهندسي حيث أتدرب .. فجأة وبلا فاصلة زمنية تذكر حضر المستخدم في القسم وهمس في أذن المهندس (محمود) بشيء ما جاءني الأخير بعده يخبرني أن المهندس (سامي) يطلبني!!! استغربت الأمر وسألته عن السبب، فأظهر جهله، ولما رأى ارتباكي وقلقي، طمأنني قائلاً:

– إذا احتجت إلى مساعدة ما فإني سأساعدك، اعتمدي عليّ ...

شكرته وذهبت مع المستخدم إلى مكتب (سامي) أو الأستاذ (سامي) كما كنت أناديه أمام الموظفين، بقي المستخدم واقفاً ولم يذهب ربما إشفاقاً منه عليّ أو إنه ينتظر أمراً ما، وقفت قرب مكتبه أنتظر ما يقول، كان يبدو مشغولاً بالخرائط أو يتظاهر بتدقيقها فلم يسمع تحيتي ولم يجب عليها، بل لم ينتبه إلى وجودي إلا بعد دقائق مُملّة، رفع رأسه بعدها وقال بحدة:

– من رسم هذه الخارطة ...

نظرت إلى أسفلها كانت تحمل اسمي مكتوباً بالإنكليزية، فقلت:

– أنا يا أستاذ ...

– من الذي علمك الرسم بهذه الطريقة؟!

– وما العيب فيها يا أستاذ؟

صاح بحدة:

– ما العيب؟ بل ما هي العيوب التي فيها؟ إنها مملوءة بالأخطاء ... من علمك أن تستعملي القلم 0.5 للأبواب الداخلية و 0.3 للجدران .. هل هذا ما درسته في الجامعة؟!

– عفوك ... ولكن المهندس ...

– لا أريد إيضاحات، خذي الخارطة وأعيدي رسمها ثانية، وعليك تسليمها قبل انتهاء الدوام اليوم مع مراعاة الأقلام بالشكل الصحيح .. مفهوم؟

– ولكن يا أستاذ ... لن أستطيع إتمامها قبل ساعات ثلاثة، وقد شارف وقتي على الانتهاء ...

في هذه الأثناء أشعل سيجارته وقال من بين الدخان:

– لا أفهم مما تقولين شيئاً .. يجب أن تكون الخارطة جاهزة قبل الساعة الثالثة من هذا اليوم وقد وعدت المدير بتقديم الخرائط إليه اليوم، ولم تبق سوى خارطتك المليئة بالأخطاء ... وهذا تقصيرك ... كان عليك الاستفسار والسؤال حول ما تجهلين ... الكسل والجودة لا يجتمعان ... إذا كنت تريدين أن تصبحي مهندسة جيدة ... فعليك بالاجتهاد وعدم التقاعس ...

– كلامك صحيح ... لكن وقت تدريبي سينتهي بعد ربع ساعة ... و ...

بضجر قال:

– عليك أنت حل المشكلة ... إنها خارطتك وعليك إعادة رسمها .. هل تتوقعين مني رسمها بدلاً عنك وأترك المهم من أعمال؟! وماذا لو تأخرت قليلاً ما الذي سيحدث ها؟ ...

أحسست أنه يريد قول شيء ما كنه انتبه إلى وجود المستخدم فعدل عن ذلك وخاطبه آمره:

– ناد لي المهندس (محمود) في الحال ...

ذهب المستخدم فأكمل (سامي) ببرود كريه فهمت منه ما أراد وراء استنباطه لهذه المشكلة .

– هل لديك موعد مع شخص ما تحرصين على لقائه فلا يمكنك البقاء في الدائرة؟!

أغضبتني طريقته في الكلام وفهمت أنه يشير إلى اتصالي الهاتفي، فقلت له باستياء:

– ما الذي تقوله ... كلا ... لم أرتبط بموعد مع أحد ما ... أما إذا عنيت بكلامك هذا صديقتي (نبوغ) التي حدثتها بالهاتف، فموعدي بالاتصال بها هاتفياً لأمر لا يتعلق بسوانا كزميلتين في صف واحد ... ورفضي البقاء ليس لأجلها، بل لأني أحبب أن أصل في وقتي المحدد لأصلي وذلك بعد أن أتسوق قليلاً ... خاصة وإن وقت انتهاء الدوام وقت مزعج لي حيث المواصلات وازدحامها مع شدة الحر .. ولماذا تسيء الظن بي ... هذا ليس عدلاً ... أنا فتاة مؤمنة مستقيمة ... أحترم ربي ونفسي فلا داع للظنون بي ... وأنا واثقة أنك لا تظن بي سوءاً لكنك تتصيد لي العثرات كي تجعلني أسأم وأعود لدار أبي ... أليس كذلك؟

أجاب وقد بدا الارتياح عيه لسماعه ردي:

– كلا ... كلا ... لقد فهمتني خطأ ... حسناً أكملي الخارطة وسأنتظرك لأوصلك معي إلى البيت ...

– لكن هذا الأمر يسبب لي حرجاً .

– لماذا؟

– إن لي سمعتي النقية بين زملائي وزميلاتي من الطلبة والموظفين .. فماذا سيكون ردي عليهم إن رأوني معك ... هذا يسيء إليك أيضاً ...

– لن أدع أحداً يرانا ... أنا سأنتظرك عند منطقة وقوف الباص الثانية خلف المبنى وهي عادة خالية لا يتواجد فيها أحد ...

فتحت فمي لأرفض طلبه لكني سكت لدخول المهندس (محمود) ... استفسر من (سامي) عما يريده منه فأجابه:

– أودّ منك أن تعفي (سامية) من أداء عملها لهذا اليوم، لأني طلبت منها إعادة الرسم، وذلك كي لا ندعها تتأخر كثيراً ... إذا أمكن ذلك؟

– بكل سرور ... إذن سنؤجل عملك لهذا اليوم ... وهيا اشرعي في الرسم كي لا يفوتك الوقت .

نظرت إلى الاثنين معاً وأطلقت حسرة ضجر وعدت أدراجي أرسم وأرسم وأدقق حتى أكملتها قبل الوقت المحدد بنصف ساعة ... أخذ الجهد والتعب مني مأخذه ... تطلعت فيما حولي .. غادر المتدربون أماكنهم منذ فترة طويلة ... وانتهزت فرصة خلو القاعة فأديت الصلاة فيها ... وكان المهندس (محمود) يطل علي بين آونة وأخرى ... حتى غادر هو أيضاً بعد أن ودعني ... ناديت أحد المستخدمين وسلمته الخارطة ليقدمها إلى المهندس (سامي) فأخذها وعاد لي بدفتر الخروج أوقّعه، وتهيأت بعدها للخروج من الباب الرئيسي ... شاهدت (سامي) يغادر أمامي متجهاً نحو المصعد ... انتظرت حتى ذهب، خرجت بعده وقد قررت ألا أعود معه، فأنا أحصر يومياً حسب وقت دوام المتدربين بعد وصوله بساعة نغادر قبله بساعتين ولم يصدف أن أقلني معه في رواح أو مجيء ولا يعلم أحد بقرابته لي، لذا تعمّدت عدم الذهاب إلى المكان الذي حدده لي، ولا أريد عملاً أُلام عليه " فرحم الله امرؤاً جبَّ الغيبة عن نفسه " ... ذهبت في طريقي المعتاد ورأيت إحدى وسائل النقل تريد المغادرة، فأسرعت بالركوب فيها وترجلت منها في المنطقة

الأخيرة حيث يتعين علي أن أستقل سيارة أخرى أصل بها بيت عمي ... الناس من حولي مزدحمون الكل ينتظر وصول السيارات والعرق يتصبب غزيراً لشدة الحر ... حجبت الشمس عن وجهي بدفتري الكبير الذي أحمله معي دوماً .. انتحيت جانباً عن الزحام راجية أن تبطئ إحدى السيارات من سرعتها بقربي فأستقلها بسرعة كما يحدث غالباً عندما يكون السائق شهماً يشفق على من لا تزاحم الرجال في الصعود ... ولدهشتي رأيت بدلاً من ذلك، سيارة (سامي) تقف بقربي ويفتح لي الباب الأمامي، أغلقتها بتؤدة وأنا أقول:

– شكراً ... أستطيع الذهاب وحدي ..

عاود فتح الباب وأمسك به مفتوحاً وقال آمراً:

– اصعدي في الحال وبدون أي نقاش ...

عجبت لأسلوبه في الكلام لكنني اضطررت لمسايرته عندما تقدم أحد الواقفين يحاول فهم ما يحدث، قررت الصعود خوفاً من المشاكل ... فإذا ظن القادم أن (سامي) يعاكسني فلا محالة من مخاصمته وستتوالى بقية المشكلة في البيت ... وهكذا اضطررت للصعود فسار مسرعاً في طريق آخر غير الطريق المألوفة ولكنه خال تقريباً من وسائط نقل الركاب فسألته:

– أهذا هو الطريق ذاته المؤدي إلى البيت .. أنا لم أمر من هنا سابقاً..

عندما لم يردَّ علي التفت إليه ورأيت الغضب الكامن فيه يكاد أن ينفجر إنه قد غضب لأني لم أنتظره، قلت:

– أرجو أن تغفر لي عدم انتظارك ... أنا لا أريد أن أفعل شيئاً في السر لا أرضاه ثم ... ثم إني لا أريد مزاحمتك..

أجابني بسخرية:

– هكذا إذن ...

– أرجوك يا أستاذ (سامي) لقد أتعبتني اليوم بما فيه الكفاية، وأنا الآن في غاية الجوع والتعب وليس بإمكاني تحمل كلام التهكم والسخرية، فإذا سمحت، دعني أغادر سيارتك لأستقلّ أخرى وسأكون ممتنة لك ...

وبدلاً من أن يخفف السرعة زادها وكأنه يداري بها غضبه مني، أصبحت قيادته مرعبة، مرت دقائق مخيفة بالنسبة لي حتى قلت له:

– أرجوك يا (سامي) ... أرجوك لا تقد بهذه السرعة ... إنني جداً خائفة ... أرجوك خفف من السرعة ... أرجوك ..

والحمد لله استجاب لتوسلي وخفف السرعة تدريجياً حتى أوقف السيارة تماماً عند مطعم صغير ... غادر دون أن أعرف إلى أين وعاد بعد قليل حاملاً بعض الساندويتشات مع قنينتين للمياه الغازية ناولني ساندويتشاً وأخذ هو الآخر وبدأ يأكله ... لم يهتم لدهشتي من تصرفه هذا بل ناولني قنينة المرطب أيضاً دون أن ينبس بحرف واحد ... ولما كان الجوع قد داهمني ورائحته الشهية قد زكمت أنفي وجفاف فمي قد أخذ مني كل مأخذ بسبب الجو الحار والخوف الشديد الذي عانيته قبل قليل، لذا انصرفت عن الحديث معه أو السؤال منه وأخذت ألتهم الطعام وأشرب معه المرطب، حتى شبعت وارتويت فحمدت الله على الإحساس بالانتعاش والراحة الكبيرين ... لكني لا زلت أجهل تصرفاته الغريبة هذه، فتارة يغضب ويشك ويشاكس وأخرى عطوف حنون، زاد اعتقادي بأنه ربما يكون مريضاً نفسياً أو يعاني من مشكلة ما في أحسن الأحوال، وعند العودة لم ينس اعتذاري منه وإن كان حديثه قد اتخذ طابع اللين أكثر من طابع الغضب حيث قال:

– لماذا لم تخافي سابقاً أن تفعلي أمراً ما في السر؟!

– متى وماذا تقصد بكلامك هذا؟!

– عندما أرسلتكِ أمي تستدعيني قبل فترة بسبب خصام (سها) وزوجها!
– آه تذكرت ... حسناً أنا مخطئة ما كان علي استدعاؤك وإن طلبت مني عمتي ذلك ... ظننت حينها أنه واجب وهو عمل حسن، أما الآن فالأمر مختلف ... علاوة على أن مسؤولك الذي يعرفني تلك الآونة قد انتقل من المؤسسة، ولا يعرف البقية من أكون أنا؟! أما الآن ... فإنهم ككادر كامل يعرفونني ويعرفون اسمي ويقرؤونه يومياً في لائحة المتدربين ... عدا هذا فإني لم أخبر أحداً بقرابتك لي ... وليس من مصلحتنا أن يعرفوا ذلك .. فهم سيؤولون كل كلمة أو حديث لك معي إلى معنى آخر، في أذهانهم ... و ..
– ماذا؟ ما هذا الهراء الذي تقولينه ... كيف يمكن أن يتصور أحد ما وجود أية رابطة بيني وبينك .. أنت ... أنت بجلبابك وغطاء شعرك وأنا ... على ما أنا عليه من تحضر وأناقة ... لا ... كلامك غير منطقي .

قلت في نفسي:" إنه مغرور جداً، لأدعه يتحدث ما يشاء فلن أناقشه لأني سئمت من حديثه هذا " ... المشكلة أنه فسر سكوتي موافقة له على آرائه فتشجع قائلاً:
– إن المشاهد لنا عن بُعد سيحكم فوراً أنني أشفقت عليك من زحمة الطريق ... ولو لم تكوني قريبتي لفعلت ذلك أيضاً ...
– حقاً ... طيب .. شكراً لك على الطعام فقد كنت جائعة جداً ...

عندما انتبه أني أشحت بوجهي عنه إلى نافذة السيارة، فهم أني لا أود الاستزادة من الحديث معه، فوضع شريط تسجيل للأغاني الشعبية بأعلى صوته وكأن به صمماً ... حاولت ألا أسمع الغناء، لكني فشلت في ذلك فطلبت منه بلطف أن يوقف المسجلة ... فتعجب كثيراً قبل أن يطفئها ... قال:
– الواقع أنك لست معقدة كما تقول أمي عنك ... بل شديدة التعقيد أيضاً ..
– اسمع يا أستاذ (سامي) أرجوك أن تحترم الألفاظ التي تختارها عندما تتكلم معي ... أنا أطيع ربي عز وجل الذي خلق لك العقل تميز به بين الحق والباطل والذي جعل عقلك يصلح لأن يكون عقل مهندس فكونك مهندساً بالتالي لا يعني أنك أفهم وأعقل من رب العالمين – تعالى عن ذلك علواً كبيراً – وإذا كنت تصفف شعرك على الموديلات الغربية لإحساسك بالنقص تجاه موديلات بلادك فهذا ليس بشيء قياساً للوحي الأمين الذي كان ينزل على نبينا (ص) دون أن يهتم الرسول (ص) بموديلات شعره أو لباسه، فالذي خلقك يخبرك أنه لهو ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ حيث فسر قول الزور بالغناء، وقوله تعالى: " ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل به عن سبيل الله ". وهاهو رسول الله (ص) يقول عن الغناء:" إياكم وسماع العازف والغناء، فإنهما ينبتا النفاق في القلب ".

قلت هذا بعصبية لم أتوقعها من نفسي حتى انتبهت أن جسمي يرتجف كله من فرط التأثّر، ويبدو أنه لاحظ ذلك أيضاً فلم يعلق بشيء وآثر الصمت. وإن لاحظت شبح ابتسامة على وجهه .. انتبهت أننا نسير في طريق لا أعرفها فأكملت:
– وما هذه الطريق التي تسلكها لو تركتني أعود لوحدي دون تفضلك عليّ لكنت وصلت الآن .
فأجاب باحترام:
– حاضر يا آنستي ... سنصل حالاً ...

واستدار في شارع فرعي ولم يستغرق إلا دقائق خمس في الوصول للبيت، ودلف بالسيارة إلى داخل القصر وترجلت من السيارة قرب الفيلا الأصلية ودخلت خلف (سامي) ... شعرت بالضيق من الوضع الذي أعيشه، فأنا أعيش مع أناس لا أفهمهم ولا يفهمونني ... وأحسست بشوق شديد لدارنا عند أمّي وأبي و (حسن) وتمنيت لو أن الله يمنّ عليّ برؤيتهم ... ولدهشتي وجدت أمي و (حسن) في غرفة الضيوف بانتظار وصولي، توقف (سامي) وألقى تحيته ببرود

شديد على أمي وببرود أكبر صافح (حسناً)، انطلقت من خلفه إلى أمي أقبلها وأضمها لصدري وأنا فرحة أن الله سبحانه وتعالى بعثهما لي في الوقت المناسب ... ثم صافحت (حسناً) وعجبت له حيث قبّلني من خدي وكانت هذه هي المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك ... دمعت عيناي تأثّرا .. جلست بين أمّي وأخي ... وسمعت (لمى) تقول بغنج:

– صحيح أن " من رأى أحبابه نسي أصحابه " .. ابتسمت لها وقلت للجميع:

– المعذرة يا جماعة .. نسيت أن أسلم عليكم، أرجو أن تكونوا بخير..

ابتسم عمي وأجاب:

– لا عليك يا (سامية) ... لك الحق كله في النسيان .. فأنت لم تعتادي فراقهم ...

كان (سمير) و (سها) وزوجها وطفلتيهما يجلسون بهدوء في طرف البهو، بينما جلست زوجة (سمير) حسبما عرفتني عمتي عليها إلى جوارها والحمل يبدو عليها واضحاً ... أمر واحد حيرني حينها هو كتمانها للدموع التي كانت تمسحها بسرعة من آن لآخر ... جلس (سامي) قرب (حسن) وتبادلا بعض الكلمات، قطعها (حسن) بأن التفت إلي قائلاً:

– ما هذا يا (سامية) ... تركت في الدار فراغاً لم يُسد للآن ... يا عزيزتي ألم يكن بمقدورك الحضور ولو يوم الجمعة فقط؟ نحن لا نزال أهلك ... أم أنك نسيت؟!

أجابه جدّي وكان يجلس في مواجهتنا:

– كلامك صحيح، ولا شك أنها تترك فراغاً ... ف(سامية) فتاة لطيفة للغاية واجتماعية وقد ملأت عليّ الفراغ الذي كنت أشكو منه بوجودها ...

قلت ممتنة:

– شكراً ... شكراً يا جدّي العزيز .

أكمل (حسن):

– أحضرت لك هذه المجموعة من الكتب ..

ثم همس بحيث لا يسمعه الآخرون:

– اقرئي في كل يوم فصلاً ونظمي وقتك ولا تهتمي بما حولك من مظاهر براقة خادعة ...

ابتسمت وبنفس الهمس أجبته:

– سأكون عند حسن ظنك يا أخي العزيز، والآن أخبرني عنك ... ما هي أخبارك؟!

استمرينا بالحديث سوية كعادتنا عندما كنا معاً، حمل إليّ من الأخبار الطريفة واللطيفة ما جعلني أضحك وأفرح لها، وأما أمّي فقد اهتمت بالحديث مع عمتي ومجاملتها وملاطفة (لمى)، وخمّنت أنهما تعمدا هذا التصرف أمام (سامي) وأهله ليشعروهم بأهميتي لديهما فيُحسن الباقون معاملتي ... فقد كان (حسن) يسألني ويستفسر عن تحليلاتي لبعض الأمور ثم يوافق عليها بكل احترام .. الواقع أن (حسن) كان محور الجلسة بأخلاقه اللطيفة وأسئلته الذكية التي كان يدير بها الحوار بين الجميع بأسلوب شيّق ومثير، حيث أن الجميع فوجئوا به يستأذن للذهاب فألحوا عليه بالبقاء ... لكن أمي أصرّت على الذهاب لكثرة مشاغلها ... ولم أشعر بالوقت قد مر .. انقضت ساعتان وكأنهما دقيقتان ... قبل أن تغادر أمي أخرجت من تحت عباءتها جعبة كبيرة أحضرتها كهدية لعمتي وابنتيها تحوي فيها العديد من الأقمشة الفاخرة، مما أدخل السرور عليهن خاصة وإنهن لم يتوقعن قط، كذلك قدم (حسن) ساعة يد ثمينة كهدية إلى (سامي) مع مصحف كبير الحجم موشّى بماء الذهب لجدّي، ظننت أن الأمر قد انتهى لكن أمّي سلمتني العديد من رسائل صديقاتي هناك وباقة من الزهور الجميلة الملوّنة كنّ أرسلنها لي مع مجلات مختلفة لموديلات الخياطة والحياكة وقالت كي لا يُساء فهمها ...

- عندما فهمت صديقاتك بزيارتي لك في العاصمة حملنني هذه الرسائل وقد ألححن في أن تردي عليهن ..
- إن شاء الله يا أمي ..
مشيت أودعهما وكذلك فعل (سامي) فالتفتت أمي إليه وقالت:
- أرجوك يا بني .. حافظ على ابنتي وصنها ..
أكّد لها أبي في الحفظ والصون والتفت إلي سائلاً:
- أليس كذلك يا (سامية)؟

أجبت بسرعة بالإيجاب، ففرحت أمي و(حسن) كثيراً وعادا من حيث أتيا ... عدت إلى الصالة لأحمل الكتب ورسائل الصديقات فوجدت (سميراً) قد فتح إحداهن وهو يقرأ بصوت عال يتصنّع فيه الدلال:

- قلبي وروحي (سامية) ... عندما فارقتك غابت الشمس .. غفواً أظلمت السماء عليّ .. عفواً .. أحسست بالقرية ... عفواً بالغربة ...

وبمرح ودون أن أعكّر مزاجه، التقطت الرسالة من بين يديه وأخذتها مع بقية الرسائل والكتب وعدت لغرفتي ... كنت قد اشتريت خلال الأيام الماضية مصباحاً مصباحاً على شكل بروجكت ووضعته داخل المكتبة جعلت الإنارة في الغرفة محببة، تصفحت الكتب أولاً ثم انتقلت إلى الرسائل أقرأهن حرفاً حرفاً وأتممتهن فصلّيت وأردت أن أبدأ بكتابة الردود فلم أستطع، ذلك أن شجاراً حامياً ابتدأ بين (سمير) وزوجته وبينهما صوت عمي يعلو حيناً ويهبط حيناً آخر .. ثم علت أصواتهم فأصبحت واضحة وكأنها في داخل غرفتي .. ف(سمير) يريد الطفل الذي في الطريق، وزوجته تريد التخلّص منه .. الأم والأب يدافعان عن رأي ابنهما والزوجة تهدّد بالانفصال عنه إن لم يوافقها على عملية الإجهاض والتي كانت ستجريها لولا ضرورة وجوده وضرورة موافقته عليها ... وذلك في الخفاء عن أعين الدولة .. باتفاق شخصي مع أحد الأطباء المرتزقين ... (سمير) يستهجن الطلب ويريد أن يصبح أباً .. وهي تريد الحفاظ على جمالها وجمال جسمها وتدّعي أنها لا تزال صغيرة فهي في العشرينات من عمرها ولا تود أن تقيّد نفسها بالأطفال، (سمير) يريد منها البقاء مدة أطول في الدار لترعاه وترعى شؤونه وأن تخفّف من خروجها المتزايد من الدار ... بينما ترفض هي ذلك وتقول أن بقاءها في الدار هو سجن لها، فليس لها فيه ما تفعله ... اقترح عمي عليها الانشغال بوظيفة، أجابته بصلافة:

- أنا لا أحتاج المال كي أخرج من أجل العمل، وما نفع (سمير) كزوج إن لم يُنفق عليّ وعلى حفلاتي ... بل هو الذي يجب أن يخدمني ... لا أنا ..

سمعت صوت صفعة وصوتها تولول وتضج بالصياح وأصوات عمي وعمتي تهدئ من انفعال (سمير) لئلا يعاود ضربها من جديد، دامت المعركة أكثر من ساعة، كلٌّ من الحاضرين يدلي برأي عدا جدّي الذي غادر بعد ذهاب أمي و (حسن) ... لم يتفوه أي من الحاضرين بأن ما تريد زوجة (سمير) فعله هو أمر حرام وجريمة بحق الجنين والمجتمع وكأنهم ليسوا بمسلمين ولا يدينون بالإسلام الحنيف الذي يحرّم هذا الأمر . وكأن الأمر رغبة بين اثنين أحدهما يريد الإبقاء على حياة الجنين لأنه يريده سلسلة يشد بها الأم إلى دارها .. والآخر يريد القضاء على حياته قبل أن يولد للنور لأنه سيضحي السلسلة الذهبية له في الدار ... لم يفكر أي منهما في حكمته تعالى بتحريمه الإجهاض وأنه ﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ ... ألا يهتمون لما سيكون عليه هذا الصبي أو الفتاة في المجتمع من فرد نافع ... ألا يعتبرونه امتداداً لهما يبقى بعد مغادرتهما الحياة الفانية ... إذن كيف فهما الزواج؟! لع ونزهات وحفلات ومباهاة باللباس والمال، ومكابرة على الآخرين ... ما الفرق بينهما وبين العادة الجاهلية في وأد البنات ... وهذا الإجهاض ألا يعتبر نوعاً من الوأد قبل أن يولد الجنين؟! .. إن الجاهليين تمهلوا في الوأد لحين الولادة لأنهم لم يملكوا الأجهزة الكاشفة عن نوع جنس الجنين وإلا لوأدوه في بطن أمه . كما يفعل المتحضرون والجاهليون في الوقت الحاضر ... وكأن الرأي فيه لهما فقط .. وليس لخالقه ... سبحانه ... آه ... يا لها من حضارة مزيفة .. عندما

أتخيل أنني وبكل كياني وآمالي وأفكاري كان من الممكن ألا أكون أو أوجد بسبب نزوة من نزوات الشيطان أو بسبب من أنانية أمي؛ يقشعر بدني .

كنت مستغرقة في أفكاري عندما اندلع شجار جديد بين (سها) وزوجها حيث كان الزوج يدافع عن ضرورة استقلاليته في الخروج لأنه يعاني من معارضة زوجته في خروجه مع أصدقائه ... أي أن المشكلة هنا معكوسة .. مللت وأطفأت الضوء محاولةً النوم فلم أستطع بسبب هذه المشاجرات التي بدت وكأنها لن تنتهي ... فضلت الخروج إلى الحديقة، وحاولت أن أتمشى قليلاً فأكون ضيفة على جدّي الحبيب فلمحت الأنوار في غرفته مطفأة، يبدو أنه قد تعشى مبكراً ونام ... سرت باتجاه الحديقة الأمامية ... كانت رائحة الزهر الليلي تزكم الأنوف وتنعش النفوس فحمدت الله أن هداني أن آتي وأستنشق الهواء اللطيف، هبّت النسمات الباردة تلامس وجهي لتعوض عنه ما قاساه من حر الظهيرة ... جلست على أحد الكراسي البيضاء المصفوفة على شكل دائرة حول منضدة حديدية بيضاء أيضاً مدورة الشكل، وبقيت أتأمل ألوان الزرع المختلفة في الليل وفي ضوء القمر عما عليها في النهار، فكأن الأشجار بأوراقها الكثيفة قد ارتدت مسحة من السواد تستتر بها من العيون الملتهمة لجمالها وجمال خلقه تعالى ... سكون محبب للنفس يسيطر على الحديقة، لا يقطعه سوى مرور عربات سريعة تمرّ في الشارع المجاور للدار ... هذا السكون يدعو الإنسان للتفكير في الحياة الآخرة، ترى ماذا بعد هذه الحياة ... كل هذا الجمال والحركة والحياة ... صرير الصراصر ... نقيق الضفادع في الجداول المارة عبر الشجيرات، الفراشات النائمة في سكينة على الأوراق تنتظر قدوم الصباح لتقوم بما هيأها الله له من وظائف، النمل المختبئ في جحوره في احترام للظلام لا يتعدى حدوده ولا يخالف طبيعته التي خلق لها كل هذا .. أزيز المحركات، أصوات السيارات، وحتى أصوات الشجار بين المتخاصمين في الداخل، كله سينتهي ويتوقف في لحظة واحدة ... عندما يتوفى المرء ... وسينتقل إلى بحر من سكون ... وعندما وصلت إلى هذه النقطة من التفكير أفزعني صوت من خلفي فالتفت مذعورة ... رأيت (شبحاً) يقف خلفي، وندّت عني صرخة ذعر خفيفة ... تضاءلتْ عندما عرفت أن الشبح هو (سامي) قال:

– أنا آسف ... لقد أفزعتك ...

– لا عليك ... لم أسمع صوت قدميك ... كنت سارحة في أفكاري..

جلس على أحد الكراسي المقابلة لي وقال:

– لعلك هربت من الضوضاء في الداخل ... أليس كذلك؟ ...

– نعم هذا صحيح ... لم أستطع النوم ... فأصوات الشجار تملأ علي الغرفة ...

– وأنا كذلك ..

– لماذا لا تحاول مساعدتهم وحل مشاكلهم؟

– أوه ... لقد مللت من ذلك ... لا توجد مشكلة حقيقية سوى الترف والمتعة ... إنهم أنانيون، كل منهم يفكر في نفسه فقط ...

– حسناً، ربما كنت محقاً في ذلك .. أستأذنك .. تصبح على خير ...

– ما هذا؟ ماذا جرى لك؟ ... لماذا تهربين هكذا؟ ... اجلسي، أريد أن أسألك .

قلت وأنا أجلس:

– تفضل، عمّاذا تريد أن تسألني؟

– عندما قلت ما قلته عن الغناء جعلتني أفكر في سبب حرمة الغناء .. إنّه أمر لم أبال به من قبل ولكني أعترف لك الآن ... انك بتحمسك هذا وحرصك على عدم السماع جعلتني أتساءل عن الأذى الذي يسببه الغناء

فأنا أعرف أن الدين الإسلامي دين العلم والمعرفة — وكان هو قد سمع هذه العبارة من (حسن) هذا المساء ولكنه نسي أو تناسى ذلك — وهو يوضح كل شيء، فما هو يا ترى الضرر في الاستماع للغناء؟!

– قبل كل شيء، أحب أن أوضح لك أنه ليس كل أنواع الغناء حراماً ... لا .. فالغناء الهادف الذي يدعو إلى الحق والى الدين أو الدفاع عن الوطن أو في مدح النبي (ص) وآله .. هذا كله جائز وإن صاحبته الموسيقى ... لأنه لا يخدعك ولا يوهمك بأمور لا تعيشها وقد لا تلتقي بها طيلة حياتك ... أما الحرام منه فهو الغناء الماجن الفاسق الذي يدعو للرذيلة ... ويقود الإنسان ذهنياً إلى حب الفجور دون أن يعي ذلك ... والسبب الآخر للتحريم هو أنه الغناء الذي من طبعه الطرب يجعلك تعيش في خيال ووهم ويسيطر على أفكارك وآرائك ضمن ما يطرحه من معان قد تجعلك تضحك حيناً وتتألم حيناً آخر .. أو يفتح أمام ذهنك أبواباً شيطانية تدمر صحتك النفسية والعقلية بما تقود إليه من التمنيات والآمال الكاذبة التي تجعلك تسخط على واقعك المعاش وتطلب المحال وتقع في تناقضات وصراعات نفسية شديدة يدرك خطرها المتخصصون في الصحة النفسية والعقلية، ولكي تستوعب الأمر على حقيقته حاول أن تصوّر نفسك في حال الاكتئاب أو الفرح المجنون ثم اعرض الصورة على نفسك وسترى ما يمكن أن تقوله عن الشخص الذي تشاهده أمامك حينذاك؟!

– مجنون يضحك ساعة ويبكي أخرى!

– بالضبط، وهذا الجنون يكرهه الدين ولا يريده لأفراده ... إنّه يريدهم أقوياء، متفوقين في جميع المجالات، حاضري الذهن دائماً، لا تسكرهم الأغاني ولا تبلد حواسهم الموسيقى ... أو تزيل عنهم الحياء بالألفاظ المبتذلة التي يسمعونها ثم إنّ المغني أو المغنية إنسان قد افتخر وتعالى بحنجرة ذهبية لم يأل جهداً في خلقها ولا في صدور الصوت عنها ... وربما يكون أو تكون إنسانة موهوبة في أمور أخرى أكثر نفعاً للمجتمع . بينما احترافها للغناء — بغض النظر عما يجرها إليه من مفاسد — يمنعها من إظهار المواهب العقلية أو العلمية الكامنة لديها، ناهيك عن الأموال التي ستهدر في إنشاء المدارس التي تعلم الموسيقى والغناء وخاصة في البلدان التي تعزّ فيها اللقمة على الأفراد ...

يقول عز من قائل: "ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ... أولئك لهم عذاب مهين" .

وعن النبي (ص): "إنّ الله بعثني رحمة للعالمين ولأمحق المعازف والمزامير وأمور الجاهلية" وقرأت عن (نافع) أنّه قال:" سمع (ابن عمر) مزماراً، قال: فوضع إصبعيه في أذنيه ونأى عن الطريق وقال لي يا (نافع): هل تسمع شيئاً؟ قال: قلت: لا، قال: فرفع إصبعيه عن أذنيه وقال: كنت مع النبي (ص) فسمع مثل هذا فصنع مثل هذا "...

وفي الأخبار أن المغنية ملعونة ومن آواها وأكل كسبها ... ولا يخفى عليك أن صوت المرأة جميل ورخيم وهو عورة ... ولذا تجد الآية تحت النساء المسلمات على ألاّ يخضعن في القول فيطمع الذي في قلبه مرض ... فكيف بالغناء؟

وعنه (ص): " ثلاثة يقسّين القلب: الاستماع إلى اللهو وطلب الصيد وإتيان باب السلطان "

– ولكن الأمر في غاية الصعوبة وتطبيقه عملياً أصعب!

– هل في إسكات صوت المذياع أو جهاز التلفزيون عند بثهما للأغاني أية صعوبة؟! فماذا تقول عن المؤمنين أيام الدعوة الإسلامية وتحملهم للعذاب الجسدي والنفسي حتى الاستشهاد!! أوَ تظن طريق الجنة معبّداً وسهلاً بل حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات .. ألا تحب أن تشرب من لبن الجنة النهري أو خمرها الذي لا يسكر ... ألا يستحق العسل النهري في الجنة منك هذا الجهد البسيط ... أنت في هذه الحديقة البسيطة تشعر بالراحة والفرحة فكيف بك إذا ملكت حدائق غناء على مد البصر وأنت تدخل بينها بأفخم الملابس الحريرية التي لا تكاد تمس جسدك، وحور عين يتملقنك ويخدمنك، والأرائك الوثيرة من حولك تنتظر بلهفة استرخائك عليها .. ألا يستحق كل ذلك منك جهدا لصالحك ولو قليل؟ ..

– إنك تصورين الجنة بشكل لذيذ .. تهون معه كل الصعاب ..

– والآن ألست معي في أن الغناء لهو يعيق المرء عن أعماله ويلهيه بأوهام تافهة لا تمت إلى واقعه بصلة ..

– لا أعرف ... يجب أن أفكر فيما قلتِه جيداً .. – إلا أنه بعد ذلك لم يعد يستمع إلى الغناء – دعينا الآن من الغناء ... إنّ (حسن) يحبك جداً ... أليس كذلك؟

– أعتقد ذلك .

– تعتقدين ... ألست واثقة من ذلك؟!

– بل واثقة ... فأنت لا تعلم كم قاسى حتى سمح لنفسه بالحضور إلى هنا ... وذلك من أجلي ... الحقيقة أنني و (حسن) كأحسن ما نكون من أصدقاء ... أنا أحترمه وأحبه وأحب أفكاره فهو الذي هداني وأثر على حياتي كلها ... وأهدر الوقت الكثير في سبيل تعليمي أمور الدين ... وهي في نظري أعظم هدية ...

– آه ... لذلك رأيتك قد فرحت بالكتب التي أحضرها لك! بالمناسبة ماذا همس في أذنك؟

سكت وأنا أبتسم ... قال:

– لماذا تبتسمين؟ هل في سؤالي ما يضحك؟

– كلا ... ولكنك ذكرتني أنني لست الفضولية الوحيدة في هذا البيت!

ابتسم وقال:

– يمكنك ألا تجيبي! ... فهو أمر يعنيك ... على أية حال ... ألا تحدثيني عن نفسك قليلاً؟

التفتُّ إلى الداخل وقلت:

– سأعود لغرفتي فعيناي بالكاد تنفتح من شدة النعاس، وأرجو أن يكون الشجار قد انتهى لأستطيع النوم ... تصبح على خير ...

قلت هذا ونهضت متجهة لغرفتي، تركته خلفي وقد أشعل سيجاراً يلهو بها، إنّه يود أن يستزيد من الحديث الشخصي معي، وكيف أجاريه فيما يريد؟! إني أخشى أن يكون في ذلك معصية لله سبحانه وتعالى، فـ(سامي) يحكم الغريب عني وأنا وإياه نعلم أن العقد الرسمي لا يعني إسباغ الصفة الشرعية على الكلام الخاص بيننا لذا أحاول أن أقتصر في كلامي معه أو مع غيره في الحالات الضرورية على أقل ما يمكن وبدون أن أغريه بالكلام خضوعاً للآية الكريمة: ﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً﴾ ... إنّ أمره غريب فأنا لا أفهمه، هو تارة يشعرني أني أقل منه شأناً، وأخرى يحترم أفكاري ... يبدو لي أنه إنسان قلق وهو يخفي قلقه بصبغة من السكون ... ولربما من الحزن ... يخيل إلي أنه قد أصيب في حياته بمشكلة ما، ركزت الحزن في نفسه ...

* * *

مرت أيام الأسبوع التالي بسرعة لأنها خالية من المشاكل والفضل في ذلك للتغير الذي حصل في سلوك عمتي و (لمى) . إنّ زيارة أمي و (حسن) وهداياهما أثرتا كثيراً عليهما؛ وزادت الفصول التي أطالعها يومياً من إحساسي بالبهجة والمتعة، وأخذت (لمى) تتقرب إليّ حتى إنّها جاءت ذات يوم لزيارتي في غرفتي، ودهشت كثيراً عندما علمت أني ماهرة في التفصيل والخياطة، انتهزتْ الفرصة وأحضرتْ لي القماش الذي أهدته أمي لها، كي أخيطه لها، فأخرجت لها مجلات الأزياء القديمة والحديثة وأخذنا نتناقش حول الموديلات ولاحظت (لمى) مجاملة لي:

- إنّ مقاس جسمينا متشابه إلا أنني أنحف منك ...

ثم انتقتْ أحد الموديلات الحديثة وأخذتُ مقاساتها وسرعان ما بدأت الخياطة على ماكينة خياطة عمتي وأنهيت الثوب خلال يومين فقط ... كنت قد بذلت مجهوداً مضاعفاً لأتمه بأسرع وقت ... لقد نويت في نفسي أني بعملي هذا أريد أن أصل رحمي .(لمى) - لكي أثاب عليه من الله وليس منها، فقد قال (ص): " إنّ أعجل الخير ثواباً صلة الرحم "، وقال (ص): "من سره النسأ (زيادة العمر) في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه" ... الواقع أن الثوب لاقى إعجاب الجميع، شكرت الله على هذا التوفيق أنه هيأ لي الفرصة للتقرب ممن حولي بعد أن ضاقت بي الدنيا قبل حضور أمّي و (حسن)، وبعدها توالت عليّ عروض عمتي للخياطة لها، قبلت برحابة صدر، فأنا أحب أن أكون مفيدة لمن حولي وهكذا تحسنت العلاقات فيما بيني وبينهما وأخذت تسير من جيد إلى أحسن ...

وصرت أذهب للتدريب وأنت مرتاحة البال والنفس وقد تخلصت من هم كان يجثم على صدري، كالكابوس وأثّر هذا الفرح على بشرتي فتوردت حتى أن صاحبتي في التدريب كانت تحسدني على هذه البشرة، ولم تصدق أني لا أستعمل أية مادة من مواد التجميل وقد ظنت أني أستعمل مادة ماكياج لا أبوح لها بسرها ... وتركتها على ما تعتقده، وفي ذات مرة دار بيني وبينها حديث ودي عن التقارب الموجود بين المسيحية والإسلام ... قالت (نوال):

- لا أخفي عليك يا (سامية) أنني عندما تعرفت عليك لأول مرة، ظننتك فتاة انطوائية وبعيدة عن التهذيب — أرجو أن تغفري لي صراحتي — لكني وجدتك لطيفة ومجاملة ولا تعامليني وكأني قد هبطت من كوكب آخر ... بل ... ربما أحسست العكس ... وربما لا أكون مخطئة إذا أخبرتك أني أحسك تتقربين إلي ... فمرة تقدمين لي الكيك وأخرى الحلويات أو الساندويتش ... وكأنني أدين بدينك ... أو أختك ... هل تفتعلين هذا .. أخبريني الحقيقة ..

- عزيزتي (نوال) ... أنا أيضاً أشعر بك وكأنك أختي ... وأما كونك مسيحية الدين والمعتقد ... فهو أمر لا يعارضه ديني ... فأنا وكل المسلمين نؤمن بأن السيد المسيح عيسى بن مريم (ع) من أنبياء الله المرسلين إلى قومه ... وكذلك باقي الأنبياء (ع) جميعاً ... وهذا الاعتقاد من أسس ديننا الحنيف .. وبالتالي إذا كنت لا أكره دينك فكيف أكرهك وأعتبرك قد جئت من كوكب آخر كما تقولين ...

- أحقاً ذلك أريد أن تصدقيني القول ... أحقاً أن المسلمين يعترفون بنبوة المسيح ... أراك تقولين عن (عليه السلام) ... أحقاً ذلك ... ألا تجاملينني؟

جذب الحديث الطالبين الآخرين، وكان العمل اليومي قد انتهى فبقينا كمجموعة بلا عمل وقد ساهم أحدهما واسمه (منير) في الحديث عن المسيح (ع) وقال لها:

- أتعلمين يا (نوال) أن في قرآننا العظيم سورة كاملة باسم (مريم) (ع)، حيث تروي السورة قصة (مريم) وحملها لعيسى (ع) بإذن الله وصراعها مع قومها حيث كذبوها فأنطق الله عز وجل (عيسى) في المهد ليثبت براءتها .. هل

تعلمين يا (نوال) أن اليهود كانوا يعيبون المسيحيين هذا الأمر ... ويتهمون (مريم) بشتى التهم ... حتى أبرأها الله بآيات القرآن الكريم فكانت الشاهدة على صدقها وأخرس بذلك ادعاءات اليهود الباطلة ... حيث يقول عز من قائل: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيّاً * قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيِّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾.

وفرحتُ لأنه حافظ للآيات القرآنية ولم أكن أعلم بذلك من قبل لأني لا أختلط بهما وكل منا مشغول بتدريبه .. ثم واصل حديثة لها بأن الدين الإسلامي يكرم المرأة بحفظها عن العيون بالحجاب الجميل ..

ووسط دهشتي قال:

– تأملي الأخت (سامية) ... إنّها ترتدي حجاباً يقيها من العيون الآثمة .. انظري كيف أنها تثبت شخصيتها وتحوز على احترام الآخرين لها بكفاءتها العلمية لا بتبرجها ... أرجو أن يهديك الله لتصبحي مثلها ...

طأطأت رأسي خجلاً وانصرفت و(نوال) بحجة انتهاء وقت الدوام ... في اليوم التالي عندما هبطت من المصعد، وجدت (منيراً) واقفاً في الممر، فألقيت عليه التحية كالعادة وأنا أبتعد عنه ذاهبة لمحلي في التدريب ... فاستوقفني بأدب وهو يطلب أن أسمح له بسؤال ... قلت له:

– تفضل ...

– أرجو ألا يكون في كلامي ما يزعجك ... أنا في الواقع لا أُريد إلا الخير إن شاء الله وقد لحظتك منذ بدء التدريب ولاحظت تصرفاتك فوجدتك نعم الفتاة المؤمنة الشريفة ... فأخذت بالسؤال – ممن يعرفك – عنك وعن عائلتك فعرف الأخوة المؤمنون أخاك (حسناً) وأثنوا عليه وعليك كثيراً ... وأنا أتجرأ بسؤال عن رأيك في الزواج بي ... قبل أن أذهب وعائلتي إلى ذويك ...

عقدتْ الدهشة لساني لحظات ثم استجمعت شجاعتي وقلت له:

– لقد أدهشتني بطلبك هذا، وهذا أمر مهم أعتقد أنه لا يمكن البتُّ فيه بسرعة ولا في مثل هذا المكان ... ثم إني لا أفضل أن تسألني أنا مباشرة كان عليك أن تسأل من أخي وليس مني ...

– لماذا ... فهذا أمر حلال وشرعي وهو من أفضل الحلال وأنا قد ...

– نعم الزواج حلال ولكن سؤال الفتاة الزواج مباشرة ... هل هو حلال؟! راجع كتبك الفقهية لتعرف ذلك ... إنّ الله غيور يحب الغيور ... وكون الأمر حلالاً لا يعني وجوبه ... كان بإمكانك أن تطلب من أختك أو أخت أحد أصدقائك أن تسألني رأيي ... وأن تحترم الأصول المتعارف عليها ... فإذا أراد كل صادق أو كاذب التحدث إلى أية فتاة تعجبه بحجة سؤالها بالزواج منه ... فسدتْ الأخلاق وزال الحياء بين الفتيات والفتيان ... وديننا يدعو للحياء والرسول (ص) يقول: " لا يأتي الحياء إلاّ بكل خير " .. هل ترضى لأختك أن يحادثها الشباب هكذا مثلك؟

– أرجو المعذرة فلم أكن لأدرك هذا الأمر كما أوضحته ... على أية حال .. أرجو ألا أكون قد أزعجتك واغفري لي هذه الغلطة ... وأرجو ألا يؤثر هذا الأمر على قرارك معي ...

– إن شاء الله .

ذهب وبقيت في مكاني سارحة أفكر في هذا الشاب، لو لم أكن مرتبطة ب(سامي) أكان يصلح لي زوجاً أم لا؟!

أفقت على صوت (سامي) يسألني بصوت حاول أن يجعله مناسباً ومزيج من الأسى والغضب الدفين في وجهه يقول:

– ماذا أراد منك ذلك ((الطالب))؟؟

أكد على كلمة طالب وكأنه قصد أن يظهر لي أنه مهندس و(منير) طالب مستخدم لديه ... أجفلت قليلاً ثم قلت:

– لا ... لا شيء ...

– كيف تقولين هذا لا تكذبي ... كنتما تتحدثان معاً منذ ربع ساعة ... راقبتكما جيداً وأنتما لا تشعران بوجود الآخرين حولكما ...

أحسست بخجل كبير يعتريني لسماعي تلميحه هذا .. فالحق معه ... كيف أخطب هكذا .. وفي الممر .. إنّ (منير) لم يحترمني عندما طلب مني ذلك ...

– أنا آسفة ... أعدك ألا يتكرر ما حدث بعد الآن ...

قلت هذا وأردت الذهاب فمنعني وأكمل بإصرار:

– لكنك لم تخبريني بما قاله لك؟

ابتسمت وقلت:

– عدنا إلى موضوع الفضوليين!!

وبدلاً من أن يبتسم تألم أكثر وقال:

– ما هذا الهراء ... أنت ابنة عمي، ولي الحق في أن أراقبك وأراقب تصرفاتك وأعرف ما تفعلين ... من أمور سيئة!!

دهشت لكلامه ولا شك أن الدهشة ظهرت على وجهي لأني رأيته يتراجع وتلين ملامح وجهه عندما تطلعت إليه قائلة:

– كيف تسمع لنفسك أن تقول لي مثل هذا الكلام ... أنا ... أأنا يا (سامي) يقال لي ذلك؟ كم أنت قاس وظالم، ألم تعرفني بعد ... إذا كنت إنسانة سيئة فلماذا لم .. أحاول إغراءك ... أنت!! إنك تهينني جداً.

ودون شعور مني تساقطت الدموع من عيني ... ولحسن الحظ كان الممر خالياً ...

– كفكفي دموعك الآن ... دعينا من الوقوف هنا، اذهبي ووقعي دفتر الدخول وسأرسل في طلبك، فلا تتأخري، هل فهمت؟ ...

ودون أن يسمع جوابي تركني وعاد لغرفته، مسحت الدموع من عيني وفعلت كما أمر ... وجاءني مستخدمه يطلب إحضاري خارطة اليوم السابق معي، أخذتها وذهبت وطرقت باب غرفته فسمعته يأذن لي بالدخول، في هذه المرة لا أعلم لماذا انتابني شعور مغاير لما سبق، شعرت أني أخافه، أو ربما أحترمه فهو الآن رئيسي وفوق كل هذا محاسب لأفعالي في آن واحد ... غفر الله لـ(منير) ... لماذا لم يحسن التصرف ووضعني في موقف أكرهه، وأنا التي أسعى جاهدة ألا ألام على أمر .. المهم شجعت نفسي وقلت أني يجب أن أخاف الله فقط وليس البشر وخاصة أني لم أفعل ما يشين .. عند ذاك أحسست براحة عظيمة ... " ألا بذكر الله تطمئن القلوب " ... دخلت ووقفت قرب مكتبه، مد يده إلى الخارطة فناولته إياها، نظر إلي بلوم وعتب ووضع الخارطة على المكتب ثم صرف المستخدم ولم يأذن لي بالجلوس ... بقيت واقفة وأنا أتحاشى النظر إليه، قال:

– أخبريني ما نوع الرابطة التي بينك وبين (منير)؟!

– لا شيء ... والله ...

– إذن ... بماذا كان يحدثك؟

– أخشى أن تنزعج إن عرفت ذلك .

– لا بأس عليك ... فقط أخبريني ماذا قال لك؟

- إنّه ... إنّه كان ...

- كان ماذا؟

ابتسمت وأنا أجيبه:

- كان يريد أن يطلب يدي ...

سكتَ لوهلة فعجبت لذلك ورفعت بصري إليه فخيّل إلي أن وجهه اصفرّ للحظات ثم عاد اللون إليه، ثم قال بعد أن تحشرج صوته قليلاً:

- ماذا؟ يطلب يدك أنت؟ وهكذا في الممر!! ولماذا أنت بالذات؟

- قال أنه شاهد تصرفاتي محترمة ولائقة — بعكس ما تتهمني به أنت — وهو يعرف أصدقاء أخي (حسن) لأنه استفسر عني وعنه وعن عائلتي ثم جاء يسألني رأيي .

وبتلهف لم أعهده فيه سأل:

- ها ... وماذا قلت له؟

أخبرته بما دار بيننا، فقال:

- أحسنت ... يا للصعلوك .. سأنقله إلى قسم آخر ...

فقلت:

- أرجوك ... لا تفعل هذا ...

قال بحدة:

- لماذا؟ أتحبين أن يبقى إلى جوارك؟!

- أرجوك لا تسئ فهمي ... إنك كثير الشكوك والظنون ... ولا أعلم لماذا؟ ولا يهمني أن أعرف السبب ... لكني أقول لك كلمتين وهما (ثق بي)، فهذا الطالب هو كغيره من الباقين لا يعني لي شيئاً ... ثم إني لا أريد أن ينال أحد ما سوءاً بسببي ... ولا أن أثير شكوك الآخرين من حولي ... ثم ...

- حسناً .. يمكنك الانصراف الآن ...

ولف بكرسيه الدوار إلى الشباك خلفه بعيداً عني وقال:

- خذي خارطتك معك ...

أخذت الخارطة وعدت للقاعة أستأنف عملي على مكتبي ...

لاحظت خلال اليوم أن (سامي) تردد على قاعتنا أكثر من مرة بحجة أو بأخرى ... على غير عادته ... وتعمدت أن أتجاهل وجوده كالعادة رغم إحساسي بأنه كان يلقي بنظرة سريعة عليّ ... ضحكت في نفسي وتساءلت: ما باله؟ هل يلعب دور ابن العم الشهم الغيور ... أم أنه يغار عليّ فعلاً، واستبعدت من ذهني الفكرة الأخيرة ... فهو متعجرف وينظر إليّ على أني متخلّفة وهو متطوّر، وما بيننا لا يعدو أن يكون صفقة تجارية على حد تعبيره ... إذن فهو يحاول أن يعثر على الهفوات لي ويضخّمها لكي يذلني بها ... اعتقدت حينها أن هذا الاحتمال هو الأقوى ...

في المساء تحاشيت رؤية (سامي) لئلا يعود للكلام في موضوع (منير)، لكن لسوء الحظ عاد موضوع منير للظهور بعد يومين ... إن (منيراً) من الطلبة المتعاقدين للعمل بعد للجامعة أي أنه يستلم راتباً شهرياً مثلي ... وصادف ذهابه إلى الكلية في اليوم ذاته لاستلام راتبي ... وعدت إلى الدائرة متأخرة وكذلك فعل (منير) وسبقني بالحضور بدقائق خمس فقط ورغم أني لم ألتقه في الجامعة، إلا أني وجدت (سامي) ثائراً حيث أوصى المستخدم بأن يُحضرني إليه حال وصولي ... قبل أن أدخل مكتبه قرأت في نفسي: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا

يُصرون﴾ ... وفتحت الباب فوجدته يروح جيئة وذهاباً، وعندما رآني تقدم نحوي وكنت أسمع صوت تنفسه بقوة وغضب، وبهدوء مفتعل قال:

– أين كنتما؟

لم أجبه وأخرجت دفتر الشيكات وعليه تاريخ الاستلام لهذا اليوم وناولته إياه فقلت:

– ذهبت لاستلام راتبي ولا أعرف ماذا تقصد بـ(كنتما)؟ ذهبت لوحدي وعدت لوحدي كالعادة!!

– وصاحبك .

– لا صاحب لي! من تقصد؟

.(منير)، ألم يذهب معك؟ ألم تعودا معاً؟

– كلا ... لم يسبق لي أن ذهبت معه لأعيدها هذه المرة! ولماذا يذهب معي وبأية صفة؟ ومن أدراني بذهابه؟ ثم كيف تسمح لنفسك بمثل هذا التفكير؟!

هدأت ثورته عند سماعه لدفاعي فقال متسائلاً:

– لقد حضر قبلك بدقائق خمس واعتذر عن تأخره باستلامه النقود أيضاً!!

– اسمع يا أستاذ (سامي) ﴿إن بعض الظن إثم﴾ فليس هو وحده ولا أنا وحدي اللذين استلما النقود ... كان هنالك العشرات من الطلاب والطالبات فلماذا لا تستعيذ من الشيطان وتهدأ.

حاول أن يتكلم ففشل ثم قال:

– هيا عودي لعملك ...

مددت يدي فناولني دفتر الشيكات وعدت إلى القاعة ... وأنا أشفق على حاله .

عندما دخلت، قالت صاحبتي بصوت ساخر:

– لقد سأل عنك الأستاذ (سامي) عدة مرات هذا الصباح!

– نعم ... لقد ذهبت لمقابلته ...

تركت محلها وسألتني بفضول:

– لماذا يا ترى؟!

– أتعلمين منذ أن رسمت تلك الخارطة المملوءة أخطاءً وإلى الآن ... يتصيّد لي هذا الأستاذ العثرات ويؤنبني عليها! ولا أعلم لماذا؟ ما رأيك أنت؟ ترى لماذا يفعل هذا؟

– أظن أنه يعاديك – يكرهك – لارتدائك الحجاب وهو من النوع السبور الذي لا يعجبه ذلك!

ضحكنا معاً وانتهى اليوم بسلام .

* * *

في المساء تعمدت الذهاب لزيارة جدّي وأخبرته سلفاً أن حضوري إليه هو من قبيل التحقيق وليس الزيارة، فرح جدّي وقال ك

– يا هلا؟ يا (سامية) ابدئي التحقيق .

– أولاً ... لماذا (سامي) دائم الاكتئاب؟

– ثانياً؟
– هل هو طيب أم أناني أم ماذا؟
– ثالثاً؟
– لا يوجد .
– ما هذا التحقيق ... ظننت أن الأمر أهم من ذلك! ولم لا تسألينه هو فهو زوجك؟
– لا أريد جرح مشاعره .
– نعم التفكير ... اسمعي يا بنتي، عندما كنت أعيش مع عمك وأولاده سوية، كنت ألاحظ قسوة عمك عليه وحرمانه من أبسط الأمور، فهو لم ينفق عليه كفاية ولم يشعره أنه ابن رجل غني، بل العكس أراد أن ينشئه على البخل، فلم يستمتع بصباه جيداً، وزاد الطين بلة أن عمك قد غير من أسلوبه مع أطفاله الآخرين وبدأ يسرف عليهم، ولما كان (سامي) صغيراً أحسّ أن أباه يفرّق بينه وبينهم ... ربما كان هذا هو السبب ... وأما سؤالك عن طيبته فهو طيب جداً ومتسامح ويحب أن يصدق معه الآخرين ... هل اكتفيت يا حضرة المحققة؟!
– نعم، شكراً جزيلاً يا أحسن جدّ ... تصبح على خير ...
عدت إلى غرفتي واستغرقت في خياطة ثوب عمتي ... وعندما أحسست بالملل تركت الخياطة وأمسكت بأحد الكتب أطالعه حتى غفوت ... وفي الصباح اجتمع أفراد العائلة – لأنه يوم الجمعة – من جديد وحضر جدّي في الصالة معهم وكنت أجلس إلى جوار (لمى) نتصفح مجلات الخياطة معاً، ولدهشتي سمعت زوج (سها) يخاطبني:
– لم أفهم يا (سامية) لماذا أحضرت أمي هدايا لـ (لمى) فقط دون باقي العائلة ...
وكان يشير بتبسّم إلى زوجته، وقبل أن أجيبه، أكّد (سمير) قائلاً:
– ولا حتى لزوجتي يا أستاذ؟
ابتسمت وأنا أقول:
– بل أحضرت لعمتي هدية أيضاً!
قال (مراد):
– نعم ولكن لا شيء لزوجتي ولا لزوجة (سمير)!
إن أسلوبه في الكلام يجعل السامع لا يحقد عليه أو ينفر منه فهو يتكلم لأجل الحديث فقط وإضاعة الوقت ... قلت:
– لقد أجبت على السؤال بنفسك .
– وكيف ذلك؟
– إنك قلت زوجتي وزوجته وهذا أمر مشترك بينهما وتبقى (لمى) بدون هذه الكلمة أي خارج القوس، وكل من يبقى خارج قوس الزوجية فبلا شك يستحق الهديّة!
ضحكت (لمى) وفرحت أمها، بعدها أخذ (مراد) يتعمد أن يسألني عن الجامعة والأساتذة ومختلف المواضيع، وأنا أجيبه إجابات مقتضبة ظناً مني أنه سيملّ الكلام وبدلاً من ذلك قام من كرسيه بجانب زوجته وأدنى مني مقعداً وتناول إحدى مجلات الموديلات وأخذ يتصفحها، ثم بدأ يصفّر لجمال عارضات الأزياء فيها ورفع بيده إحدى الصور يريها للجميع ثم خاطب زوجته:
– انظري يا عزيزتي يا (سها) .. أنت أجمل منها ..
فرحت (سها)، فأكمل:

– إلا أن عينيها أكبر من عينيك قليلاً .. ولونهما أحلى ... ثم إن بشرتها ألطف ... وشعرها .. شعرها أكثر نعومة من شعرك ... وخداها متوردان أكثر من خديك ...

ضحكت و (لمى) لتعليقه فهو يتحدث بأسلوب يثير الضحك ... عدا (سها) التي قطّبت جبينها لتعليقه فقال وهو يمثل دور الخائف:

– إلا أن حاجبيك أكثف من حاجبيها ... يا ماما ... كذلك فإن أسنانك أكبر من أسنانها ...

حينذاك ضحك الباقون بينما ضجّت (سها) بالزعيق والخصام معه فأسكتته . وقال لها:

– العفو ... العفو يا حبيبتي ... العفو يا ملاكي الصارخ ...

فسكتت على مضض، لكنه لم يسكت ولم يترك المزاح، وانتقى من بين العارضات صورة لفتاة جميلة وقال وهو يغيظها:

– انظري إلى هذه الصورة ... إنها لفتاة جميلة أليس كذلك؟

قالت بفرح وقد ظنت أنه سيمتدحها بعد أن فعل زعيقها فيه مفعوله:

– نعم إنها جميلة بالفعل ...

– انظري إليها جيداً من تشبه من الحاضرات هنا! إذا كنت ذكية فستعرفين فوراً .

فكان ينظر إلى الصورة تارة وإلى عمتي أخرى وكأنه يوحي لها بأنها تشبه عمتي فقالت على الفور:

– إنها تشبه أمي الحبيبة ...

وبسرعة أجاب:

– غبية لا تفهمين ...

ضحك الجميع لأنه بدا كأستاذ يعلم الأطفال ثم توجه بالسؤال إلى زوجة (سمير) وأشار إلى (لمى) يوحي لها بالجواب:

– تشبه من هذه يا ذكيّة؟

أجابته وهي تضحك:

– تشبهني؟

قال بسرعة:

– غبية مثل زوجتي .

ثم التفت إلى عمتي التي كانت تغصّ بالضحك قائلاً:

– هيا ... هيا يا فيلتي قولي أنت!

ومن بين ضحكتها قالت:

– تشبه ... تشبه ... (لمى) .

صاح:

– فيلة جميلة وغبية ... وأنت يا جدّي، قل لي تشبه من هذه؟

فأجابه جدّي:

– اسكت يا ولد يا وقح ...

– المعذرة يا جدّ تصورتك كر يستوف كولمبوس ... أقصد تصورتك عمي ...

استاء جدّي منه وغادر القاعة، فتوجه بالسؤال لعمي:

– والآن يا عمي تشبه من هذه؟

ولما لم يجبه بشيء خوفاً من طول لسانه، أجاب:

– إنها تشبه (سامية)!

وماتت الضحكة على شفتي، فلم أتوقع منه كل هذه الوقاحة، وتوقعت أن يدافع عني أحد، فلم يفعل وبدلاً من ذلك أيده (سمير) قائلاً:

– نعم ... نعم الحق معك ... إنها تشبهها جداً ...

طأطأت رأسي، وبصوت حاد خاطبته:

– أرجوك يا أستاذ (مراد) ... أنا لا أسمح لك أن تغازلني ولا أرضى بهذا الهوان لنفسي ولكني سأسامحك هذه المرة فقط لأنك لا تعرفني ... وأرجو

ألا تكررها ثانية .

علت ضحكة (سها) متشفيّة بزوجها وهي تقول:

– أحسنت يا (سامية)، إن هذا السخيف يستحق ذلك .

وضحكت معها عليه إذا به يحمرّ كرمانة ناضجة، وحاول إخفاء خجله بأن قال لزوجته:

– اضحكي ... اضحكي يا لطيفة يا حلوة الأخلاق، لقد تخلّص أهلك منك ... وأصبحت مشكلتي أنا وحدي ...

أجابته:

– أنا أعرفك جيداً ... أنت لا تتملق أحداً دون مصلحة ... إما إن تريد بيعه بضاعة أو أن تحصل على نقوده ... وقد طمعت في ثروة (سامية) التي ستحصل عليها بعد عام بعد أن تنفصل عن (سامي)، لذا تريد أن تمهّد لنفسك السبيل ... لكن لا ... لن ندع الثروة تذهب لغيرنا ... سيّبقيها (سامي) على ذمته في كل الأحوال وسترى ...

وبعفوية أجبتها غير معطية الفرصة له للدفاع عن نفسه:

– إذن فلا توجد مشكلة ما ... لأن ما سأحصل عليه سيذهب فوراً إلى بنك التسليف لسد رهان البيت الذي نسكنه هناك .

وقال عمي فوراً:

– ماذا تقولين؟! أحقاً ما أسمع؟ أداركم مرهونة؟!

– نعم يا عمي ... هذه هي الحقيقة، وإلا لماذا بعث أبي يستحثكم على الزواج!! منذ حريق المخازن أفلس أبي ... و ...

سكتُّ عندما رأيت أن الجميع قد سكتوا يفكرون فيما قلته، قطع (مراد) الصمت بقوله:

– إذن فأنت فقيرة يا (سامية)!!

– الله هو الغني ... وكلنا فقراء له ...

التفت (مراد) صوب (سامي) وسأله:

– وأنت يا (سامي)، هل أنت فقير أيضاً مثل خطيبتك؟!

– كلا والحمد لله فأنا عندما أستلم النقود سأفتح شركة هائلة للمقاولات الهندسية .

– إذن شغلني عندك ..

– الكل يعمل عندي سواك ...

صفق (مراد) بيديه كالنساء وهو يولول:

– أرأيت ... أرأيت يا (سها) أخاك وأفعاله ... إنه مثل الأب الذي (نوى) أن يشتري سيارة فأخبر زوجته والأطفال ليفرحهم بالنبأ فشرعوا يتخاصمون حول من يجلس في المقعد الأمامي الزوجة أم الأطفال مما جعل الأب يقف في الوسط – ونهض ممثلاً دور الأب – صائحاً:

– اخرجوا جميعاً من سيارتي عقاباً لكم على الضجيج ...

ضحك الجميع عدا (لمى) وأمها يبدو أني أخطأت بإخبارهم حقيقة وضع أبي المادي ... وربما لن ترضيا بأخي (حسن) زوجاً لـ(لمى) فيما لو تقدّم لخطبتها ... فجأة رنّ جرس الباب وكان الضيوف هم (نادية) وأمها وخالتها!! دخلت النسوة الثلاث في موكب فخم من الأناقة والغنج وكأنّهنَّ ممثلات يستعددن للتصوير وألقين بالتحية بترفّع ثم صافحن الحاضرين واحداً واحداً ثم قبّلن (لمى) وعمتي وجلسن وبدأن بالتحدث إلى الجميع ويبدو أنهن يعرفن العائلة منذ مدة طويلة استمتعت بالنظر إليهن وسماع الأحاديث من حولي وقد التزمت الصمت، واللطيف أن (لمى) وعمّتي ارتدتا الثوبين اللذين خِطتهما لهما؛ أطرت (نادية) على ذوق (لمى) وعمتي في انتقاء زيّهما ... لكن عندما علمت أني التي خطتهما لوت شفتها ازدراءً، أردت أن أغادر وأعود لغرفتي، لكن حواراً بدأه (مراد) اجتذبني، فهو لا يُعدم وسيلة يُسيء بها إلى (سها) إلا واستغلها ... فقال مخاطباً (نادية):

– أتتكلمين عن الذوق والجمال ... وهل توجد من الحاضرات من ترتدي مثلما ترتدين يا جميلة؟!

أغمضت عيني خوفاً من رؤية ما سيحدث ... ظننت أن (نادية) ستقذف بالكوب الذي أمامها في وجهه ... ولدهشتي سمعت صليل ضحكة (نادية) المرحة، فتحت عيني ورأيت الاستبشار والفرحة على وجهي أمها وخالتها، تشجعانه على ذلك بدلاً من أن تغضبا!! الواقع أني التقيت وصادقت الكثير من الفتيات غير المحجبات في الجامعة ورغم تبرجهنَّ وإظهارهن لزينتهن، لم يكنَّ يَرضين بهذا النوع من الغزل والمغازلة، وعندما يسألهن أحد عن السبب، ببساطة ووضوح يُجبن: إنهن يطبقن الموديلات والصرعات فحسب وليس ذلك بدليل على داخلهن ولا يردن أن ينزعن مع ملابسهن الحياء الداخلي في أنفسهن بمثل تلك الأحاديث، والواقع أنهن حيارى ومغرر بهن في تناقض واضح بين الصرعات والتقاليد، غرتهن الجاهلية الحديثة ... أما هذه فلا ... أجابته بغنج:

– أنت تمزح يا (مراد) ...

لكنه أكّد لها ذل بسيل من المديح والإطراء ... والتفتُّ إلى (سها) لأرى ما تفعل، كانت ساكتة على مضض كالنار تحت الرماد ... تُخفي غضبها مجاملة أو تؤجله لحينه ... اللطيف أن (سامي) ضحك لتعليقات (مراد) وحوارهن معهنَّ وكنت أظنه سيهرب مثلما فعل سابقاً إلا أنه خيّب ظنّي ... استمر الحوار بين الضيوف والرجال عن جمال (نادية) وعن ملاحقة الفتيان المستمرة لها وكلّما خبت جذوة الحديث أججتها الأم أو الخالة حتى وكأن الله سبحانه لم يخلق سواها ... بعد ذلك انتقلوا إلى الحديث عن الغناء والرقص وأحدث الممثلات وحبهن لممثلين معينين دون سواهم بكل تبجح مع آهات وإيماءات منحطّة ... أحسست بفراغ الحديث وسخافته وكانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً وهو وقت أذان الظهيرة فقلت في نفسي: إن الاستماع لهذه الترهات مَضيعة للوقت وَجلبة للسيئات خاصة وأني لا أستطيع أن أُدلي برأيي فيه ... وحتى وإن تكلمت فلن يلق الأثر المطلوب ... وما دام الجميع قد أقسموا على مجاملة هؤلاء النسوة فلن يجد الأمر بالمعروف بينهم طريقاً ... لذا فضلت المغادرة إلى غرفتي حتى استدعتني عمتي ثانية لتناول طعام الغداء فقد تحسنت العلائق بيننا حتى أنها ما عادت تتركني دون أن تستدعيني للطعام ... أما جلسة الطعام هذا اليوم فقد كانت مختلفة؛ حيث أدنت (نادية) مقعدها من (سامي) وأخذت تلاطفه طوال الوقت وتكيل له النظرات الطويلة من خلال رموشها السوداء الاصطناعية المثقلة بالكحل، وجلست أمها بجوار عمي تلاطفه!! أما خالتها فأشغلت عمتي عن التطلّع لما يدور من حولها نهائياً بحديثها وبأعاجيبها التي كانت ترويها لها ... بدت لي جلسة الطعام هذه تمثيلية قد توزعت الأدوار فيها لكل منهن ... اندمج (سامي) وعلى غير عادته في الكلام والملاطفة

والتبسّم ثم أردفها بالضحك مع (نادية) وكذلك فعل عمي، فكّرت أن الأمر يدعو للريبة ... فـ(أم (نادية) وإن كانت في متوسط العمر إلا أن تبرّجها جذّاب وأحاديثها مع عمي لا تخلو من لطف وكأنها تتمة لحديث مضى، أما متى وكيف؟ فلم يخطر ببالي ... وسنحت لي الفرصة أن أنتبه لزوجة (سمير) وجدتها تحدّق بي وكأنها قد قرأت أفكاري فغمزت لي بمعنى هل انتبهت إلى عمي وأمها .. ثم التفتت ناحية (سامي) و(نادية) ولوت شفتها امتعاضاً وكأنها تقول لي: انظري إلى خطيبك واستمعي لضحكاته ... رفعت كتفي وحاجبي لها علامة اليأس والاستسلام، فلاحظ (مراد) ذلك وهمس في أذن (سها) شيئاً فضحكا معاً، لاحظت وجوم (لمى) غير الطبيعي ... حتى أنها لم تتناول طعامها واستأذنت من جدّي وغادرت المائدة ... شبعت بسرعة كعادتي واستأذنت في القيام لألحق بـ(لمى) ... لاحظت أن سامي ركز نظراته علي وأنا أغادر المائدة، فأعادت نادية وجهه بكفها إلى ناحيتها وهي تقول بغنج:

– انتبه لي يا (سامي)، فأنا لم أُتمّ حديثي لك بعد ...

ابتسم لها مشجعاً ... خرجت خلف (لمى) .. كانت تجلس على أحد كراسي الحديقة وقد وضعت رأسها بين كفيها وأسندتهما إلى المنضدة ذهلت لمرآها واقتربت منها أسألها بلطف:

.(لمى) ... عزيزتي (لمى) ... هل تسمحين لي بالجلوس إليك ..

أومأت برأسها دون أن تغيّر من جلستها، ولاحظت قطرات الدمع تنحدر من عينيها فتسقط على المنضدة، بفزع خاطبتها:

.(لمى) .. عزيزتي (لمى) .. لماذا البكاء .. ماذا حدث؟ .. هل ضايقك أحد ما ...

أبعدت كفيها عن وجهها واحتضنتها إلي ووضعت رأسها على كتفي وأنا أحدثها:

– ألم نصبح صديقات بعد ... أخبريني ماذا حصل ... بالله عليك؟

زاد نشيجها ... قلت لها:

– هيا تعالي معي إلى غرفتي فهناك أفضل ... ذهبنا سوية وأحضرت لها منشفة مسحت بها دموعها وابتسمت لي مجاملة، جلست بجوارها على السرير وسألتها:

– هيا يا (لمى) ... أزيحي ما تحسّين به من ألم عن كاهلك وأعدك بأن أكتم السر ...

بهدوء قالت:

– لقد ... لقد عطشت آخر الليل ... فنزلت أشرب من المطبخ لاحظت أن أضواء المطبخ منارة فتعجّبت لذلك وبهدوء اقتربت من الباب الذي كان مفتوحاً قليلاً .. وسمعته يتحدث إلى أمها ..

– من؟ وإلى من كان يتحدث؟

– ألم تلاحظي تصرفاتهما؟

– من هما؟

– أبي و(أم نادية) ...

– وماذا سمعت؟

– سمعت كل شيء .. كل شيء ... إنه قد تزوجها .

– ماذا!!

صعقت لهذا النبأ المفاجئ واحترت ماذا أقول لها، أأناقشها أم أواسيها ... أكملت:

– ألم تلاحظي كيف أن خالتها تُشغل أمي بالحديث طوال الوقت كي لا تنتبه لما تفعله أختها مع أبي ... والآن أفهم إصرار (نادية) على الحضور دوماً برفقتهما ... حاولت (نادية) فيما مضى أن تخطف (سامي) زوجاً لها فلم تفلح وهاهي لا تزال تحاول خطفه عسى ولعل أن تفوز به ... لما فشلت البنت رمت الأم بشباكها حول أبي ... كان يقول

لها أن الستة شهور التي مضت من زواجهما تعادل ست سنين من العسل ... ويبدو أنه كلما تأخر في الحضور إليها ... تأتي هي ... وهاهو أبي قد زادت سفراته في الآونة الأخيرة ... الخبيثة ... لا أعلم ماذا أفعل ... إنني في حيرة ... أخاف أن تفهم أمي ويحصل لها ما لا يُحمد عُقباه ... ولا أستطيع احتمال هذا الوضع ... لقد سئمت (نادية) جداً بعدما اتضحت حقيقة صداقتها لي .. أرجوك يا (سامية) ... افعلي شيئاً ..

– أنا مستعدة لأي مساعدة أقدر عليها ... ما رأيك أن نخبر جدّي بالأمر .

ضحكت قائلة:

– جدّي!!! إنه لا يقدر على شيء.

– لماذا ... ذات مرة قال (سامي) أن كلام جدّي هو المطاع عندنا ...

– الكل يوحون له بذلك ليحصلوا على ثروته .

– نعم هذا صحيح .. وهو يعرف أنكم تجاملونه لتحصلوا على ثروته.

جفلت وقالت:

– ماذا تقولين؟ جدّي يعرف أنهم يمثلون عليه!!

بحزن قلت:

– نعم ... إنه يعلم بذلك جيداً ويتألّم لكونكم لا تأبهون له ولا تهتمون إلا بأمواله فقط..ومع كل هذا أظن أنه الحل الوحيد لهذه المشكلة فهو يستطيع الضغط من هذه النقطة مُستغلاً تودّد عمي إليه من أجل ثروته ... ما رأيك؟

ارتاحت (لمى) قليلاً ثم قالت:

– فكرة لا بأس بها ... أتعلمين أنني أشعر الآن أكثر من أي وقت مضى بحاجة إلى رجل كبير يستمع إليّ مثل جدّي ...

– إن زيارتك له ستكون بمثابة صلة رحم لك تثابين عليها ...

مضت الساعات سراعاً وغادر الضيوف وذهبتُ و (لمى) لزيارة جدّي، فرح في البداية بزيارة (لمى) ثم شرحنا له الأمر الذي جئنا من أجله فأطرق قليلاً ولم يُجب بشيء ثم سأل (لمى):

– ما الذي يضايقك من زواج أبيك يا (لمى)؟ فالدين قد حلّل الزواج بأربعة وهو لم يتزوّج إلا باثنتين ...

صاحت (لمى):

– كيف تقول هذا يا جدّي؟ وماذا عن أمي .. وتركه المستمر لنا، بل هجره للجميع بحجة السفر أو غيرها .. إنه ... إنه لم يعد يُطيق النظر لأحد منها ... بل لا يتكلم مع أحد منا ... شغلته وشغلت تفكيره تماماً عنا ... ويا ليتها حقاً تحبه .. بل هي إنسانة تافهة لا هم لها سوى المال وهدم بيوت الآخرين ... أتعلم أن أبي هو زوجها الرابع أو الخامس ... لا أعلم بالضبط ... الذي أعرفه جيداً من ابنتها أن أمها كانت تخرج بثروة هائلة بعد كل زواج ... أيرضيك هذا يا جدّي؟!

– وهل تشعر أمك بضيق من تصرفاته أيضاً؟

– إنها تحمله محملاً حسناً ولو عرفت لماتت من شدة الألم ... و(أم نادية) ستجعل الجميع يفلسون ... وستتحطم العائلة أجمع ... كما حدث مع زيجاتها السابقة .

– إن كل ما قلتِه صحيح فلسوف أجبره على تطليقها ...

انشرح وجه (لمى) وقمنا مودعتين ...

* * *

في صباح اليوم التالي اجتمع (سامي) بمجموعتنا لكتابة تقرير التقييم لكل منا ... فهذا اليوم هو آخر يوم في التدريب الصيفي، وطلبت (نوال) والآخرون منه أن يسمح لنا بالذهاب مبكرين هذا اليوم كمكافأة لنا على جهودنا ... ضحك (سامي) لهذا الطلب ووافق فوراً .. شكرناه وغادرنا القاعة ... وفي الممر المؤدي إلى المصعد اجتهد (منير) أن يلحق بي ويسألني رأيي في الزواج منه، وكأنه نسي ما قلته له عن عدم التحدث مع الفتاة مباشرة ... على أية حال أجبته جواباً مقتضباً بالنفي وتركته دون أن أمنحه الفرصة للاستيضاح ... في المساء أخبرت جدّي ما دار بيني وبين (منير) و(سامي) والحقيقة أني شكوت (سامي) له بشكوكه الغريبة هذه، عجب جدّي وسألني:

– يا له من فتى، كيف يخاطبك مباشرة، أحسنت رده، ولكن قولي لي ألا يعلم أحد ما أنك مخطوبة ...

– كلا يا جدي ...

– ولماذا؟

– أوه .. يا جدّي .. أنا لا أتحدث مع الطلبة أبداً سوى إلقاء التحية، فكيف أخبرهم بأموري الخاصة .. كلا .. فأنا أخجل كثيراً ... وحتى زميلتي الفتاة المسيحية لم أخبرها خوفاً من أن ينتشر الخبر فيؤوّل كل كلام أو حديث لي مع (سامي) إلى معنى آخر ولربما يسخرون مني .. المهم ما رأيك بفعل (سامي) ...

سكت جدّي قليلاً قبل أن يقول:

– لا تغضبي من (سامي) وتصرفاته .. الغيرة تفقد الإنسان عقله وتخرجه من طوره ... ولو كنت محله لغضبت مثله ... فكيف به وهو خطيبك وأقرب إليك مني ... سمعنا صوتاً يقول:

– من هو الذي أقرب إليها منك يا جدّي ...؟

قال جدّي يوضح له:

– قصدتك أنت يا (سامي) ..

جلس (سامي) أمامي بعد أن ألقى التحية:

– هل ارتحت اليوم ... اليوم هو اليوم الأخير لتدريبك العملي ...

– نعم .. شكراً جزيلاً لسماحك لنا بالمغادرة فوراً .

– هذا أقل ما يمكن فعله لطلبة مجتهدين أمثالكم ... ها يا جدّي عماذا كنتما تتحدثان؟

لمح لي جدّي بالسكوت عن موضوع (منير) لئلا ينزعج (سامي) كما اعتقد هو:

– أخبرتني (لمى) ليلة البارحة خبراً مزعجاً ... قالت أن لك زوجة أب...

ببرود أكمل (سامي):

– أعلم بالأمر ... إنها (أم نادية) ..

تعجّبت فلم أنبس ببنت شفة، قال جدّي:

– ولم لم تخبرني يا (سامي) .

– وما الفائدة من ذلك!! ثم إن لأبي حريته الشخصية في فعل ما يحلو له ... وهو إنسان ناضج ... فليتزوج ممن يشاء ..

– ما هذا المنطق يا بني ... كيف تقول هذا؟ ألا تهمك سمعة أبيك وزوجته؟ ألا يهمك أن تؤول ثروته لغيرك وغير إخوتك؟!!

– بل يهمني كثيراً ... ولكني يائس من إقناعه ويائس من الحصول على ثروة أبي .. عندما عرفت بأمره غضبت كثيراً وفكرت مثلك ... ثم فكرت في حال أمي لو علمت بالأمر ... وبقية أخوتي ... لا شك أنها لو علمت ستجبره على التخلي عنها ... ولكن فكّر في الجحيم الذي سنعيشه من خصام ومعارك وخطط ... تجدني كنت محرجاً من طرح هذا الموضوع علانية ... إن أخبرته بمعرفتي الحقيقة فسيذهب حاجز الحياء بيننا ... حينئذ سيتخلص من حالته هذه في إخفائه لزواجه، ولن يشعر بالإثم تجاه عائلته ... وحتماً سيثور ونفعل كما تعرفه وسينطلق من قيوده النفسية بعد أن يُكتشف أمره فيفعل كل ما يريد ... ولئن كان يبذر في السر قيراطاً فلسوف يبذر في العلانية أطناناً ... إن أبي يخفي عن الجميع مقدار ثروته ومصادر إنفاقها فهو لا يحتفظ حتى بخزانة لحفظ النقود في البيت ... لكني على ثقة من رجاحة عقله ... ثم .. ثم إنه متصاب وهو يمر بأزمة عاطفية سرعان ما ستنتهي .

– وكيف ذلك؟!

– أوه يا جدّي ... ألم تلاحظ (أم نادية) وسلوكها كم هي مُملّة .. ولا شك ..

قلت مقاطعة:

– لكن ليس مثل ابنتها (نادية) أليس كذلك؟!

ضحك (سامي) قبل أن يقول:

– بل البنت مثل أمها مملّة جداً، يكفي أن يعيش الرجل معها شهراً واحداً ليعتادها ومن ثم يملّها ...

– نعم ... كلامك صحيح ... فقد رأيتك كيف كنت تقهقه معها من شدة الملل!

وهو يضحك قال:

– إنها جميلة وتلاطفني طوال الوقت فمن الواجب أن أجاملها .. وإلا ماذا أفعل؟!

– لا شيء سوى أن تقهقه معها بأعلى صوتك ... وأنا التي كنت أظنك لم تعرف شيئاً اسمه الضحك أو الفرح!!

– هل تغارين منها يا (سامية)؟!!

– أغار!! ... أنا أغار من واحدة مثل (نادية)؟!

– هكذا يبدو!

– كلا .. لا تعتقد هذا أبداً .. أنا لا أنفي أني أشعر بالغيرة أحياناً ولكن ليس من (نادية) وأمثالها .. أشعر بالغيرة ممن هي أفضل مني ... وهذه ليست بأفضل مني .. لا أقول هذا تكبراً ... ولكني أشرح إحساسي فلو كانت فتاة محجبة ومثقفة وبهذا الجمال .. نعم ... حقيقة كنت سأشعر بالغيرة منها .. وأتمنى لو أني مثلها .. أما هذه التي يتكلم معها الغريب والقريب وينظر إليها وإلى جمالها جميع الرجال! يستمتعون بجمالها بلا استثناء ... العالم منهم والجاهل ... الغني والفقير فلا تتأبى من ملاطفتهم والحديث معهم؛ ولا تحترم الكتاب أو تمسك به ما لم يكن عن الممثلين أو المغنّين .. أنا في الحقيقة أرثي لحال مثل هذه الفتاة وأشفق عليها ... فهي إنسانة مخدوعة خدعتها الأفكار الدخيلة على ديننا تراثنا ... فصورت لها لأباطيل حقيقة ووضعت لها مقاييس أصلح ما تكون للبهائم منها للبشر ...

قال جدّي بحماس:

– بارك الله فيك يا بنتي وزاد في إيمانك ورجاحة عقلك ..

قال (سامي):

– إذن فأنت لن تغاري منها إذا تزوجتها!!

غصصت بريقي وقلت:
– لن أحتملها ثانية واحدة!!
ضحك (سامي) بانتصار وقال:
– إذن ... ها أنت تناقضين نفسك!
– لا أجد تناقضاً ... إن كوني لا أشعر بالغيرة منها لأنها لا تستحق مني الاهتمام بها لا يتناقض مع رفضي لزوجة أخرى لزوجي أياً كانت!! ... ثم .. ثم لماذا الزواج بثانية .
– إنه أمر حلال وهو جائز شرعاً ... حتى الأربعة نساء ..
– هذا صحيح ولكن بشرطها وشروطها ..!
– ما هذه الأشياء التي تفتعلينها وتقولينها، ما هو شرطها وما هي شروطها؟
– المرأة إنسان له كيان يجب احترامه لأن الله عز وجل كرّم الإنسان ولا يرضى بإهانته، لذا على من يتزوج بأخرى إن صح الدافع لذلك شرطاً: أن يعدل بينهما، والعدالة والمساواة في الأمور المادية والتصرفات، والبقاء عند كل منهما بشكل متساو .
– هذا أمر هيّن ...
– لا تظنه هيّنا فالزوج محاسب على أفعاله تجاههن يوم القيامة، فإن اشترى لهذه بدلة، وجب عليه مثلها بالضبط للأخرى حتى وإن كان ضد رغبته النفسية أو المادية، أو إن سجل لمن يحبها منهما أكثر عقاراً باسمها وجب عليه مثله للأخرى وإن لم تحتجه ... إلا إذا تنازلت هي عن ذلك ونادراً ما يحدث هذا .. وهكذا سلسلة من المتاعب التي لا تنتهي .. دعنا من هذا ... ليس هذا هو الأمر المهم ... فما الداعي والسبب الدافع للزواج بأخرى ...
– أم م .. لا شيء .. هكذا ... افرضي أنه يعجبني ذلك ...
– صحيح أنه بما يعجبك يا أستاذ ... وضع الرب الجليل الدين لمصلحة العباد وليس لضررهم .. ولو كان الأمر هيّناً لأتاح الشرع للمرأة أن تطلّق من زوجها وتترك أطفالها لأن آخر أعجبها هي أيضاً ولتفككت أواصر العائلة ... كما هو حاصل الآن في المجتمعات الغربية ... ألم تسمع رد النبي (ص) لأحدهم بما معناه إن أعجبتك إحدى النساء فعد لزوجتك فإنها مثلها – أي أن النساء متشابهات – وذلك لأنه (ص) علم أن هذا الإعجاب بالظاهر هو أمر مؤقت أو نزوة طارئة سرعان ما تزول ولو أن عمله كان صحيحاً لشجعه الرسول ليسارع في الزواج من الأخرى والأخرى إذن لتحول هذا الرجل من آدميته إلى شهواته ولترك كل عمل له وركز أفكاره في مجال واحد ألا وهو النساء ... في حين أن الحياة مملوءة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وإعمار الأرض .. إضافة إلى أن المؤمن مطالب بغض البصر .. وليس العكس ...
– إذن لماذا رخص الزواج بأربعة؟!
– إنك تضحكني ... الزواج بأربعة مسموح ومباح وليس بواجب ... إلا أنه توجد حالات يستوجب فيها الزواج ...
– مثلاً؟
– مثلاً ... إن كانت الزوجة تشكو من مرض مُعدٍ يمنعها من أداء وظائفها الزوجية، والحالة الثانية إن بعدت بينهما الفاصلة الزمنية أو المسافة بفعل الحروب أو الحوادث أو الكوارث الطبيعية، الحالة الثالثة إن كانت زوجته عاقراً لا تلد، وهنالك حالة أخرى تختص بالرجل إن كان لا يستطيع الاكتفاء بواحدة وهي حالة تعتبر شبه نادرة في مجتمعنا الصناعي ... أتعرف يا (سامي)، إن مجرد إحساس المرأة بإمكانية ارتباط زوجها بأخرى هو إحساس ممدوح في حد ذاته أحياناً ...

– وكيف ذلك؟

– أنا أقول لك .. متى ما اطمأنت المرأة نهائياً أن زوجها لن يعدل بها أخرى تكاسلت في أداء وظائفها المنزلية أو الزوجية بشكل عام ... وليت هذا فقط بل إني شاهدت عن قرب كيف تتغير أخلاق هذه المرأة المطمئنة وتبدأ في المشاكسة، بل قل في فضح أخلاق تتستر عليها في بداية الزواج حتى اعتقدت أنها المسيطرة الوحيدة في دارها فبدأت تهمل الاهتمام بمشاعر زوجها وأحاسيسه، وفي أحيان أخرى تتعمّد ذلك ...

– ماذا؟ أنت تمزحين! ..

– كلا .. لا أمزح .. هنالك نوع من النساء — ولا أقصد المؤمنات طبعاً — من تود أن تشعر أنها المدللة لدى زوجها، فتتمادى في الخصام والمشاكسة ... لا يعيدها لوعيها إلا تهديد الزوج بعد أن ملّ وسئم أخلاقها، بالزواج من أخرى .. حينئذ تنقلب الآية تلين الزوجة حتى ينسى زوجها شراستها وإهاناتها له ... وفي معظم الأحيان يكفي التهديد لحل المشكلة ... ماذا ... لماذا تحدق بي هكذا؟ هل قلت شيئاً خاطئاً؟!

– لا .. لا ... فقط أفكر بما قلته .. ترى هل تؤمنين به حقاً؟

– بالطبع ولم لا أؤمن به ... أنا لست مرائية أو كاذبة .

– إذن لنفترض أنك ذات عاهة أو مرض مُعدٍ .. أكنت سترضين بزواجي من أخرى؟! أريد رأيك الحقيقي وليس مجاملة ...

– طبعاً أرضى ... فهو أفضل للمرأة على أية حال زواج زوجها بأخرى في حالة مرضها أفضل لها من الطلاق والضياع ... ولكن إن أردت الحقيقة ... سأرضى ولكن بشرط ...

– وما هو؟

– أنا أختارها أنا لك ...

– أعرف ما تقصدين ... شمطاء عجوزاً ولا تلد!

بجد قلت:

– بل فتاة مؤمنة وجميلة ...

– من صديقاتك مثلاً ...

– إذا وافقن فهو الأفضل ...

صاح جدّي بسأم:

– صدّعتما رأسي بهذا الحديث .. لم تتزوجا بعد وها أنتما تتجادلان .. فكيف الحال بكما فيما بعد؟!

ضحكت خجلاً وقلت:

– أستميحك العذر يا جدّاه ...

قال جدّي:

– لا عليك .. وأنت يا (سامي) من رأيك أن يظل زواج أبيك في الكتمان ... ولا فائدة أن تحدثت أنا إليه ..

– هذا ما أتصوره يا جدّي ...

– لكن (لمى) ستجن إن لم تفعل شيئاً حيال هذا الموضوع يا بني ..

– اسمع يا جدّي إن أبي لن يورث أحداً منا شيئاً .. فهو دائم السفر إلى الخارج ولا ينفق علينا شيئاً إلا اللمم، وخاصة أنا و (سمير) على اعتبار أننا نمتلك الوظيفة ويمكننا الاعتماد على أنفسنا ... وكم من مرة طرحت عليه أنا و (سمير) مشروعاً لشركة مقاولات هندسية بالاعتماد عليه فأبى وفض ذلك وقال بالحرف الواحد: إن وظيفتي تجاهكما قد انتهت ولا تأملا فلساً ولو بعد مماتي ... لقد صمم أن يتلذذ بأمواله في حياته، وإن نفدت فلن يُعدم الوسيلة كي

يستميلك إليه ويحصل على ما يريد ... لذا فإن كان همّ (لمى) الثروة فلتيئس منها منذ الآن ... وأما إذا كانت تحب أمي فلا تخبرها وهذا أفضل للجميع ... ولسوف أتحدث إليها غداً وأقنعها بالأمر لأجلك يا جدّي ... وأنت يا (سامية) من أنبأك الخبر .. أهي (لمى) ...

– نعم ...

– طيب ... انهضي الآن ... فالليل يكاد ينتصف وجدّي قد تعب من الجلوس وهو يحتاج إلى الراحة .

قال هذا ووقف يريد المغادرة، قلت:

– لا أشعر برغبة في النوم ..اذهب أنت مع السلامة.. وجدّي تبدو عليه الراحة التامّة..أليس كذلك يا جدّي؟

قال جدّي وقد لاحظ حيرة (سامي):

– يا بنت يا شقية هلا ذهبت مع خطيبك ... أنا لا أرضى أن ترفضي له أمراً .

نهضت وأنا أقول:

– أمري إلى الله ... لأجلك فقط يا جدّي سأذهب ... ولكني لم أر جدّاً طيباً يطرد حفيدته التي تحبه هكذا وبكل صراحة ... المهم ... تصبح على خير ...

خرجت مع (سامي) وفي الحديقة سألته:

– لي عندك رجاء يا (سامي) .

– تفضلي ... إن احتجت أية مساعدة فأنا مستعد ...

– أرجوك عندما تزور جدّي ثانية بحضوري ألا تطلب مني الخروج معك فأنا لا أشعر بالنعاس ... ولا عمل لي أؤديه في منتصف الليل ... كما أني وإياه نستمتع بالحديث معاً ... فلا تحرمني منه ...

– ...

– لماذا لا تجيب! ها! هل غضبت ثانية؟

– ...

– حسناً ... انتظرني خمس دقائق ريثما أجري مكالمة هاتفية ثم أعود إليك ...

– ماذا؟ مكالمة هاتفية في منتصف الليل؟ .. لماذا؟ ولمن؟ ...

– أريد أن أتصل بـ(نادية) لتحضر وتتكلم معك فتنفرد تجاعيد وجهك وتضحك وتفرح، وتستطيع بالتالي الإجابة على سؤالي ...

ابتسم قليلاً، ثم بارتباك وكمن يخفي الحقيقة قال:

– قلت لك سابقاً، إننا مخطوبان ويجب أن نتظاهر بهذا أمام جدّي ... هل نسيت؟

– حسناً فهمت ... تصبح على خير ...

– تصبحين على خير ... ولكن لحظة ... ألم تقولي إنك لا تشعرين بالنعاس ...

– نعم ... هذا صحيح ...

– إذن رافقيني نسير في الحديقة نتحدث لبعض الوقت ...

– شكراً ... تصبح على خير ... لا أريد ذلك ..

تركته وعدت لغرفتي وقبل أن أغفو، فكرت أني قد أكثرت من ذكر (نادية) لـ(سامي) في حين أنها لا تستحق كل هذا الاهتمام ...

* * *

جُنّ جنون (لمى) عصر اليوم التالي عندما كان (سامي) يحاول إقناعها بالتكتّم على الأمر ... كنا نحن الثلاثة نجلس في الحديقة ... أخذت المسكينة تنشج عندما عرفت أنها لن تنال شيئاً من ثروة أبيها —كما يعتقد (سامي) — أخذت و (سامي) نهدئها حتى سكتت على مضض كالمغلوب على أمره ... ووافقت في النهاية ألا تخبر أحداً بالحقيقة ... واتخذت قراراً بعدم السماح لـ(نادية) أو أمها بزيارتها ثانية ... أما (سامي) فاعترض يقول:

– لكنك ستجعلينهم يعرفون بأن أمرهم قد افتضح!!

– لا يهمني شيء بعد الآن .. على الأقل ... سأرتاح من رؤية وجوههم الكريهة ... ولن أدعها تخطفك يا (سامي) من (سامية) ...

وسط كل هذه الأحزان تملكتني رغبة جارفة بالضحك ... فلم أتمالك نفسي عن ذلك ... استغربت (لمى) مني ذلك ونظر (سامي) إلي بعتاب فكبحت جماح نفسي عن الضحك بصعوبة ثم قبّلتها من خدها القريب مني أحاول إرضاءها ... وقلت:

– أرجو ألا تضايقي نفسك يا (لمى) ... ولا تجعليني السبب في فسخ صداقتك لـ(نادية) ... فأنا لا أهتم بمن تخطف (سامي) .. وكما أن ...

وعلى غير المتوقع قاطعني (سامي):

– ماذا؟ ألا أشكل أية أهمية بالنسبة إليك ... هل تنظرين إلي كما تنظرين إلى فلاح حديقتنا أو إلى (أبي خضر) ... إن تزوجا ... أو .. ماتا لا يهمك أمرهما؟!!

الواضح أنه غضب من كلامي مع (لمى) وأنا لم أقصد شيئاً سوى الحقيقة ... الحقيقة التي خطط لها منذ البداية وسمّاها بالصفقة التجارية .. لذلك سألته:

– أو يهمك رأيي بالزواج يا (سامي)؟

– بالطبع يهمني ...

– لماذا؟

– هكذا ... أريد أن أعرف رأيك على كل حال!

بهدوء قلت:

– حسناً ... إني إن أردت الزواج بملء إرادتي .. فيجب أن أرضي الله عز وجل أولاً قبل إرضائي نفسي ... أنت مثلاً ... الكثيرات يتمنين الزواج بك ... شاب لا عيب فيه، مثقّف وناجح إدارياً .. ذو شخصية اجتماعية لا بأس بها .. أم .. ويمكن القول بأنك ستصبح ثرياً بعد مرور أقل من عام . إن أي فتاة تسعد بزواجك منها ... أما أنا .. فلا .. لأن اختياري يجب أن يقوم على أسس أخرى غير هذه .. أريد لي زوجاً مؤمناً بالله تعالى .. محباً لنبيه (ص) ... مصلياً صائماً ... ملتزماً بالحلال تاركاً للحرام ... إذا خرج من الدار لا أشك أنه ذهب يصلي في المسجد وليس كزوج (سها) كلما غاب عن الدار ابتلّت مآقيها من الدموع ... والمؤمن لا يظلم وإن تعسف وقسا قلبه عليّ فإنه سيلين إن خوّفته بعقاب الله له وإن أردت التفاهم معه أمكنني ذلك لأن الأسس بيننا مشتركة وسيرحمني ... علاوة على ذلك فإنه يحترمني وينظر إلي بإكبار ... لا يحتقرني لأني لا أجالس الرجال وأضاحكهم وأعرض عليهم مفاتني ... بل العكس يغير عليّ إن رأى شعرة من شعرات رأسي قد أفلتت عن سجن منديل رأسي ويطلب من يغضب حقيقي أن أخفيها لئلا أرتكب إثماً ... يعرف حدود الحرام فينجيني منه ويبعدني عنه وليس كالفاسق يدفعني إليه ... إنه يضمن لي آخرتي مع فرحتي معه في دنياي ... إن أنجبت أطفالاً سيفخر بي أمامهم ويدعوهم للاقتداء بي .. إن كنّ بنات؛ والإحسان إليّ إن كانوا أبناء ... إذا اختلفنا نختلف حول الجزئيات فالأساس واحد .. فينمو أطفالنا بشخصيات قويّة لم يزعزعها الخصام في الدار ... فيكونون قدوة لغيرهم ... متبوعين لا تابعين، صالحين دعاة إلى دين الله ... وأكون

مرتاحة الباب حينذاك أي أعيش في الجنة على الأرض أتأمل أن أدخل جنة السماء بإسعادي لزوجي المحب ... الذي لا ينظر لغيري من النساء نظرة سوء .. أكون بركة له في داره ويكون كذلك لي .. مثل هذا الملاك لن تهمني وسامته لأني سأعتاد عليها بمرور الزمن ولن أرى إلا جمال خلقه وكذلك هو ... إن اختارني زوجة لديني لن يهمه جمالي ...

عمّنا السكون نحن الثلاثة لدقائق رأيت فيها (لمى) وقد سرحت تفكر فيما قلته بينما ظل (سامي) يحدّق بي بغضب ثم تساءل:

– ولكن إذا تزوجت بشخص غير ملتزم دينياً يمكنك هدايته وبذلك تُثابين أكثر!

– لا .. هذا مَضيعةٌ للعمر ... ربما يهتدي وهو أمر نادر، لكن إذا لم يهتد فستحدث كارثة إذ ربما يجرّني معه إلى الضلالة ... ثم ... يا أخي أنا أريد أن أعيش لا أن أتناقش طوال حياتي ...

بتهكّم قال:

– نعم ... تريدين زوجاً مثالياً ... وأين ستجدينه .. تريدينه لا يتمتع بالنظر إلى سواك ... وإن فعل فسيقع في الحرام .. لذا سيتزوج ويتزوج بسهولة لأنه سيحقق لك ولها العدالة بسهولة .. و ...

قاطعته:

– سأتزوجه فقيراً لا يملك المال لئلا يتزوج بأكثر من واحدة ...

– وإذا كنت بركة عليه فأصبح ثرياً؟!

– لا أعلم .. لا تكن قاسياً عليّ هكذا!

– لماذا تتهربين من الحق!

فكرت قليلاً ثم أجبته:

– أظن أن من له أخلاقاً عالية لهذه الدرجة ويحمل لي في قلبه مودة ورحمة تأبى عليه نفسه أن يؤلمني هكذا!! خاصة إذا كان زواجه الثاني من دون سبب!!

– وإذا سمحت له نفسه!! إذا قال لك أنه أمر حلال ... أتمنعينه؟!

– انتظر لحظة ... وأين سيجد النساء المعجبات به لهذه الدرجة ليتزوجهن إن كان لا ينظر إليهن ... أنت تسير في الشارع وترى النساء المختلفات فيه أو في السوق مثلاً وليس معنى هذا أنك ستتزوجهن أجمع ...

– طيب .. من الأقارب مثلاً .. أليس لديك قريبات ... أو صديقات ..

– أنا ألتقي بصديقاتي وقريباتي في حجرة الضيوف الخاصة بالنساء ولا نختلط بالرجال في جلساتنا .. ما رأيك الآن؟

– هذا صحيح .. ولكن الأخريات قريبات جداً منك ... مثلاً ... ابنة أخيك أو ابنة أختك لا تستطيعين معاملتهن وكأنهن غريبات .. تستقبليهن في غرفة الضيوف .. أليس كذلك؟!

أطلقت تنهيدة راحة وقلت بانتصار:

– من هذه الناحية لا توجد مشكلة ...

– وكيف؟ هل سترضين بزواجه منهن فلا توجد مشكلة أم تظنين أن باستطاعتك أمرها برفض الزواج منه .. ها؟!

– كلا ... كلا .. الأمر ليس هكذا!

– إذن ماذا؟

– أنا لا أعرف إن كنت قد سمعت بالتشريع الإسلامي حول الزواج من ابنة أخ أو ابنة أخت الزوجة أم لا؟

– كلا .. ليست لدي فكرة ما حول هذا الموضوع ...

– إذن أنا سأخبرك .. إن رحمة الله عز وجل غلبت عدله، لذلك فإن الزوج لا يمكنه الزواج من ابنة الأخ أو ابنة أخت الزوجة إلا بإذنها .. أتعلم لماذا؟

– لماذا؟

– وذلك منعاً من تفكك العائلة وهدم سعادتها وحلول الكراهية بين الخالة أو العمة وبنت أختها أو أخيها .. وكيف تترابط العلاقات الأسرية إن كانت الزوجة تخشى قدوم ابنة أخيها أو أختها على زوجها ..

قطع الحوار صوت (أم أحمد) تنادينا للعشاء ... نهضنا سوية بعد أن وافقت (لمى) على التكتّم على زواج عمي .. رأيت (سامي) قد تملكّه الغضب فحمدت الله أنه فهم رأيي الحقيقي ولا يتصرف وكأني أغار عليه من (نادية) وأمثالها ...

* * *

ابتعد (سامي) عن ملاقاتي خلال الشهر المنصرم وأصبح يتحاشى رؤيتي أو زيارة جدّي ... وذلك بعد النقاش الأخير الذي دار بيننا ... ويبدو أنه طلب من عمتي عدم دعوتي لتناول العشاء معهم عندما يكون موجوداً على مائدة الطعام كالسابق وربما يكون سبباً آخر وراء تصرفها هذا فلم تعد تدعوني حتى وقت الغداء ولعل يأسها من ثروة (حسن) هو الذي أعاد البرود إلى علاقتها بي ثانية .. وخلال هذا الشهر، قطعت (لمى) علاقتها بـ(نادية) تماماً، مما جعل عمي يتساءل عن السبب، إلا أنها لم تبال بشرح الأمر له، وأصبح البرود بينهما مشهوداً ولم يعرف عمي سبباً له ... واستمرت (سها) وزوجها بمشاكلها كالعادة وخضعت زوجة (سمير) لعملية جرف الرحم للقضاء على الجنين دفعت الكثير دون علم زوجها لإجرائها مما زاد في اشتعال الشجار بينهما ... وهي لا تزال الآن ترقد في المستشفى وقد ذهب الجميع لزيارتها والاطمئنان عليها سواي ... فأنا في قرارة نفسي أراها أجرمت في حق ابنها ونفسها ولا أستطيع أن أتملّقها وأزورها كمريضة متمنية لها الشفاء!!

ابتدأ اليوم الدوام في الكلية بعد هذا الشهر، واستغليت انعزالي من جديد عن بيت عمي أحسن استغلال للدراسة ... وقللت من زيارتي لجدّي وقصّرت فترات جلوسي عنده فوقتي لا يسمح لي بذلك ... أخرج في الصباح الباكر لألحق بالسيارات الذاهبة إلى الجامعة ولا أعود إلا عند العصر، أتناول طعام الغداء الذي هو عبارة عن ساندويتش خفيف ثم أصلّي في الكلية ... الواقع أن هذه المرحلة من الدراسة ممتعة جداً حيث ألتقي خلالها بصديقاتي اللواتي أحبهن ويحببني في فترات الاستراحة بين الدروس أو الدروس الشاغرة حيث تتزوّد الواحدة من الأخرى بمختلف المعلومات الدينية والدراسية ...

وفي هذا العام زادت صعوبة المواد الدراسية عما سبق، وكل أستاذ يشرح ورقة واحدة من الكتاب المقرر ثم يطرح حولها من (30 –40) سؤالاً علينا التدرب عليها لأجل الامتحان ... ولم تكن هذه بمشكلة فأنا وصديقاتي نقتسم حل الأسئلة – وكنا أربعة – تحل كل واحدة منا عشرة أسئلة فقط ... نتبادل بعدها الحلول البقية وبذلك حققنا مستوى دراسياً عالياً في الفصل الأول ... تفوقنا هذا نحن المحجبات في الصف أثار حفيظة طلبة الاتحاد ولم يهدؤوا حتى جعلوا أستاذ إحدى المواد الأكثر صعوبة – وهو متعاون معهم بشكل مفضوح – يكثر من طرح الأسئلة من جهة ومن جهة أخرى يريد الحلول سريعة في اليوم التالي وتسلم له في مكتبه وإلا فالفشل حليف الطالب ... وكان هو يزود

أفراد الاتحاد بالحلول الجاهزة ليبرزوا في المحاضرة ... والمشكلة أنني وصديقاتي سنتخلف عن الركب إذ لكل منا سرعتها ولا نستطيع، بل هو أقرب للمستحيل حل كل هذه الأسئلة وحدنا بدون مساعدة من سبقونا في الصفوف الدراسية ... اللهم إلا إذا سهرنا طوال الليل كل على حدة وتركنا مذاكرة بقية المواد الدراسية التي لا تقل صعوبة عنها ... اجتمعنا نحن الأربعة في الساحة المقابلة للنادي نتباحث حول المشكلة التي حلّت بنا ... وفي النهاية اقترحت صديقتي (نبوغ) أن نبقى في مكتبة الجامعة حتى وقت إغلاقها ونقتسم حلّ الأسئلة فيما بيننا ونتبادلها في الحين فتكون في الغد جاهزة للتقديم إلى الأستاذ ... فرحت الأخوات الباقيات بهذه الفكرة لأننا بواسطتها سنخيّب خطة طلبة الاتحاد المشاكسين ...

وجمت ولم أبد ترحيباً للفكرة فسألتني (نبوغ):

– ما المشكلة يا (سامية)! أراك مكتئبة ... لماذا السكوت .. تعرفين أن كلاً منا تعود يومياً بعد انتهاء الحصص مباشرة ويستغرق هذا الأمر منا في حدود الساعتين نقضيهما في المواصلات، وفي البيت إن لم نتبادل الحديث مع الأهل وصلّينا وتعشينا تنقضي ساعات ثلاث قبل أن نبدأ في حل المسائل المطلوبة ... بينما يمكننا استغلال الساعات الثلاث هنا في حل المسائل ... وعند الرجوع تخف زحمة المواصلات وستتقلص الساعتان إلى نصف ساعة فقط وطريق العودة ... يجب أن نبقى هنا ونحل المشكلة وبذلك تفشل خطة هؤلاء الطلبة .. ها ماذا قلت؟

لم أحاول الاعتراض، لأن أعذاري لن تقبل لديهنّ، فهن لا يعلمن أي شيء عن وضعي الجديد في بيت العم، لذا سكتّ وأطعت ودعوت الله أن تمرّ هذه الأزمة بسلام ... وأبعدت عن تفكيري كل ما يزعج سوى حلّ الأسئلة وهكذا فعلت وبأقصى سرعة ممكنة ...

عندما عدت إلى البيت بعد جهد وتعب كبيرين، استقبلتني عمتي وهي تصرخ وتولول في وجهي مثل أول مرّة خاصمتني فيها، ومن خلفها (سامي) و (سمير) ينظران شزراً، أما (سها) فكانت تكيل لي نظرات الاشمئزاز والاحتقار بلا رحمة ... قلت قبل أن يسألوني:

– ما الأمر؟ ماذا حصل ... لقد تأخرت مع زميلاتي في مكتبة الجامعة ويمكنكم الاتصال صباح الغد بمديرة المكتبة للتأكّد منها فهي تعرفني وزميلاتي جيداً، وقد أخّرت إغلاق المكتبة هذه الليلة خصّيصاً لأجلنا نصف ساعة كاملة ... أو .. أو اتصلوا بصديقتي (نبوغ) ... وهاهو ذا رقم هاتفها لتطمئنوا أكثر .. ثم لا ينبغي لكم التصرّف معي هكذا فأنا لست بطفلة والمفروض أن تكونوا قد عرفتم أخلاقي في الأشهر الماضية التي قضيتها معكم ... وأنا آسفة لأني تأخّرت إلا أن الأمر ليس بيدي .. اضطررت للبقاء هناك ...

قلت هذا وجلست على الأريكة وكتبت لهم رقم الهاتف وناولته لـ(سمير) لأنه كان أقرب الموجودين إلي قائلة:

– إن لي مشاكل تستوجب بقائي لهذا الوقت في الكلية ومن المحتمل أن تستمر هذه الحالة كثيراً، فأرجو ألا تقلقوا عليّ ...

قاطعني (سمير):

– إن لنا عيناً في الجامعة وقد أخبرنا أنك لم تكوني موجودة في الجامعة منذ أكثر من ساعة ...

– إما أن يكون عينك هذا كاذباً أو إنه لم يبحث عني في المكتبة ولا تظن أن هذا الأمر يسوءني، بل العكس إنه يُفرحني .. إذ ليس لدي ما أخشى افتضاحه سواء لكم أو لعامة الناس ...

نهضت دون أن أهتم لسماع جوابه أريد الذهاب لغرفتي ... فإذا بعمتي تبدأ بالزعيق والصراخ وبإلقاء سيل من التهم والكلام البذيء جعلني أفقد السيطرة على أعصابي فتوقفت لحظة أتهيأ للرد عليها، وإذا بـ(سامي) يصفعني قبل أن أفتح فمي بقوّة لم أتوقعها .. اختل توازني على إثرها فارتميت على الأريكة .. شعرت بالإهانة لدرجة طفرت الدموع معها من عيني وأحسست بألم في نفسي عظيم .. رفعت رأسي وجدت (سمير) يمسك بـ(سامي) لئلا يعاود ضربي ...

يبدو أنه فقد عقله لذا انتهزت الفرصة وأسرعت بالهروب إلى غرفتي وأغلقت بابها بالمزلاج جيداً .. أمسكت بخدي الملتهب حرارة من شدة الضربة وكأنها خدرته .. جلست على سريري واجمة أفكر، ماذا أفعل يا إلهي ولماذا هذا الـ(سامي) عنيف معي إلى هذه الدرجة .. تذكّرت .. ربما لأني خيّبت ظنّه بي عندما فهم رأيي بالزواج .. أو ... ربما..

في هذه اللحظة تناهى إلى سمعي صوت عمتي تقول:

– ضربة واحدة فقط؟! أتذكر .. أتذكر عندما تأخّرت (سها) عن وقت عودتها من المدرسة، أتذكر كيف ضربتها بعنف ووحشية .. ماذا جرى الآن؟...

وساعدتها (سها) في الزعيق:

– وأنا المسكينة لم أتأخر سوى ساعة واحدة عن موعدي .. أما حضرتها ... فانظر الساعة إنّها تشارف على التاسعة مساءً وهي تجلس في أمان ... أي نوع بارد من الأزواج أنت؟

– إنّها ليست زوجتي .. ألا تفهمين!!

– حسناً .. ليست زوجتك ... لكنها ابنة عمك على أية حال ... يجب أن تؤدبها ..

قاطعها (سمير):

– دعك من (سامي) ولا تثيريه أكثر ... إنها فتاة مؤدبة شريفة وهي تختلف عن باقي الفتيات وكلنا نعلم ذلك ... وهي محقّة فيما قالته عن المكتبة فأنا عندما ذهبت أبحث عنها .. لم أفتش في المكتبة ولم يخطر ببالي أنها تدرس هناك .. ويمكننا التأكد من هذا الهاتف الذي أعطتنا رقمه، ساد الهدوء وسمعته يتكلم بصوت خفيض لم أميّزه ... ربما كان يتصل بالهاتف .. بعدها قال لهم بصوت عال:

– ألم أقل لكم أنها فتاة طيبة ... و ..

الظاهر أنهم اكتشفوا صحّة كلامي، حمدت الله وقلت أن هذا ابتلاء هين وسهل .. ثم سمعت صوت خطوات تدنو من غرفتي ثم طرقات على بابي عرفته أنه (سامي) حيث قال بعصبية لا مبرر لها:

– افتحي ... افتحي يا (سامية) ...

ببرود أجبته:

– ماذا تريد ... ألم تكتف بصفعي ... أتود تكميل تعذيبي ...

– افتحي قلت لك وإلا ...

– افعل ما تشاء فلن أفتحه ... إن أردت إخباري بشيء فقل من خلف الباب ...

سمعته يحاول بقوته فتح الباب فخفت أن يكسره ويحدث ما لا تحمد عقباه، فقررت الالتجاء إلى جدّي، هربت من باب الحديقة إليه وأنا ألهث من الركض ولحسن الحظ كانت أنواره مضاءة، ففتح لي (أبو خضر) ودلفت مسرعة إلى داخل الدار ورميت بنفسي عند ركبتي جدّي الجالس على أريكته ورأيت نفسي أبكي فهدأني جدّي وسألني عن السبب فشرحت له ما جرى ولم أكمل سرد الوقائع حتى رأيت (سامي) يقف في مواجهة جدّي، فزعت كثيراً واختبأت خلف كرسي جدّي همّ (سامي) بالتقدم نحوي فأخفيت رأسي كالنعامة بين ذراع جدّي وصدره بحيث لا أراه .. سمعت جدّي ينهره ويأمره بالجلوس فلم يرتدع بل قال:

– أتعرف ما فعلت هذه المزعجة ..

– أعرف ما فعلت، واجلس كما أمرتك .. لماذا لا تجلس؟!

بعد برهة خاطبني جدّي:

– أخرجي رأسك أيتها القطة الصغيرة ... هيا ... قومي واجلسي إلى جواري وكفاك بكاءً ...

أطعته، ثم سأل عما حدث فأخبره بذلك وأخبره أيضاً أن أهل صديقتي (نبوغ) أكّدوا صحة كلامي ...

– إذن مم أنت مستاء؟!

– طلبت منها أن تفتح لي الباب فرفضت يا جدّي .. بل وأهانتني بكلامها الجارح .. جئت أعتذر إليها .. فإذا بها تهينني ...

حدّق جدّي بي بغضب .. وهذه هي أول مرة يغضب فيها مني وصاح بي:

– لماذا قلة الأدب يا بنت؟! هل هذه تربية ذويك لك .. أنت الفتاة المؤمنة التي أفخر بها ... عليك أن تتحلّي بالأخلاق الحميدة وليس العكس ...

– اسأله يا جدّي بماذا أهنته .. وماذا قلت له ...

ورغم أنني أخبرته ماذا فعل وكيفية اعتذاره العنيف ... إلا أنه أصر على أن أعتذر إليه في كل الأحوال ...

فقلت له بعد تلكؤ، أفكر في كرامتي المهدورة بين جدّي وحفيده .. وأفكر في أن الصبر على الابتلاء هو الحلّ الوحيد:

– أنا آسفة يا (سامي) على ما قلته لك ..

– هذه واحدة لا بأس عليك فيها ... والأخرى لماذا لم تتصلي هاتفياً بنا تخبرينا أنك ستتأخرين! ها! لماذا اخترعوا الهاتف إذن؟ أتحبين أن تتصرفي وكأنك فتى لا خطر عليه إن تأخر في المساء؟! أجيبي كيف وصلت البيت في هذا الوقت المتأخر؟

– لم أستطع الاتصال خوفاً .. أقصد ... لا يوجد هاتف هناك في المكتبة ...

فهم (سامي) أني أردت القول خوفاً من افتضاح قضيتي فأنا لا أملك هاتفاً في بيت أهلي ... والواقع أنه لم يوجد هاتف في المكتبة، ثم أكملت:

– أما طريق العودة فكان آمناً .. لأني عدت في باص الركاب العمومي فهو آمن لي ...

– كلامك هراء كله .. أنت تتنصّلين من العرف والتقاليد ..

قال جدّي:

– هدئ من روعك يا (سامي) ...

وأمر (أبا خضر) بإحضار عصير الليمون لنا، لم أستطع أن تناوله لأني مُتعبة نفسياً .. وزاد في ذلك أن جدّي طلب مني ألا أعود للتأخّر ثانية!!

– لا أستطيع يا جدّي، إن مستقبلي لهذا العام يتوقّف على الدراسة في المكتبة في هذه الفترة، ولذا قد أتأخّر للأيام المقبلة أيضاً!!

ثم أخبرتهم القصة بكاملها .. فقال جدّي:

– بغض النظر عن مشاكلك الجامعية نحن أناس محافظون، ولا يمكنك العودة ليلاً، فعليك أن تفكري بحل لمشكلتك ..

– حلّها أنت يا جدّي ..

– لماذا لا تتركين الجامعة؟!

شهقت وأنا أجيبه:

– مستحيل يا جدّي ... أرجوك لا تكرر هذه الكلمة ثانية.

ابتسم (سامي) في انتصار وبتشف قال:

– نِعم الرأي يا جدّي .. للمرأة ذووها ودارها فلم التعب والإزعاج ...

قلت:

– جدّي لا تسمع له أرجوك .. لا تكن ضدي أنت الآخر .. ألا يكفي أن كل من في هذا البيت يكرهونني ولا أليف لي فيهم سواك ... وأنت أيضاً .

ولم أستطع أن أكمل فقد شرقت بدموعي وأخفيت وجهي وأنا أبكي بحرقة ...

الحقيقة أنني ببكائي أردت أن أستميل قبل جدّي لي فإذا بـ(سامي) يقول بلين:

– حسناً ... لماذا لا تحلّ كل منكن المسائل في بيتها وتبادلنها هاتفياً ...

من بين دموعي أجبته:

– إن (نبوغ) فقط تملك هاتفاً .. أما البقية .. فلا ... وهي صديقات قديمات، لا يمكن أن نتركهن في وقت الشدة ...

تمالكت نفسي جيداً وقلت:

– ألا تلاحظون أن ذوي صديقاتي يطمئنون لهن ولتصرفاتهن على عكس ما تفعلونه معي .. حتى .. حتى إن (سمير) يتجسس عليّ كما قال هذا المساء ...

قال جدّي:

– الحق معك ... أنا لا أرضى بعمل (سمير) هذا ورغم وثوقي بك التام، إلا أني أخاف عليك في الدرجة الأولى .. اسمع يا (سامي)، لماذا لا تساعدها في دروسها ... أنتما في تخصّص واحد كما أعلم!

– أوه .. لا أحب ذلك .. ثم إن حلّ (40 – 50) مسألة في ليلة واحدة أمر مقرف ومتعب للغاية .. وأنا أعرف أستاذهم هذا ومدى قسوته .. سيطلب منهم ذلك يومياً تقريباً .. ولا أريد أن أعود إلى أيام الدراسة ..

– إذن ما العمل؟

– كما قلت أنت، فلتترك جامعتها ...

إلى الدم في عروقي وفكّرت أن أهدده قليلاً فقلت:

– أنا لدي فكرة أفضل من ترك الجامعة ..

– وما هي؟

– أن أعود إلى دار أبي، لحين إكمال (سامي) مشروع بناء الفيلا ...

قال جدّي:

– هذا مستحيل لماذا تعودين إلى بيت أبيك؟

– جميع الأمور هناك أفضل ... الجميع هناك يثقون بي ويحترمونني ويعاملونني كإنسانة ... ولا أحد يهينني أو يضربني ...

فهم (سامي) ما أرمي إليه فهبّ واقفاً وبفزع قال:

– هيا ... هيا قومي معي .. لقد أزعجنا جدّي بما فيه الكفاية .. لنتحدث سويّة في هذه المشكلة بعيداً عن هنا .. وسأحلّها لك بالتأكيد ..

قلت:

– لا أعتقد أن لديك حلاً أفضل مما طرحته على جدّي قبل لحظات، وعلى أية حال فأنا أريد الانفراد بجدّي لأخبره ببعض الحقائق ..

لم ينتظر سمي ردّ جدّي عليّ بل نهض وسحبني بقوة من ساعدي إلى الخارج أمامه .. وقبل أن يغلق الباب خلفه قال لجدّي:

– لا تهتم بما قالته يا جدّي سأحلّ هذه المشكلة ... تصبح على خير ...

أفلتّ ساعدي من يده بصعوبة عندما كان يغلق الباب، ووقفت غير قريبة منه .. قائلة:
– لا شأن لك بي ولا أريد أن أُنصت لما تقول .. إذا ظننت أنني سأضحي بمستقبلي من أجلك فأنت مخطئ ..
– اصمتي الآن ... هيا نجلس في الحديقة ولنناقش الموضوع بهدوء أكثر ...
سار (سامي) أمامي وتباطأت في المشي خلفه لإحساسي بعقم النقاش معه وفشله ... حتى وصلت إلى الكراسي البيضاء وسبقني بالجلوس هناك بكل هدوء، عجبت في نفسي لبرودة أعصابه الآن، فجلست أنتظر ما سيقوله:
– ماذا كنت تريدين إخبار جدّي! باتفاقنا؟!
– نعم .. هذا صحيح .. لقد مللت من الحياة هنا وسئمتها ولم أعد أطيق رؤية أي واحد أو واحدة منكم .. أريد العودة بأسرع ما يمكن إلى بيت أبي ..
– والاتفاق الذي عقدناه معاً!!؟
– اعتبره مفسوخاً .. لاغياً ...
– لكنك رضيت به .. عندما أخبرتك أنك لن تجدي الراحة هنا! ثم .. ثم الآن إذا أردت الطلاق مني ... فستخسرين مادياً ولن تحصلي على أي قرش ... كل ثروتك الموعودة ستؤول إلي ... هل فكرت في الموضوع؟!!
– الأمر سيان بالنسبة لي .. فأنا في كلا الحالتين لن أحصل على المال .. وإن آلت إليك الثروة فسأفرح لك لأن ثروتك ستزداد!
– ليس هذا ما قصدته وأنت تفهمين هذا فلا تتغابي .. إن والدك لن يستطيع أن يسدد قيمة الرهن .. وستضيعون جميعاً ...
أطرقت أفكر بأبي المسكين الذي وصلت به الحالة إلى أن يتنازل عن كبريائه ويرضى بل يحثه على الزواج مني ... انتبهت إلى أن (سامي) قد ارتاح فهو مسَّ الوتر الحساس فيَّ .. فكرت، يجب أن أتجاهل ما قال عسى ولعل أن يصدق تهديدي فيتراجع عن موقفه ويحاول مساعدتي للخروج من هذه المشكلة .. قلت:
– لم يعد يهمني شيء .. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. إني مشكلة أبي هو نوع من الابتلاء له، عليه أن يتحمله ويصبر عليه .. اعتقدت أني سأتحمل الصعاب هنا .. وإلى الآن كنت راضية بما حصل ولكن الأمور أخذت تسوء يوماً بعد آخر .. ها أنت اليوم تصفعني وغداً ربما ستركلني لسبب أو للاسبب .. لقد أزعجك رأيي في الزواج من إنسان مؤمن يحترمني فصببت جامّ غضبك عليّ ... والآن أتلومني لأني أفكر في سعادتي .. في إنسان يثق بي ليس مثلك ...
– كلا .. كلا .. أنا لا ألومك إطلاقاً .. أنت محقة فيما قلتِه .. آسف لأني صفعتك .. لقد خرجت عن طوري .. لكني الآن أفكر بك أنت وليس بنفسي ..
قالها بحرارة جعلتني أصدقه، فقلت متسائلة:
– وكيف؟
– إذا فقد والدك ما يملكه، فكيف ستعيشون أنت و(حسن) و ... أمك؟
فكرت قليلاً أنه يجب عليّ إقناعه بإمكانية حصول ما سأقوله:
– بالنسبة لي فلا توجد مشكلة ما وكذلك (حسن)، فمرتبنا الجامعي يكفي كلاً منا بل ويزيد .. وأمي سترحب أختها العجوز الوحيدة بها لحاجتها لمن يرعاها .. وسأساعد أنا و(حسن) أبي ... بـ...
– بماذا؟ بمرتبك الضئيل هذا، وألا يهمك تشتت الأسرة إذاً؟!
أطرقت قليلاً وبحياء قلت:
– ربما ... ربما سأتزوج من أحد ما، وأضمّ أمي إليّ وسأمنح أبي راتبي لحين تخرجي فأساعده بشكل أفضل ...

أطرق وخفض رأسه ولم أتبيّن ملامح وجهه فقد جلس مخالفاً للضوء ... أشعل سيجارة وراح يفكر .. ثم ببرود مفتعل قال:

– هل .. هل هنالك شخص معين تريدين ال– ... الزواج منه في نهاية هذا العام؟

لاحظت ارتجاف أصابعه الممسكة بالسيجارة .. أدركت أنه يخفي انفعاله لئلا أشمت به فقلت أغيظه:

– وما شأنك أنت؟!

– ألا يحق لي أن أعلم ولو من باب الفضول؟!

أردت أن أبتسم لكني لم أفعل فقلت:

– حسناً .. بالطبع لا يوجد شخص ما أود الزواج منه الآن ... لكنني أتوقع أن يتقدم لخطبتي أحد ما في المستقبل ...

وبحسرة أجاب:

– وكيف لا؟ كـ(منير) مثلاً الذي يتمنى ذلك اليوم قبل الغد .. على كل حال ...

وصمت، وطال سكوته وهو ينظر إليّ وإلى سيجارته المنتهية بين أصابعه في حيرة مللت جداً . فلاحظ هو ذلك وأكمل أخيراً:

– أنا لن أدعك تخبرين جدّي الحقيقة، فلربما غضب مني وحرمني كل شيء ولا أستطيع المغامرة بذلك .. وحتى إن أخبرته فلن يصدقك وأنت الخاسرة، لأني سأذكّره أنك الرافضة لي جملة وتفصيلاً وقد رآك كيف تهربين مني، ولا تدعيني حتى أن ألمسك .. ولأثبت صدقي أمامه فإني لن ... أطلّقك أبداً . هل نسيت أنك رسمياً زوجتي، ولا توجد قوّة في العالم تقدر على تخليصك مني ...

صعقت لكلامه، فقلت:

– ماذا تقول؟ بل ستطلّقني .. فأنا سأفضح له كذب بنائك الفيلا لتأجيل الزواج وما هي إلا حجة واهية ... إذ لا يوجد هناك أي بيت للبناء...

أطفأ سيجارته المنتهية بعصبية وأشعل أخرى محاولاً ضبط أعصابه قال بجد بعد أن نفث عدة نفثات من سيجارته الجديدة:

– إذا فتحت فمك بكلمة واحدة لجدي، سأضطر إلى أن .. أتزوجك ولو رغماً عنك زواجاً علنياً .. وهذا لن يكون في صالحك، لأنك أيضاً لا تريدين الزواج مني بل من شيخ جامع الأزهر!! أو مفتي الديار الإسلامية!! وإذا اضطررت إلى الزواج العلني فلا تتوقعي مني أن أطلقك لتتزوجي من غيري .. هذا .. حتى بعد وفاة جدّي نفسه .. ولسوف أتزوج ممن أريد وتبقين أنت معلّقة .. أفهمت ما ينتظرك إن تفوّهت بحرف واحد...

– والحل إذن؟!

– الحل الوحيد لك هو بقاؤك على كتمان السر ...

أدهشني كلامه فلم أتوقع أبداً أن يتنازل ليقبل بي كزوجة ولو بالإكراه، التفتُّ إليه فرأيته وقد بدأ الغضب يستولي عليه لتوقّعه رفضي لحلّه، فقلت بعد تفكير:

– حسناً .. ولندع هذا الموضوع جانباً الآن، افهمني أرجوك .. أنا لا أريد الإساءة إليك ولا إلى نفسي أو لأي من أفراد العائلتين .. أنا أريد حل مشكلة الرجوع ليلاً فقط .. هل نسيت ... أرجوك لا تعقّد الأمر أكثر من ذلك ..

بيأس واضح قال:

– حسناً .. وماذا عليّ أن أفعل؟ أنا لا أوافق على عودتك ليلاً، وأنت لا ترضين بترك الجامعة ... انتظري ... الأفضل أن تتصلي بـ(حسن) في قسمه الداخلي ... إنه أقرب إليك مني .. وسيحضر إليك فوراً..

– نعم .. نعم .. هذه فكرة جيدة ... لماذا لم أفكر بها من قبل .. شكراً جزيلاً، استدرت أريد الذهاب لكني رأيته يشعل لفافة ثالثة فقلت له:

– بالمناسبة لماذا أراك تكثر من التدخين .. إنه مضر للصحة ... ألا تعلم ذلك؟

– دعيني وحالي .. فأنا أسلّي نفسي به لأنسى آلامي وأحزاني ...

– أرجو من الله أن يخلّصك من الآلام والأحزان مثلما تخلّصتُ من هذه المشكلة ...

– لا .. لا تدعي لي بذلك!

– لماذا؟ أمرك عجيب!! تكره أن يخلّصك الله من آلامك!!

– لأنك .. لأنك السبب فيها!

– ماذا؟! أنا .. آه ... فهمت ما عنيت .. لولاي لاستطعت الزواج من (نادية) وسواها .. وإذا تخلصت مني ستُحل مشاكلك ...

– كلا ... أنا لا أريد الخلاص منك ... ولا أريد (نادية) أو غيرها زوجة أريدك .. إنك لا تفهميني .. أو ربما تتصنّعين ذلك ... لماذا أنت واقفة هكذا؟! لم لا تعودين إلى غرفتك وتدعينني وشأني؟؟

– حسناً ... حسناً .. تصبح على خير ...

قلت في نفسي الحمد لله اللهم لك الحمد لقد قدّرت ولطفت ... اتصلت بـ(حسن) واتفقنا أن يحضرني عند العودة وهكذا حدث لمدة أيام ثلاثة .. وفي اليوم الرابع ضج الطلبة الباقون محتجين أمام العمادة ضد الأستاذ لأنهم فهموا لعبة طلبة الاتحاد ومحاولة تفوقهم على الجميع بالقوة، فتدخل العميد بنفسه وحل المشكلة وأرجع الوضع إلى ما كان عليه سابقاً فانتصرنا عليهم بفضل الله وبمعونته .

* * *

- 11 -

مساء اليوم الخامس، جاء (حسن) إلى المكتبة حسب الموعد، جلسنا في حديقة الجامعة نتناول الساندويتشات التي أحضرها (حسن) معه، قلت له:

– لقد حُلّت مشكلة الأستاذ والأسئلة تماماً، اعترض الطلبة لدى العمادة فاستجابوا لهم ... وانتظرتك اليوم بعد أن أتممت موادي الدراسية لأخبرك بذلك .

– الحمد لله، هيا بنا أعود بك إلى البيت ونتحدث قليلاً .

– حسناً .

– كيف حالك في بيت عمي، أما زالوا يضايقونك؟!

– الحمد لله ... أنا في أحسن حال لو ترك (سامي) عصبيته وتركت عمتي أسلوبها في إثارته ضدي ... أتعرف يا (حسن) ... أعتقد أن (سامي) إنسان طيب ومستقيم بالفطرة .. فهو لا يقرب الخمر ولا يسهر خارج البيت لا ولا حتى للسينما ... أحياناً أشعر أنه يحبّ التديّن لكن كبرياءه يمنعه من ذلك أو من الاعتراف بذلك أمامي ... إنه لا يتقبل أفكاري في الظاهر ... لكنه في كثير من الأحيان يطبقها ... أعتقد أنك ... لو ... حدثته بأسلوبك الشيق كما في المرة السابقة ... فربما استطعت أن تغير من أفكاره وتهديه ... لقد استحسن آراءك كثيراً في تلك الزيارة السابقة ... ها! ما رأيك؟ لم لا تأتي لزيارتي وفي نفس الوقت تلتقي به ..

– فكرة لا بأس بها ... سأحضر إن شاء الله في الأمسيات القادمة، وإذا رأيت منه استجابة فسأعرّفه على أصدقائي وأغلبهم من الطبقة المثقّفة وكثير منهم لامعون ... وكذلك ستسنح لي الفرصة لزيارة جدّي الحبيب ...

ووفى (حسن) بوعده في مساء الغد ... وأحسست بعد ذهابه أن زيارته كانت موفّقة ... ويمكن تسميتها أنها زيارة لإعادة العلاقات فيما بينهما ... ولـ(حسن) تأثير سحري على الموجودين في البيت فهو يتحدث مع الجميع كل بما يهمه فقد تحدث إلى عمتي بأمور تهمها، وأهدى (لمى) كتاباً عن الحجاب وسألها أن تقرأه وتخبره رأيها فيه، وتحدث إلى (سامي) و(سمير) بأمور تخص الهندسة المعمارية والبناء، وهو أمر يلذّ لهما الحديث عنه، وعندما يتحدث المرء إليه لا يقاطعه أبداً ويصغي إليه في انتباه وهدوء، ولم يطرح أموراً دينية ولم يتحدث عنها، فهو لا يعتقد أن الدعوة للإسلام، هم ثقيل يجب التخلص منه بأسرع وقت ممكن، بل هو يعيشها وإذا فسح المجال وبشكل مناسب تحدث بما يُرضي الله، لذا استلطفه (سامي) ودعاه لزيارته في محل عمله ليريه بعض المشاريع التي أنجزها ... ولم ينس (حسن) زيارة جدّي لتوطيد علاقته به ...

عادت أخلاق عمتي و (لمى) دمثة وصارت تدعوني للعشاء معهم مرة أخرى وصرت أجلس في البهو مع البقية أذاكر دروسي بينما تحوك (لمى) أو تطرز شيئاً ما، ولم تعد عمتي تخجل من تواجدي أمام الضيوف!!

كل ذلك بسبب زيارات (حسن) التي تكررت وتقبل الجميع له حتى أن عمتي دعته إلى تناول العشاء معنا في زيارته القادمة، رحب (حسن) بدعوتها وأحضر معه الكثير من الفاكهة والحلوى عندما قدم للعشاء ...

لاحظت أن (سامي) و (سمير) يكنّان له احتراماً خاصاً فأخبرته بذلك، فرح كثيراً وأحضر معه بعض كتيبات تحوي على أسئلة لشبهات حول الدين مع ردودها ... تعمد نسيانها على الأريكة ... بعد ذهابه شاهدت (سامي) يتصفحها بشغف بينما لم يهتم (سمير) بها ...

في المرة التالية حدد (حسن) موضوع حواره معه حول الكتيب الذي نسيه ... ورأيتهما يندمجان في الحديث معاً..
قال (حسن):
– لاحظت أن بعض المتفلسفين يقولون أن لا ضرورة للصلاة ... ويكفي المرء أن يتأمل الأشياء وخلقها ويعتبر بها فهي أفضل، ترى ما رأيك أنت؟
تنحنح (سامي) قبل أن يقول:
– الواقع ليس هناك من ينكر الضرورة للصلاة أو الدعاء ... فالمرء تمرّ به الأزمات والمشاكل وكثيراً من الصعوبات التي يكون فيها أحوج ما يكون إلى الصلاة والإحساس بجبروت الله تعالى وهيمنته على الكائنات، حينئذ، تضمحل مشاكله وأزماته لأنه يشعر ويتيقّن أنه يدعو من هو أقوى وأعظم من البشر، مع خالق البشر، والقادر على حل مشاكله ... ولا أظن أن مثل هذه الفلسفة الماكرة تنطلي على الناس فالتأمل غير الدعاء، وغير محدد بوقت أو شروط ... أنت باستطاعتك أن تتأمل كل ما خلق الله سبحانه وتعالى في الطبيعة دون أن تحتاج إلى التطهر في ملابسك وجسمك أو إلى الوضوء، ودون التقيد بزمن أو مكان ما كالمسجد ... ولا تحس ذلك الارتباط الوثيق بينك وبين الله ...
أكمل (سمير):
– كلام (سامي) صحيح، فنحن نتأمّل الزهور ونعجب لخلقها ونقول (الله) استحساناً لجمالها، لكن في الصلاة نقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ..
(سامي):
– كلنا يقرأ الآية: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فالصلاة بحد ذاتها كعمل، ينقي ويطهر النفس عن الفحشاء والمنكر، وهي ذكر أيضاً لله عز وجل ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب.
(حسن):
– ما تفضلتما به صحيح، ولولا الصلاة لهدم الدين فالصلاة " عمود الدين، إن قبلت، قبل ما سواها، وإن ردت رد ما سواها " وآخر ما يبقى بعد الموت، الصلاة، وأوّل ما يحاسب العبد به يوم القيامة الصلاة، فمن أجاب فقد سهل عليه ما بعده، ومن لم يُجب فقد اشتد عليه ما بعده، لذا نرى أن الخيط الفاصل بين الكفر والإيمان هو المواضبة على الصلاة فقد قال (ص): " بين العبد والكفر ترك الصلاة " ... وللصلاة آثار إيجابية عملية في الحياة الدنيا قبل الآخرة، فترى المصلي طيب الرائحة، صبوح الوجه، أليف الصحبة، طاهر البدن والملبس، تحس به صبوراً، مرتاحاً، شاكراً لله تعالى ... وهو مصداق لقوله تعالى﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ ..
وهنا استفسر (سامي) باهتمام:
– لماذا تُعقد صلاة الجماعة؟ لماذا لا يصلي كل في محلّه أو بيته؟
(حسن):
– الإسلام دين الألفة والمعاشرة والمحبة، لا يريد الانطواء لأفراده أو العزلة فيما بينهم، " رحماء بينهم "، أتعرف يا (سامي)، لو أننا حافظنا على صلاة الجماعة في المسجد، لعمّ التعاون فيما بين الجميع، ولما بقي جار ببيت جائعاً لا تعلم عنه شيئاً ... ولعمّت البركة المصلين، أعرف مجموعة من الشباب المصلين، خصصوا صندوقاً لجمع التبرعات وضعوه في المسجد وذلك لإعالة خمسة عوائل فقيرة ... علاوة على ذلك فصلاة الجماعة تدعو إلى المساواة بين الغني والفقير، السياسي والمضمحلّ ... أذكر أني قرأت ذات مرة عن شاب أجنبي، جاء سائحاً إلى تركيا ودخل أحد مساجدها ظناً منه أنه أثري، ففوجئ بجماهير المصلين تركع وتسجد في تناسق وتناغم جميل، لا فرق بين الأغنياء والفقراء أو الملوّنين وغيرهم فإثر ذلك أعلن إسلامه ...

سأل (سمير):

– ما رأيك لو كنت مسيحياً ولست مسلماً؟

أجابه (حسن):

– أوه الحمد لله أني خُلقت مسلماً وله الشكر على ذلك ..

ضحك (سامي) ولاحظ قائلاً:

– إنك كثير الشكر يا (حسن) ...

بتعجّب أجابه (حسن):

– أنا!! أنا كثير الشكر... كلا ... كلا .. إذا أردت أن تعرف من هو كثير الشكر فاسمع هذه القصة اللطيفة..

(سامي) و (سمير):

– تفضل ... اروها لنا ..

– يُقال: سأل داوود النبي، الله عز وجل عن قرينه في الجنة، فأوحى الله إليه أنه: (متّى أبو يونس) فجاء مع سليمان لزيارته، فرأياه إذ أقبل وعلى رأسه وقر من حطب ... فباعه واشترى طعاماً، ثم طحنه، وعجنه وخبزه، فأخذ لقمة وقال: بسم الله، فلما ازدردها قال: الحمد لله، ثم فعل ذلك بأخرى وأخرى، ثم شرب الماء فذكر اسم الله فلما وضعه، قال: الحمد لله، يا رب، من ذا الذي أنعمت عليه وأوليته مثل ما أوليتني، قد صححت بصري وسمعي وبدني وقوّيتني حتى ذهبت إلى شجر لم أغرسه، ولم أهتم لحفظه، جعلته لي رزقاً وسقت إلي من اشتراه مني، فاشتريت به طعاماً لم أزرعه وسخرت لي النار، فأنضجته وجعلتني آكله بشهوة أقوى بها على طاعتك، فلك الحمد، ثم بكى ... قال داوود يا بني قم فانصرف بنا، فإني لم أر عبداً – قط – أشكر لله من هذا ...

وهكذا كان الحديث يتشعّب والأسئلة تُطرح من هنا وهناك وكأن (حسناً) أصبح أخاً ثالثاً لهما ... وفي كل مرة يأتي فيها يحضر معه العديد من الكتب القيمة لهما ... ولم يعد ينساها كالسابق ... اللطيف أني لاحظت اختفاء (سامي) عن أنظار الجميع وقت الغروب وخمّنت أنه ربما كان يذهب ليصلي، ولأني لا أتجسس عليه بقيت غير متأكدة ... لاحظت أيضاً اهتمامه بغُسل الجمعة، وعندما سألته عمتي عن ذلك لخوفها عليه من نزلات البرد أجابها بثقة:

– إنه غُسل مستحب يا ماما وله ثواب عظيم ... لم لا تغتسلين يوم الجمعة أنت أيضاً ... وقت الاستحمام قبل أذان الظهر ...

التفتت إليّ ثم ضحكت عمتي وهي تجيبه:

– عجيب! أنت (سامي) تتكلم هكذا ... ظننتك (سامية)!!

انسحب ضاحكاً دون أي تعليق ...

كانت رنات جرس الهاتف لا تحمل إلا الاتفاقات التجارية أو شكاوى (سها) وزوجها من بعضهما، والآن أضيفت إليها مواعيد (حسن) مع (سامي) وأصدقاؤهما الجدد ... وهي كثيرة .. والحمد لله أن أخلاق (سامي) أصبحت دمثة وزايلته تلك الحالات من الشرود والتفكير وأخذت أحاديث تصبح ممتعة مع الجميع وزالت عصبيته الخارجة عن حدودها الطبيعية ... وزاد من زياراته لجدّي ولاحظ الجميع احترامه وتبجيله له ... وعندما سألته (لمى) عن ذلك أجابها:

– يا (لمى) إنه جدّنا ويجب عليّ وعليك أنت أيضاً صلته ومودّته ألم تقرئي الآية الكريمة﴿إمّا يبلغنَّ عندك الكِبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ ... والجدّ في نفس منزلة الأب ...

مما أثار دهشة الجميع ... وفي مساء ذات يوم كنت مشغولة بحل بعض المسائل وقد جلست (لمى) بقربي تطالع في إحدى المجلات ... جاءت عمتي مسرعة وجلست بجواري وقالت وهي تضحك:

– هل عرفت يا (سامية)! اكتشفت أمراً خطيراً ... إن (سامي) يصلي خلسة في غرفته!

قلت بتعجب:

– أحقاً يا عمتي!! ... إنه أمر مدهش للغاية أليس كذلك؟ أرجو ألا تضايقيه في هذا يا عمتي يا أحسن عمة في الدنيا!!

– طبعاً ... طبعاً ... أنا أود أن يكون ابني متديناً بشرط ألا يمنعني من المكياج أو التبرّج ... أشعر أن الحياة قد دبّت في (سامي) منذ بدأ (حسن) بزيارتنا ... لم يكن يتحدّث إلى أحد .. لا ... ولا حتى تنبسط أساريره لأحد ... وجوده وعدمه سواء .. أحس ... أحس ... أنه أصبح الآن يتلذذ بالحياة ... يهتم بما حوله ... ينظر إلي بحب وحنان ... كذلك لأبيه ... كم أنا سعيدة به ... في الماضي كن أحسّه حاقداً عليّ وعلى أبيه .. أما الآن .. فلا .. إنه لم يهتم أن يحافظ على صداقته لأحد من الشباب .. همّه الوحيد هو إكمال دراسته فقط ... وتأمين مستقبله المادي ... أما الآن بفضل (حسن) أصبح له العديد من الأصدقاء ... وأي أصدقاء – حفظهم الله من كل سوء – كالورود والزنابق، نظيفو الملابس، طيّبو الرائحة، جميلو الكلام، ذوي مكانة اجتماعية عالية و ..

وقطع حضور (سامي) كلامها:

– أمي، (لمى)، هل تودّان المجيء معي؟!

والتفت إليّ قائلاً:

– وأنت يا (سامية) هل تريدين ذلك؟

قالت عمتي:

– إلى أين؟!

– نذهب لزيارة المرقد الشريف للتبارك به ... ها ما رأيكن؟!

قالت عمتي:

– عظيم ... عظيم .

وأيّدتها أنا و (لمى) ...

– إذن هيا قمن وارتدين العباءات فالدخول هناك ممنوع للسافرات، وكذلك أنت يا (سامية) ضعي عباءة فوق زيك الإسلامي، ولا تنسين أن تتوضأن .

وما هي إلا ساعة حتى كنا هناك نقرأ دعاء الزيارة ونصلي صلاتنا الواجبة مع ركعتين لوجه الله تسمى صلاة الزيارة .. عندما أكملتها رأيت الدموع تترقرق من عيني عمتي وقد بان الخشوع عليها ... أما (لمى) فاكتسى وجهها بفرح لا يوصف .. أحسست براحة عظيمة وتأمّلت فيما مضى وأنا لا أكاد أصدق ما حدث ... أطلقت حسرة وقلت في نفسي:

– أين كنت يا (حسن) طوال تلك المدة؟

من بعيد أشار إلينا (سامي) بالخروج، ففعلنا ذلك، وخلعت عمتي عباءتها في السيارة باستنكاف، أما (لمى) ولدهشتي بقيت على ارتدائها لها وكأنها تشعر براحة فيها ... سار بنا (سامي) بمحاذاة الشاطئ، ورغم برودة الجو إلا أننا شعرنا بالنشاط والحيوية ... توقفنا قرب مطعم صغير تناولنا فيه الطعام والمرطبات وعدنا ثانية إلى السيارة، قال لي (سامي) وهو يفتح لي باب السيارة بلطف ومجاملة:

– هل استمتعت بالزيارة؟

– جداً ... أشكرك من كل قلبي ... ليتك تكررها ثانية ...

– وماذا عن دروسك؟!

– أف ... لا تذكّرني بها ... لا بأس سأتأخر ساعة أخرى في الليل لأعوضها ...

شاركت (لمى):

– ما هذا الكرم يا (سامي) ... أرجو أن تفسّحنا دائماً ...

– حقاً! .. هل أنت مسرورة الآن ...

– جداً جداً يا عزيزي ...

– وأنت يا أمي؟

– وكيف لا أكون مسرورة وسعيدة، وهذه هي المرة الأولى التي تدعوني فيها وتشعرني بأن لي ابناً يحب إسعادي ... إنني راضية جداً عنك يا بني ...

– المهم رضاؤك يا أمي ...

عندما اختليت بنفسي في غرفتي أحسست وللمرة الأولى في بيت عمي أن القدر يبتسم لي ... وشعرت أن مرحلة الصراع معهم ومع أفكارهم في طريقها للزوال .

* * *

وصدق ظني، فقد أخذ (سامي) يتجاهر أمام (سمير) و(سها) و(مراد) أنه يصلي ولا يحس بالخجل كالسابق بل ويشرح لهم أهميتها ... وفي يوم الجمعة وكان شمل العائلة قد التأم، سألته (سها) بتخابث:

– ما هذا يا (سامي)؟! احترس على نفسك من (سامية) وأخيها .. في المرّة القادمة عندما نحضر لزيارتك سنجدك ارتديت العمامة!!

التفت (سامي) إليّ ثم توجه بالحديث نحو أخته التي لم تفهم منه شيئاً!

– ربما سأصبح شيخ جامع الأزهر في المرة القادمة ...

أشحت بوجهي عنه وأظهرت انزعاجي من تلميحه هذا .. قال (مراد) بفزع:

– يا للهول إن أصبحت شيخاً فلن أدخل داركم بعد الآن .. لأني سأكون هدفك الثاني وتبدأ بالنصيحة حول الخمر وشاربها وصانعها ... أليس كذلك؟!

أجابه (سامي) وهو يضحك:

– إنك ابن حلال .. كنت أوّد الحديث معك حول هذا الموضوع الآن ...

وقف (مراد) وسط الصالة وبشكل تمثيلي هزلي قال:

– لبيك اللهم لبيك ... لبيك لا شريك لك لبيك ... إن العزّة لك والملك ...

ولم يكمل لأنه لا يعرف الباقي ... قاومت نفسي من الضحك عليه لأني احترمت تصرف الباقين تجاهه، فهم لم يضحكوا وانزعجوا ولاحظت عمتي تنفجر فيه بغضب:

– أنت لا تتغير ... ولن تتغير نحو الأحسن أبداً ... وإنما نحو الأسوأ ... لماذا لا تستمع لـ(سامي) وهو يكلمك؟ .. ألن تنتهي من أفعالك الرعناء هذه ... إلى متى تبقى هكذا .. ألن تثوب إلى رشدك ... ما الذي جنيته من الخمر والسكر والعربدة؟ .. سوى العار والمشاكل لك ولزوجتك ولأطفالك ... هاأنت الآن مرح وفرح وعندما تعود مخموراً في الليل لا تجد من تعاقبه على فشلك سوى طفلتك الصغيرة هذه تضربها بوحشية أثناء نومها الساكن ... إنك تصبح حيواناً ...

بهدوء تمثيلي أيضاً جلس (مراد) وهو يقول:

– ها! الدور لمن الآن في الكلام؟

غضب عمي منه ... نعم عمي المتواجد بقلة في الدار ونهض مغادراً إلى غرفته ... الحقيقة تجلّت أمامي في هذه اللحظة ... إن الجميع أصبح فخوراً بـ(سامي)، الابن الأكبر للعائلة ... إنهم يعتزون بآرائه ولا يريدون لأي كان أن يسفّهها، سواء كانت آراء صحيحة أم مغلوطة ...

قال (سامي):

– أرجوك يا (مراد) أن تصغي إلي .. لم أهتم سابقاً في نهيك عن شرب الخمر لأني اعتبرت ذلك من شؤونك الخاصة ولا يحق لي التدخل بها ... أما الآن وبعد أن هداني الله، وانقشعت سحب الضلالة عن عيني، أصبح أولاً من واجبي نحوك كأخ لي في الدين أن أرشدك إلى السبيل القويم، وثانياً أن أنتصر لأختي وطفلتيها ... وأنا الآن أتكلم معك باللين وأريد منك وعداً صادقاً بألا تعود لشربها ... ومنذ هذه اللحظة تبدأ بالعزم على نبذ الشراب ولمدة أسبوعين فقط تمتنع خلالها تدريجياً عن الشراب ... وإلا..

– وإلا ماذا؟

– وإلا طلّقت (سها) منك!

ران الصمت على الجميع ... وحاول (مراد) تمييع المشكلة بأسلوبه الساحر:

– إنها نكتة لطيفة ... أنا لا أستغني عنها ... وكذلك هي ... لقد اعتدنا الخصام حتى صار فلفل وبهار حياتنا ... بدونه لا نعيش ... كالسمكة بلا ماء .. و ..

– يجب أن تفهم الآن من الذي يخاطبك ... ليس عمك أو عمتك ... بل (سامي) .. (سامي) بنفسه .. أفهمت ...

بفرحة أيدت عمتي (سامي) وتصاعدت الدماء في وجه (مراد) وأخذ يدور ببصره في وجوه الآخرين الذي آثروا الصمت على الكلام، ووضّح (سامي) له أنه سيعمل جاهداً ليلبّي حاجات (سها) وابنتيها بدلاً عن العيش مع إنسان لا مسؤول مثله ... أثَّر موقفه في (سها) فأجهشت بالبكاء .

– أتبكين حزناً عليه يا (سها)؟!

– لا .. لا يا (سامي) .. بل من الفرحة ... اليوم أحسست أن لي أخاً يدافع عني ويتفهّم صعوبة عيشي معه ... أنا لا أريد الحياة مع عربيد يتقلب في أحضان الغانيات .

أخفى (مراد) وجهه بيديه ألماً وهو يقول:

– أتهددني يا (سامي) ... أنت لم ترتد العمامة بعد!

– وهذا من حسن حظك إذ لو ارتديتها لجلدتك على شربك الخمر...

ضحك (مراد) بمرارة ولم يحر جواباً ثم رفع رأسه معاتباً (سامي):

– أراك أصبحت تجيد إلقاء النكتة يا (سامي)؟

– أنت لم تر شيئاً بعد ... سأجعلك ترقص من شدة الضحك .. فلن تعود (سها) وبنتاها معك منذ اليوم ... ما رأيك بهذه النكتة ...

بفزع قال:

– أوه ... هذه ليست نكتة ... بل قنبلة ... لا بل يجب أن تعود معي ...

استمر الحوار بينهما بين إصرار (سامي) وخَور عزيمة (مراد) فلجأ (مراد) إلى (سها) آخر الأمر يستطلع رأيها في الذهاب معه فكان جوابها أن أشاحت بوجهها عنه وتمسّكت برأي أخيها، حينئذ خاب أمله وغادر حزيناً ...

الحقيقة أن موقف (سامي) أعجب الجميع وأعجبني كذلك، لا لأنه ذو صلة بي بل لأنه كمتدين أضحى عضواً مهمّاً في مجتمعه الصغير في الأسرة .. ولا تعلم فرحة (سها) وحبورها وكأنها حمامة ترفرف ... لقد أحسَّت بعزّة نفسها وكرامتها تُنتشل من الحضيض الذي اضطرت للعيش فيه ...

– حفظت الله لشبابك يا أخي ... أنا أود الحياة مع (مراد) كإنسان وليس كحيوان، أريده لي وحدي ... لم يقف أحد لي في السابق مثل موقفك هذا ... إنه يسخر مني ومن تجاهلكم مشاكلي ويعتقد أني وحيدة بلا أهل أستعين بهم وإلا لما تركوني عنده ... وأنا أتجرّ' الغصص ... وابنتاي الصغيرتان سترتاحان من ضربه إياهما وإهانتي أمامهما ... آه الحمد لله ... كم أنت رائع!!

ضحك جدّي وشجع (سامي) على عمله كذلك مدحه الجميع سوى زوجة (سمير) ... اعتذرت عن البقاء بموعد سابق لها وأومأت لـ (سمير) بالخروج فذهبا سوية ... ويبدو أنها قد أحست بالخوف من أن يكون قد حان دورها هي في الجولة القادمة ... فامتنعت عن الحضور خلال الأسبوعين التاليين بعد أن كانا يحضران يومياً تقريباً ...

عاد (مراد) خجلاً ليأخذ زوجته وطفلتيه بعد أسابيع ثلاثة وهو يقبّل ابنتيه ويحتضنهما بحنان ومودّة ... ومن بين دموع الشوق لهما شرح للجميع العذاب الذي قاساه من تركه للخمر إلى مقاساته لسخرية الرفقاء والرفيقات ... وعرف أنه لا شيء يعدل (سها) وبنتيها ... سأله (سامي):

– ألن تخدعنا كالسابق يا هذا؟

– أبداً .. منذ غادرتكم .. صمّمت على الترك لأني أحسست بالذل الذي جلبه لي الشراب ... لكني عدت للشراب في اليوم التالي وتركته يومين ... وأحسست بالشوق إليه .. ثم نظرت إلى ما حولي من خراب وشعرت بوحشة تطبق على أنفاسي فدعوت الله ... لا تضحكوا عليّ ... حقاً دعوت الله أن يعينني على تجاوز أزمتي التي أمر بها ... تصورت حياتي المهددة من قبل الخمرة، وتخيّلت (سها) وابنتيّ هاتين يعشن لدى .. رجل غريب عنهن .. أردت الإسراع بالعودة إليهن ... وأحيّ في الوقت نفسه للشراب ... واتخذت قراري عندما كسرت زجاجات الشراب في البيت ... وصممت إلا أعود إليه أبداً ... وفضلت التريث في المجيء حتى أطمئن إلى نفسي جيداً ... وقاومت إغراءات الرفقاء بشكل لم أتوقعه من نفسي ... ولأنهم أحسوا بجفائي لهم، زادوا من اتصالاتهم الهاتفية فقطعت سلك الهاتف، ولم أرد على جرس الباب المستمر .. حتى أيقنوا أني قد سافرت ... فابتعدوا عني ... لكنهم سيواصلون جهودهم لإعادتي إليهم ... لذا .. يا (سها) .. أنا أحتاج إليك ... وأحتاج إلى مساعدتك أيضاً ... لا تتركيني في قبالهم وحيداً ... أرجوك ... هل تفعلين؟ ...

من بين دموعها أومأت (سها) برأسها بالموافقة ... وهنا دعاهم (سامي) إلى تناول الطعام سويّة ... فرفض (مراد) ذلك وأصرَّ على الذهاب، وودعناهم لدى الباب .. فإذا بمراد يعود إلى (سامي) ويحتضنه بقوّة ويربّت على كتفه دلالة على امتنانه له ... وبينما كان الأربعة يغادرون الصالة وعمتي و (لمى) يشيعانهم حتى باب الدار .. اقتربت من (سامي) وقلت له في إعجاب:

– إن عملك رائع يا (سامي) .. رائع فعلاً ... وفقك الله .

وذهبت بين ذهوله وحيرته فهو لم يسمعني أمتدحه يوماً ما .. إن لم يكن العكس ... في طريقي إلى غرفة الطعام شاهدت (سميراً) وزوجته يتهامسان بغضب، فعدت أدراجي وتركتهما إلى غرفتي ولاحظت أن (سامي) كان يبتسم لي..

* * *

اقتربت الامتحانات الفصلية ولم يبق على بدئها سوى أيام معدودات منحها الأساتذة بكرمهم، ليستطيع الطلبة والطالبات المذاكرة فيها .. باهتمام وجد كبيرين، ركّزت اهتمامي على المواد الدراسية وبذلت المستحيل كي لا يبقى لدي ما أجهله ... وكان ما أردت، ففي بداية المذاكرة أهداني (سامي) كتابين قيمين يحويان المئات من الأسئلة الجديدة والمتنوعة حول معظم الدروس، وكنت وصديقتي (نبوغ) نتحرّق شوقاً للحصول على مثل هذه الكتب لندرتها نفاد نسخها ... إضافة إلى ذلك وعدني (سامي) أن يشرح لي ما غمض منها عليّ، شكرته كثيراً وعجبت في نفسي للتغيير الذي طرأ عليه، لم يكن يمد يد المساعدة لأحد أبداً ولا يهتم بمشاكل من حوله، وهاهو ذا اليوم يحاول مساعدتي بجد ... اقتسمت و (نبوغ) الأسئلة وحللنا معظمها وبقي القليل جداً وضعته على حدة كي أستشير (سامي) عنه ... انتظرت حضوره عصر اليوم التالي بفارغ الصبر في الصالة ومعي كراريسي وأسئلتي وطال انتظاري له حتى غابت الشمس ولم يحضر ... مضيت لغرفتي وصليت المغرب ثم العشاء، ولم أكد أنتهي من صلاتي حتى حضرت (أم أحمد) تعلمني بوصوله أسرعت إلى الصالة حيث كان (سامي) جالساً، شهقت لرؤيته ولاحظ هو ذلك فقال:

– ما هذا؟ ألم تشاهديني من قبل! أم أصبحت لا أطاق؟

بهدوء أجبته:

– على العكس ... كنت سابقاً في محل وسط بين الفتى والفتاة .. إلا أنك أصبحت الآن، مخيفاً قليلاً ... اعذرني إذا قلت هذا ... والآن إذا سمحت أن تشرح لي هذه الأسئلة ...

عندما بدأ يحل ويشرح لي تأملت شعر رأسه، أين ذهب شعره؟ ذلك الشعر الطويل الذي كان يصففه على أحدث موديل، ويوحي للرائي منظر الميوعة واللامبالاة أكثر مما يوحي بالخشونة والرجولة ... إذن هذا هو سبب تأخره عن المجيء ... أما الآن فأنا أحس أنني أمام رجل محترم بكل معنى كلمة ...

مرت فترة الامتحانات عصيبة على جميع الطلبة، ولم يفلح ويتفوق إلا الذي أجهدوا أنفسهم طوال السنة، والحمد لله أني توقّعت التفوّق في كل المواد كالعادة، ولم أتوقّع أن تنتهي الامتحانات لشدّة الجهد والتعب اللذين بذلتهما أثناءها .. ولكنها انتهت وحلت بذلك العطلة الربيعية لمدة أسبوعين كاملين، خمّنت أنها ستمر سراعاً لنعود بعدها للجامعة والدروس، عدت من الامتحان الأخير منهكة القوى لا أكاد أستطيع فتح عينيّ لشدة ما عانيته من سهر في المذاكرة الليلة الماضية، وقضيت طريق العودة إلى البيت في التثاؤب المستمر، ولم أصدق أني وصلت البيت، سلمت على عمتي و (لمى) وطلبت منهما ألا توقظاني أبداً فأنا سأستيقظ وحدي ظهر يوم غد ... ضحكتا لتعليقي وقالت عمتي بطيبة ذكرتني بطيبة أمي:

– اذهبي يا حبيبتي وارعي نفسك ...

أول ما فعلته هو الصلاة ثم الارتماء في ملابس الصلاة على السرير والنوم الإغمائي بلا وعي ... أفقت على طرقات باب غرفتي فتحت عيني فلم أر سوى الظلام الدامس من حولي ... رفعت يديّ أمام عينيّ، فلم أميزهما من الحلكة التي أنا فيها ... أحسست بالوحشة ... فسرت إلى مفتاح النور أتلمس طريقي تلمساً وأنا أكاد أتعثر من رداء الصلاة الفضفاض الطويل جداً، ضغطت على المفتاح بعد جهد فأضاء الغرفة نور قوي أغمضت عيني عنه .. وأسرعت بارتداء الحجاب بين الطرقات المستمرة على الباب ثم فتحت الباب لأرى (سامي) يقف مستنداً على إطار الباب، فاجأني بسؤاله:

– ما هذا؟ أين كنت؟ أكل هذا نوم؟!! ظننتك متّ؟ لقد غلبت أصحاب الكهف بنومك هذا .. هيا ... إلى العشاء ... وأظن أنك لم تتناولي الغداء أيضاً ...

ذهبت إلى الصالة وشاركتهم الطعام، وعلى المائدة اقترح (سامي) اقتراحاً بالسفر إلى المصايف مدة أسبوع أثناء العطلة الربيعية ليتسنى لي أيضاً السفر معهم ...

قالت (لمى) باستياء:

– إذن فسنسافر في العطلة الربيعية لأن لدى (سامية) عطلة ...

أجابها (سامي):

– وماذا تقترحين أنتركها هنا لوحدها؟!

– كلا .. طبعاً ... لا عليك ... إنني أتساءل فقط ...

– حسناً فليتهيأ الجميع للذهاب غداً ... وقعت اليوم طلي الإجازة لأسبوع واتصلت بـ(سمير) و (سها) ولم يبق إلا جدّي وسأسأله إن كان يرغب بالمجيء أيضاً ..

الواقع أن السفر إلى المصايف أمر ممتع للغاية، ولطالما تمنيته، غير أنني مرتبطة بمواعيد مع فتيات محلتي السابقة ولا أستطيع الإخلاف بوعدي لهن، لذلك انتظرت حتى انتهى العشاء وكان (سامي) يجلس لوحده أمام التلفزيون في الصالة فبادرته بالحديث:

– إذا سمحت أود الاعتذار عن السفر معكم ..

– لماذا؟ هل السفر حرام!! لا تعتذري بوجود (مراد) و (سمير) .. لأننا سنكون فريقين، فريق للنساء وفريق للرجال لأني دعوت اثنين من أصحابي أيضاً ... ولذا فلن نلتقي على الطعام .. ما رأيك؟

– أتعلم كم مضى عليّ هنا وأنا بعيدة عن أهلي ... و ...

– فكرة حسنة .. سأدعو عمي وعمتي و (حسن) ليشاركونا الرحلة..

– لا .. لا تفعل أرجوك!

– ولماذا؟

– الموضوع أكثر من اشتياقي إلى أهلي .. في كل عطلة ربيعية تعقد جلسات دينية يومياً، فنلتقي أنا وصديقاتي ووالداتهن وقريباتهن فيها، حيث نقوم بشرح بعض الآيات القرآنية أن الأحاديث النبويّة الشريفة، وتطرح الأسئلة والمسابقات وهذه السنة هي الرابعة ... ولو لم أكن معدّة هذه الجلسات لاستطعت الاعتذار لهن بسهولة .. ولا أظنك تمانع في ذهابي إلى دار أبي لأقضي العطلة الربيعية إلى جوارهم وجوار صديقاتي ... إني أشعر بالشوق والحنين إليهن .. صدقني ...

– لكني أجهدت نفسي كثيراً في العمل خلال الأيام الماضية وأنجزت الضعف فيه لأستطيع الحصول على هذه الإجازة ... وهاأنت الآن تقولين أنك لا تستطيعين السفر معنا خلال العطلة بأكملها ... وتفضّلين صحبة صديقاتك علينا ...

– أظنك ستستمتع بالسفرة فأنت دعوت صديقيك وهنالك (سمير) و (مراد) أيضاً ... و ...

– لا تكملي ... ماذا لو رفضت طلبك؟

– كلا .. أرجوك يا (سامي) ... أرجوك أن توافق على عودتي ... إني سوّغت غيابي عنهم في العطلة الصيفية بالتدريب الصيفي .. والآن بماذا أبرر غيابي؟! فهن لا يعلمن بزواجي ... أنسيت!!

– لا توجد مشكلة ما ... أخبريهن أنك قد تزوجت مني ... وماذا في الأمر؟ أريد أن يعرف الناس أنك زوجتي!

فغرت فيّ من الدهشة ... أحقاً ما أسمع ... أهذا هو (سامي) المغرور الذي يأبى أن يقترن اسمه مع اسمي ... يقول ما سمعته .. لا أصدق أذني وبلا مبالاة أكمل:

– أخبريهن بالزواج ... ولن تكون هنالك مشكلة ما ... هيّئي أمتعتك للسفر!

– ولكن يا (سامي) ... كيف يمكن هذا ... إنهنّ صديقاتي وحبيباتي فلن يصدقن أني قد تزوجت هكذا دون يعرفن بالأمر .. و ... ومن صفات الزواج الشهرة، أي أن يفهم الجميع به، لا الكتمان والتخفّي ... ثم ... ثم ... ألا ترى أنك تضعني في موقف محرج آخر بهذا العمل ... كيف سأتطلع في وجوههن ... وأنا مديرة جلساتهن أفعل هذا ... كالأفلام السينمائية .. لا جلسة عقد ولا أسئلة دينية ولا حتى ثوب للزفاف يرينني فيه ... لماذا؟ .. لماذا كل هذه الفوضى .. أمن أجل سفرة ... ستقضي وقتك بأجمعه مع رفقائك وأبقى أنا مع النساء أفكر ماذا أعد من طبخة أو نضيّع الوقت في الثرثرة ... أرجوك ... أن تسمح لي بالعودة ...

قال ملاطفاً:

– ولكن يعزّ عليّ بعدك!! حسناً لم لا تختصرين الجلسات لأسبوع واحد وتعودين في الأسبوع الثاني، حيث أكون قد عدت أيضاً من السفر ...

هززت رأسي بالنفي ... في النهاية وافق على مضض ...

عدت إلى أمي وأنا أكاد أطير من الفرحة واستقبلني أبي و (حسن) بالترحاب والفرح ... أحسست أني في مكاني الطبيعي ... وقابلتني صاحباتي بالفرحة والترحاب نسيت معها عدّ الأيام ... وسرعان ما انتهت الإجازة ...

* * *

صففت الهدايا التي قررت أخذها معي في أكياسها في حقيبتي وناولتها لـ(حسن)، قبّلت أمي ويد أبي وودّعت و(حسن) الجميع ...

ترجّل (حسن) معي إلى بيت عمي وسلم على عمتي وعمي ... ولما رآهما مكتئبين أحسّ أن الوقت غير مناسب للزيارة فاستأذن في الذهاب إلى قسمه الداخلي ...

لم أسأل عمتي عن سبب كآبتها، بل قدمت لها ولعمي هديتهما فشكراني وذهبت إلى غرفتي ... كانت على ما تركتها عليه قبل السفر ... لم يدخلها أحد ما على ما يبدو فالغبار يغطّي المكان بأكمله ... نظّفت الغرفة ورتبت الحقيبة ثم أخرجت هدية (لمى) وعدت إلى حيث تجلس عمتي لأسألها إن كانت هديتي ستعجب (لمى) أو لا ... اغرورقت عيناها بالدموع، ثم أجهشت بالبكاء ... دهشت لذلك وداخلني خوف وذعر شديدان ... ألححت عليها حتى سكتت وطلبت منها توضيحاً، فقالت:

– إن (لمى) و (سامي) يرقدان في سرير المرض ... لقد أصيبا بالتيفوئيد منذ أيام ثلاثة ... وأنا التي أقوم على تمريضهما، فـ(أم أحمد) تخشى العدوى ... وهذان المسكينان، ملقيان هناك بلا حول ولا قوة و ... لم أنتظر لأسمع البقية وأسرعت إلى غرفة (لمى) أدخلها راكضة فلم أجدها فيها ففزعت وعدت إلى عمتي أسألها في أية غرفة ترقد، فأخبرتني وهي تكفكف دموعها أنهما في غرفة الضيوف، وغرفة الضيوف هذه تقع على يمين الداخل من ممر الصالة .. بهدوء فتحت الباب ... رأيت سريرين قد صُفّا بقرب بعضهما ترقد (لمى) على أحدهما واحتل (سامي) الثاني كان الشحوب والاصفرار الذي على وجهها ملحوظاً للعيان، وقد انتشرت قطرات العرق على جبينها الجميل .. التفتُّ إلى (سامي) كان هو الآخر يبدو ضعيفاً نحيلاً، سلمت عليها في خفوت فإذا بدموعها تنحدر على خديها كقلادة من لؤلؤ، ثم بنشيج خافت قالت:

– أين كنت يا (سامية)؟ ألا ترين الناس من حولنا يخشون العدوى منا ... أصبحنا منبوذين .

أسكتّها بهدوء ورباطة جأش محاولة تشجيعها بكل ما أملك من قوة الإيمان، فقلت لها:

– لا يهم يا حبيبتي .. إنك تسيرين نحو الشفاء ... إن الله يحبك و " إذا أحب الله عبداً ابتلاه " ..

– أحقاً ما تقولين يا (سامية)؟ كلا ... إنك تجاملينني لتهوّني عليّ المرض ...

– اسمعي، جاء في الأخبار:" إن الله عز وجل إذا كان من أمره أن يُكرم عبداً وعليه ذنب ابتلاه بالسقم، فإن لم يفعل ذلك به، ابتلاه بالحاجة، فإن لم يفعل ذلك به شدد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب، وإذا كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة، صحح بدنه وإن لم يفعل ذلك به وسع عليه رزقه فإن لم يفعل ذلك به هون عليه الموت فيكافيه بتلك الحسنة " ... ألم تسمعي في عيادة الناس للمرضى قولهم لا تهتم بالمرض فهو غفران للذنوب!! فكيف أجاملك يا عزيزتي ولا أظنك معصومة من الذنوب ... أليس كذلك ...

– ومن منا المعصوم عن الذنب ...

– إذن عليك أن تتشجّعي لرؤية هديتي ... انظري إلى هذا الثوب الجميل الذي أحضرته لك ... لون هادئ سماوي يليق بجمال وجهك ويؤلفه ...

– هل تعتقدين أني أستطيع ارتداءه ...

– بالطبع يا حبيبتي ... إن شاء الله تعالى ... والآن أخبريني أي نوع من العقود يتناسق مع هذا الثوب كي أهيئه لك .. رأيت صورتين لعقدين جميلين أحدهما من الورد الاصطناعي والآخر من الأصداف البحرية الصغيرة وقد أحضرت لك المجلة ... انظري ...

فتحت لها الصفحة المناسبة وناولتها إياها، وفعلاً اهتمت بها ورأيت عينيها تشعان ببريق جميل فتفاءلت كثيراً ... وأمضيت الساعة معها حتى عاودها الحبور وأخذت في الضحك قليلاً، دخلت عمتي وشاهدتنا هكذا ففرحت كثيراً وأشارت إلي أن ألحقها إلى الصالة، ففعلت عندها ابتدرتني:

– أنت لا تعلمين يا (سامية) كم من جهد مظن بذلت معهما خلال الأيام الماضية ... أمر فوق التصوّر .. لم يغمض لي فيها جفن .. وأنا ...

– لا عليك يا عمتي .. أرجوك أن تعودي لغرفتك لتنالي قسطك من الراحة وسأفعل ما بوسعي لأجلهما ...

فرحت عمتي كثيراً جداً على ما يبدو لأنها فعلت شيئاً عجيباً معي ... فقد قبّلتني بامتنان وهذه هي أول مرة تفعل فيها ذلك ... وتركتني في دهشتي، عدت إلى (لمى) فوجدت (سامي) قد استيقظ الآن ويمسك برأسه متألماً ... أسرعت إلى علب الدواء وسألته عن أيها فأشار إلى واحدة ناولته إياها مع كأس ماء، وفهمت بعدها مواعيد تناولهما للدواء ونوع الطعام الذي يجب أن يتناولاه ... بعد أن زايل (سامي) الألم اعتذر هو و (لمى) أنهما لم يرحبا بي، فقلت:

– أرجو أن تتقبّلا عذري ... فأنا أشعر بالذنب لأني لم أسرع في المجيء ..

– وأنا ألم تحضري لي أية هدية؟ الهدايا للفتيات فقط!!

– وكيف لا ... سأحضرها حالاً ...

أسرعت بإحضارها وهي عبارة عن قماش لطقم رجالي أزرق اللون مع ربطة عنق تليق بالقميص الأبيض الذي أحضرته معها ... علاوة على عطر رجالي رأيته يكثر من استعماله ... ورغم ما كان يعانيه من مرض، رأيت الفرحة تعلو وجهه وابتسم وهو يقول:

– لا شك أنك أنفقت مرتبك الشهري لشراء هذه الهدية القيمة ...

استأذنتهما في الذهاب لإحضار الطعام لهما وطلبت منهما أن يقبلاني ضيفة عليهما ... والحقيقة أني تعمّدت ذلك لأنه ليس أشقّ على المريض من إحساسه بالعزلة والنبذ ... وساعدتهما ما أمكنني في تناول الطعام وبعد ذلك أحضرت لهما العديد من الكتب والمجلات ... فضّلت (لمى) مجلات الأزياء واختار (سامي) بعض الكتب الدينية ... وجلست على الأريكة القريبة من (لمى) أطالع أيضاً ... أحسست بالفرحة تغمرني وتمنيت لهما الشفاء العاجل ...

في صباح اليوم التالي اتصلت هاتفياً بـ(نبوغ) أسألها في أي قسم في الجامعة نلتقي، فأخذت تمزح معي عن سبب اشتياقي إلى الجامعة؟! دهشت لذلك وسألتها إن لم تكن هي أيضاً مشتاقة للدراسة؟! ضحكت (نبوغ) وقالت أن قسمنا الدراسي معطّل حتى إشعار آخر ... بسبب ما حدث في معمل الحدادة ...

– وما الذي حدث يا ترى؟

– لا شيء مهم ... انفجار فقط!

– ماذا؟ انفجار! كيف وأين؟

– في قناني الأكسجين والإيستيلين ولحسن الحظ أن قسمنا كان معطلاً بسبب الإجازة الربيعية وإلا لكانت الخسائر في الأرواح هائلة ... المبنى فقط تدمر بشكل كبير وهائل وأدى إلى تدمير العديد من الأجهزة هناك ... ومنذ أسبوع وإلى الآن لم يتموا إصلاحه ... لكنهم يتأملون أن يتم العمل نهائياً في الأيام العشرة القادمة ... والحمد لله أن المعمل كان خالياً أيضاً ...

– حسناً ... وما سبب الانفجار يا ترى؟

– سوء التخزين وسوء الاتصالات الكهربائية ...
– حسناً إلى اللقاء الآن وسأتصل بك ثانية إن شاء الله ...

عدت إلى غرفة الضيوف فألفيت المريضين نائمين ... تركتهما وذهبت صوب الفناء إلى حيث يسكن جدّي الحبيب ... الذي نسيته لانشغالي بالمريضين فرح جدّي بوصولي كثيراً وأخذ يسألني عن أبي وأحواله وأخباري، وطلب مني أن أتناول الفطور معه، فاعتذرت بأني أتناوله مع (لمى) و (سامي) .. هنا تذكّرت أنه عليّ العودة إليهما ... استأذنت منه وعدت إلى المطبخ، أعددت الفطور وحملته إليهما ... كانت (لمى) لا تزال تغط في نوم عميق بينما كان (سامي) يتصفّح بعض المجلات ..

– السلام عليكم ... كيف تشعر اليوم؟
– وعليكم السلام .. الحمد لله ... أفضل من أمس .

وضعت المائدة بقربه، ثم صففت المتّكآت خلفه ليستطيع الجلوس في الفراش وفرحت لرؤيته يتناول الطعام .. وكم كنت مخطئة فسرعان ما أفلتت الملعقة من يده ولوّثت الغطاء ... أعدت الملعقة إلى محلها وأسرعت بتغيير الأغطية وساعدته في تناول الطعام، ارتسم ألم عظيم على وجهه ثم قال:

– أترين ... كم أنا عاجز وضعيف؟ بين ليلة وضحاها أصبحت قعيد الفراش .
– لا بأس عليك يُحكى أن النبي (ص) قال لسلمان الفارسي حينما عاده في مرضه " يا سلمان ... إن الله ذكرك فاذكره وأقالك فاشكره " ... ولا راحة مطلقة في الحياة الدنيا بل هي راحة نسبية، و " المؤمن مبتلى "، وفي كل ابتلاء أجر، ثم ... إن الإنسان ليطغى ... ويحتاج بين آونة وأخرى إلى أمر يذكّره بضعفه رغم قوّته ... أليس كذلك؟
– نعم ... يبدو الأمر كذلك ...

ثم تذكرت أمراً فابتسمت ولاحظ هو ذلك فسألني عن السبب؟

– أنا أحمد الله عز وجل أني لم أشارككم تلك السفرة الجميلة حيث أن عدد الإصابات فيها اثنان ولو كنت معكم لأصبحنا ثلاثة ...
– أنت ضعيفة في الرياضيات، بل كنا سنصبح خمسة ..
– ماذا تعني؟ ..
– نعم، أصيب أحد الأصدقاء وكذلك (سمير)، وكلٌّ في بيته ... قال الطبيب أن السبب هو تلوث المياه، شربنا الكثير من مياه النهر الجاري ..
– وهل كان فيه سمك؟
– .. أظن ذلك .. طبعاً ... لماذا؟

قلت وأنا أمزح:

– ربما سمّمه برائحته الزكيّة ... بالمناسبة، كيف صلّيت في الأيام الماضية؟
– أوه .. لم أستطع حتى النهوض للصلاة ...
– إذن صلِّ بالإيماء ...
– وماذا عن الوضوء؟ لا أستطيع تحمل الماء على جلدي ...
– يمكنك التيمم ...
– حسناً جداً ... أرحتني الآن ... سأستطيع الصلاة لأدعو فيها عسى أن يرحمني الله ...

* * *

مرت عدة أيام وتحسّنت حالتهما الصحية كثيراً وأصبحا يعتمدان على نفسيهما في معظم أمورهما مما أتاح لي الوقت للمطالعة — خاصة وأن الدوام لن يبدأ قبل أيام خمسة على ما أخبرتني به (نبوغ) — في الصباح جلست في الحديقة الرائعة أطالع وأستمتع بضوء الشمس ودفئها، مع برودة في النسيم لطيفة ... اندمجت في القراءة حتى أني لم أشعر بقدوم (سامي) إلا عندما تنحنح:

– السلام عليكم ... أفزعتك؟!

– عليكم السلام ... كلا ..

– أتطالعين؟

– نعم .. ألا يبدو عليّ ذلك؟

– أنت لا تملّين من المطالعة أبداً ...

– ...

– ألا تدعينني للجلوس؟

– وهل تحتاج إلى إذن مني ... البيت بيتك ... تفضّل بالجلوس ..

وأشرت إلى أحد الكراسي البعيدة عني ليجلس عليها، لكنه جلس على أقرب الكراسي المجاورة لي، وقال:

– لقد أحسنت العمل أثناء التدريب الصيفي ... وإذا استمر عملك على نفس الجودة بعد التخرّج ... فلربما أستخدمك لتعملي في شركتي ...

– لم أفهم؟

– أتعرفين ... إني أفكر في شركة المقاولات التي سأفتتحها في نهاية هذا العام، بعد استلامي للنقود من جدّي بالطبع ..

– آه ... فهمت ...

– فكرة جيدة أليس كذلك؟ هل ستعملين لدي؟ .. بمرتّب مغرٍ ..

– ربما!

– ولماذا هذه الربما؟

– في نهاية العام تتبقى لي سنة دراسية أخيرة ... وربما ... ولا أظن أن بإمكاني البقاء هنا ... أو ... الدراسة والعمل سوية ...

أخرج علبة سجائره يريد إشعال إحداها فسألته قبل أن يفعل ذلك:

– ما هذا ... أنت لم تُشف بعد وتريد التدخين منذ الصباح الباكر..

– إذا كنت أزعجك فلن أدخن ...

– أتمنى لو تترك التدخين ..

– خوفاً على صحتي!!

– ولم لا ... و ..

– وماذا؟

– لا أعرف .. إنما يبدو لي المدخن إنساناً قلقاً، يحاول إخفاء اضطرابه وانفعالاته تحت غطاء التدخين .. فهو لا يعرف ماذا يفعل ... فيلهو بالسجائر أي إن إرادته ليست قوية بالدرجة الكافية ...

– ظننتك ستقولين أن التدخين حرام ..

– كلا ... لا يحق لي الاجتهاد بما أحب وأرغب في الأمور الدينية.

– أما عن الإرادة ... فإرادتي قويّة بما فيه الكفاية ... ولكن ..

– ولكن ماذا؟

– ولكن ... الأمر يختلف عندما أجلس بالقرب من .. من ... فتاة..

تعمّدت ألا أجيبه وحدّقت في الكتاب أتظاهر بالقراءة وأنا أفكّر فيما يعنيه ولاحظ هو عدم ترحيبي بما قاله، فكسر سيجارته بأصابع يده وراماها على الأرض ثم قال:

– حسناً ... اتركي الكتاب كما تركت أنا التدخين .. ولنتحدث قليلاً ...

أردت أن أكون أنا من يدير الحديث لئلا يتطرق إلى الكلام في أمور لا أحبها، فقلت له أحوّل أفكاره إلى ما يهمه في الدين والدنيا:

– ولكنّي أود المطالعة ... اسمع إلى ما جاء في هذا الكتاب في وصف المتقين ... " قام رجل يقال له همام وكان عابداً ناسكاً مجتهداً إلى إمام المتقين عليّ بن أبي طالب (رض) وهو يخطب فقال: يا أمير المؤمنين صف لنا المؤمن كأننا ننظر إليه؟ فقال:" يا همام المؤمن هو الكيّس الفطن، بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدراً، وأذل شيء نفساً، زاجر عن كل فان، حاض على كل حسن، لا حقود، ولا حسود، ولا وثّاب، ولا سبّاب، ولا عيّاب، ولا مُغتاب، يكره الرفعة، ويشنأ السمعة، طويل الغم بعيد الهم، سهل الخليقة، ليّن العريكة، رصين الوفاء، قليل الأذى، لا متأفك، ولا متهتك، إن ضحك لم يخرق، وإن غضب لم ينزق، ضحكه تبسّم، واستفهامه تعلّم، ومراجعته تفهّم، كثير علمه عظيم حِلمه، كثير الرحمة، لا يبخل، ولا يعجل، ولا يضجر، ولا يبطر، ولا يحيف في حكمه، ولا يجور في علمه، نفسه أصلب من الصلد ومكادحته أحلى من الشهد، لا جشع، ولا هلع، ولا عنف، ولا صلف، ولا متكلف، ولا متعمق، جميل المنازعة، كريم المراجعة، عدل إن غضب، رفيق إن طلب، لا يتهور، ولا يتهتك ولا يتجبر، خالص الود، وثيق العهد، وفي العقد، شفيق وصول، حليم خمول، قليل الفضول، راض عن الله تعالى، مخالف لهواه، لا يغلظ على من دونه، ولا يخوض فيما لا يعنيه، ناصر للدين، محام عن المؤمنين، كثف للمسلمين، لا يخرق الثناء سمعه، ولا ينكي الطمع قلبه، ولا يصرف اللعب حكمه، ولا يطلع الجاهل علمه، قوال، عمّال، عالم، حازم، لا بفحّش، ولا بطيّاش، وصول في غير عنف، بذول في غير سرف، لا بختّال ولا بغدّار، ولا يقتفي أثراً، ولا يحيف بشراً، رفيق بالخلق، ساع في الأرض، عون للضعيف، غوث للملهوف، لا يهتك ستراً ولا يكشف سراً، كثير البلوى، قليل الشكوى، إن رأى خيراً ذكره، وإن عاين شراً ستره، يستر العيب، ويحفظ الغيب، ويقيل العثرة، ويغفر الزلة، لا يطلع على نصح فيذره، ولا يدع جنح حيف فيصلحه، أمين، رصين، تقي، نقي، زكي، رضي، يقبل العذر، ويجمل الذكر، ويحسن بالناس الظن، ويتهم على العيب نفسه، يحب في الله بفقه وعلم، ويقطع في الله بحزم وعزم، لا يخرق به فرح، ولا يطيش به مرح، مذكّر للعالم، معلم الجاهل، لا يتوقع له بائقة، ولا يخاف له غائلة، كل سعي أخلص عنده من سعيه، وكل نفس أصلح عنده من نفسه، عالم بعيبه، شاغل بغمه، لا يثق بغير ربه ... يخالط الناس ليعلم، ويصمت ليسلم، ويسأل ليفهم، ويتَّجِر ليغنم، لا ينصت للخبر ليفجر به، ولا يتكلم ليتجبّر به على من سواه، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، فأراح الناس من نفسه، إن بغي عليه صبر، حتى يكون الله الذي ينتصر له، بعده ممن تباعد منه بغض ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده تكبراً ولا عظمة، ولا دنوه خديعة ولا خلابة بل يقتدي بمن كان قبله من أهل الخير فهو إمام لمن بعده من أهل البر " ... أكملت:

– خطبة عظيمة أليس كذلك؟

وعلى غير ما توقعت لم يهتم أن يسأل أو يستفسر عما قرأته له، بل بقي صامتاً ووجه لي نظرة عتاب ولسان حاله يقول، لماذا تغيرين مجرى الحديث معي دائماً، تجاهلت نظرته تلك، فلا بد لي من إيجاد حدود للكلام فيما بيننا، عندما رأيته يبحث عن سجائره استأذنت منه وعدت إلى غرفتي دون أن ألتفت إلى الوراء ... حاولت أن أركز على

القراءة فلم أفلح، لانشغال تفكيري بـ (سامي) ... أغلقت الكتاب وحاولت أن أكون صريحة مع نفسي؛ أعدت تقييمي لـ (سامي) ... هو الآن شخص آخر غير الذي غرفته أول مرة ... إنه الآن أنظف وأطهر وأهدأ، ذو شخصية اجتماعية فعّالة في مجال الأسرة، لم يعد يحتقرني أو يحتقر أفكاري ... يصلّي، يبرّ والديه وحتى جدّه المشكلة أنه أصبح لطيفاً ونبذ العناد والغضب الذي كان ينفرني منه ... يبدو أنني أصبحت أميل إليه ... أيجوز لي ذلك ... لا أعرف ... حسناً .. من أسأله حول مشاعري هذه ... (حسن)! كلا مستحيل ... أنا أخجل منه كثيراً ... أبي أم أمي ... لا ... لا .. (نبوغ) ... وكيف أبوح لها بالسر؟ إذن ماذا أفعل يا إلهي ... إذن .. تذكّرت ... نعم قرأت حديثاً ذات مرة يقول ما معناه " سل قلبك وإن أفتوك وأفتوك "، نعم في قرارة قلبي ونفسي أحس أنه لا يجوز لي التفكير به أو الميل إليه ما لم أرتبط به شرعاً، ولعل هذا ما قصده النبي (ص)، عن الجهاد الأكبر، أي جهاد النفس ... إذن يجب أن أبتعد عنه قدر المستطاع ... ثم من أدراني بحقيقة مشاعره الآن أو بعد أن يستلم الثروة ... أيبقى على ما هو عليه؟ أم سيتغير بفضل الذهب الأصفر؟! ولربما هو يتظاهر بالصلاة ... لا ... إذا أنا قررت الابتعاد عنه، فلا أعتقد أنه يجوز لي البهتان عليه هكذا .. وكيف يفعل هذا وموقف الصلب من (مراد) وحديثه يشهدان له بالتغير ... على أية حال يجب أن أكتم مشاعري تجاهه ولا أبديها له ولن أسمح له بالتطرق إلى هذا الموضوع أبداً ...

وهكذا اتخذت قراراً حاسماً ساعدني كثيراً عليه اندماجي في الدراسة، ولم أعد أحضر معهم مائدة العشاء، خوفاً من أن ألتقي بـ(سامي)، (سامي) الذي أصبح ذو نفسية مرحة ولطيفة عكس ما مضى عليه من اكتئاب وغضب وهو لا يألو جهداً إلا بذَلَه في سبيل أن يجتذب الجميع إلى أحاديثه الغزيرة و ... ربما كان في السابق يحدّث بها نفسه والآن بعد أن تكدست أخذ يصدّرها إلى الخارج ... ولا يختلف اثنان عليه أنه أضحى إنساناً لطيفاً ودوداً أو بمعنى آخر " المؤمن إلف مألوف، يألف ويؤلف " ... وأصبحت أخشى من نفسي الأمارة بالسوء أن تدفعني للتودد إليه أو الإنصات لتلميحاته وصممت على نسيانه وجاهدت نفسي الخفية، وجهادها أعظم من الجهاد والقتال مع العدو المرئي للعيان ... ندرت زياراتي لجدّي وتذرعت بالمذاكرة، والحقيقة هي خوفي من لقائه ... سمعت طرقاته على باب حجرتي مرة أو اثنتين، فتجاهلت الأمر حتى ظن أني نائمة أو أصلي فلم يكررها ثانية ... وأوصيت (أم أحمد) ألا تناديني للعشاء لأي سبب كان وعللت لها ذلك بالدروس وكثرتها أيضاً، وأنني إن وجدت لي فراغاً فسأحضر من ذات نفسي .. بالفعل نجحت طريقتي هذه في الابتعاد عنه حتى ظننت أني قد نسيته ... لولا ما حصل ذات يوم .. في الجامعة ... خرجت مع صديقاتي من قاعة المحاضرات لأجده واقفاً أمام القاعة ... أصابني ارتباك شديد .. يا إلهي ماذا أفعل ... فكرت بسرعة ... ربما حضوره لسبب آخر ... ربما حضر لمقابلة شخص ما .. ارتحت لهذه الفكرة فأومأت له برأسي علامة على السلام واتخذت طريقي ابتعد عنه، فلحق بي بسهولة وناداني باسمي، تسمرت في مكاني، لاحظت (نبوغ) ذلك فاستأذنت في الانصراف إلا أنني طلبت منها الانتظار بينما أسأل ابن عمي عن الذي جاء به وأعود إليها ثانية .. فوقفت مع صديقاتنا الباقيات غير بعيدات عني ... التفتُّ إليه وسرت نحوه ببطء، كانت الابتسامة تملأ صفحة وجهه، ولا أعلم أكنت قد أفلحت في إخفاء ارتباكي أم لا، إذا أحسست أن الدماء تغور من وجهي ... حييته فطلب من أن أصرف صاحباتي لأنه يريد التحدث إلي قليلاً فأجبته:

– أرجوك يا (سامي) ... لا يمكنني ذلك ... ألا تهمك سمعتي ... لقد أخبرتهن أنك ستسألني عن أمر ما ثم تذهب .. ثم ليس هنالك ما يدعونا للحديث هنا! ... يمكننا التحدث في البيت إذا لم يحدث ما يهم الآن .. هل حدث مكروه ما لأحد في الدار؟

– كلا ... كلا ... لكني لا أجدك في البيت ... إما نائمة أو تدرسين .. أو ربما تتهرّبين مني ...

– لا .. ولماذا أهرب؟! .. حسناً .. أعدك ... أعدك أني سأنتظرك عصر هذا اليوم في الصالة ... ها ... هل انتهينا؟ هل ستذهب؟

– ما بالك يا (سامية)؟ لماذا أنت مرتبكة هكذا؟
– أنا مرتبكة؟!!
– ولونك شاحب!
– لا تمزح معي!
– بل هذه هي الحقيقة ...
– حسناً .. أعترف أني أخجل من الحديث مع أي شاب في الجامعة..
– طيب .. يمكنك الذهاب ... ولكنك وعدتني .. فلا تنسي ذلك..
– نعم ... إن شاء الله ...

ولم أصدق أنه ذهب لشأنه فتنفست الصعداء بعد أن مرت عليّ هذه الثواني ثقيلة ... وكأنها دهر ..

استبد بي القلق عصر ذلك اليوم وأنا أنتظره في الصالة كما وعدته حيث جلست (لمى) وعمتي تشاهدان التلفزيون ... وجاء (سامي) متأنّقاً وكأنه يود الخروج إلى نزهة مبتسماً فرحاً، ولم يجلس بل طلب مني مرافقته للسير في الحديقة قليلاً ... وافقته على ذلك .. بينما كانت دقات قلبي تتزايد شدّة ... ترى بماذا يريد التحدث إلي! ولم يطل انتظاري فقال:

– هل علمت بما حصل لأبي مع (أم نادية)!
– كلا .. في علمي أنهما تزوجا سراً أليس كذلك؟
– نعم ... سابقاً ... أما الآن فقد انفصلا ... طلقها ...
– حقاً .. ولماذا؟
– لم يفصح لأحد شيئاً ما!
– عجيب ... فكيف عرفت أنت؟!
– أخبرتني (نادية) بذلك .

صعقت لسماعي اسمها وانزعجت كثيراً فتوقفت عن السير بينما استمر هو إلى الأمام دون أن ينتبه إلي .. وكان يتحدث ظنّاً منه أني بقربه .. وفجأة اكتشف غيابي ... فعاد أدراجه يسألني بدهشة:

– ماذا حصل؟ هل حدث لك شيء ما! أأنت مريضة؟ لماذا توقفت؟!
– كلا .. لم يحدث لي شيء ... تسمّرت من الدهشة ...
– لماذا ألم تصدقي أن أبي طلقها .. أخبرتك وجدّي سابقاً أن لأبي نزواته التي سريعاً ما تزول ...
– أين ومتى التقيت بـ (نادية) فأخبرتك بكل هذه الأسرار!

بضحك قال:

– ما هذا! أتغارين منها! وأنت التي كنت تقولين أنك ...

سكت ولم أحر جواباً، وبعد تفكير أجبته:

– المسألة ليست مسألة غيرة، لكني عجبت كيف عرفت (نادية) أنك مطّلع على سرّ أمها ... وأنا متلهفة لسماع بقية الخبر ...

– آه .. فهمت ... نعم .. إذن هيا بنا نسير ...
– أخبرني أولاً ثم نسير ... تعبت من المشي ...
– حسناً ... جاءت إدارتي صباح يوم أمس، وأخذت في البكاء وكانت في حال يرثى لها من الألم ... حيث طلبت مني أن أعيد علاقتها بـ (لمى)، فهي لا تقدر على بعدها .. ولا يمكنك تصور ما حدث في المكتب .. تركت

باب غرفتي مفتوحاً وخلال كل خمس دقائق يمر أحد المستخدمين ملقياً بالتحية للمرة الثانية أو الثالثة .. وحتى المهندس (محمود) ... جاءني يستفسر عن أمور أنا متيقن أنه يعرفها جيداً .. الأمر الأدهى من ذلك هو المدير الداخلي وهو رجل عجوز متّزن ... بهره جمالها فجاء يطلب مني سيجارة ... وهو لا يعرف التدخين ... ولم يخرج من الغرفة إلا بعد أن أشعل السيجارة ونفث منها نفثة سعل على إثرها كثيراً ... وطلب مني أن أعرفه لـ (نادية)، ففعلت كذلك ولم يتركنا إلا بعد أن رآها لم تبال به .. وتنظر إليه شزراً ...

– ألا تلاحظ أنك تسهب في التفاصيل بلا داع .. هلا أخبرتني ما قالته لك؟

– حسناً ... شكت إلي معاملة زوج أمها الجديد ... وهو ليس أبي بالطبع بل شخص آخر تعيشان عنده، وأنا أعرفه ... وهذا يعني أن أبي قد طلق أمها منذ فترة طويلة ... وألم تلاحظي مكوث أبي في الدار منذ فترة، و .. ألن نسير ...

– حسناً .. تفضّل ... ها قد سرنا .. هل عرفت (لمى) بالأمر ...

– نعم ... وأما (نادية) من بين دموعها طلبت مني أن أخلّصها من وضعها ذلك ... بأن أتزوّجها!

– وأنت .. ماذا قلت لها؟!

– ماذا تظنين أني قلت لها؟

– لا أعرف .. فقط أخبرني ...

– ألا تلاحظين أنك عصبية المزاج هذا اليوم؟ لماذا لا تتحدثين بهدوء كعادتك؟ ...

– ... أنا آسفة ...

ولا أعلم لماذا ضحك وهو يقول:

– طلبت منها أن تمهلني لأفكر ... وأردت استشارتك في الأمر ..

أحسست بدوار وغثيان ولاحظ هو ذلك فقال:

– يبدو أنك لست على ما يرام ... تعالي نجلس على الكراسي هنا ...

شعرت بتحسن بعد أن جلست بقليل ولكني لم أستطع الكلام ..

– لعل سهرك في المذاكرة وتعبك في الجامعة ... قد أثّرا على صحتك ... باستطاعتك التغيب عن الدراسة ولو ليوم واحد تستردين فيه عافيتك..

– لا ... الحمد لله إني الآن بخير ...

– آسف إن كنت أتعبتك ... لكني رأيت من الضروري سؤالك فأنت لا تزالين طرفي الثاني في هذا الزواج وأرى من حقك أن تدلي برأيك فيه!

– وإن كان مؤذياً لمشاعرك!!

– نعم ... أريد الحقيقة لا غيرها ...

– هي لا تنفعك ... أنت الآن من الشباب المؤمن الواعي .. فكيف ترضى لنفسك بمثل (نادية)!!

– هذا صحيح ... لكني فكرت أنني لربما استطعت كسبها للدين وهدايتها إليه ...

– هذا ما يقوله الجميع ممن يعجب بالظاهر فقط فيحاول تبرير ميله إليها بهدايتها ... فالشاب عندما يعجب بامرأة متبرّجة سيحاول إقناعها بالحجاب ليستطيع الزواج منها ... هنالك من ترفض طبعاً ... وهنالك من ترضى ... والتي توافقه على الحجاب تكون في معظم الأحيان وبالاً عليه ... لأن ما تغير منها هو الظاهر فقط .. لا الباطن ... وكيف يتغير الباطن بهذه السرعة؟! ... اللهم فيما ندر ... وهنالك حالات قليلة تكون شخصية الزوجة فيها أقوى من الزوج ... فتجرّه هو للفساد ... أما في المعدل فإنها تكون بعيدة عنه وعن أفكاره، وقلما يلتقيان على أمر واحد ...

أكثر حياتهما منبر للنقاش ... وعندما يصحو هذا الشاب من حلمه يجد نفسه أباً للعديد من الأطفال ... فلا يستطيع التخلي عنهم لأنه مسؤول عنهم يوم القيامة ويحاسب عليهم إن نشؤوا طالحين ... كما يحدث الآن في الغرب ... الشباب المسلم المؤمن هناك يخشى على نفسه من الفساد ويحاول الزواج بأول امرأة أجنبية تصادفه .. ونادراً ما يتزوج من الجالية المسلمة المثقفة دينياً هناك، أتعرف لماذا؟

– لماذا؟

– لعدم تكافؤ الفرص هناك .. فالفتاة المحجبة تخفي جمالها عنه بالحجاب بينما تتفنن الأجنبية وبكل الوسائل في أن تثيره ... وميل النفس أمر لا مفرّ منه .. تراه يطيع هوى نفسه ويوهم عقله أنه إن جعلها ترتدي الحجاب سوف يرضي ربه وضميره وينسى أو يتناسى حديث النبي (ص):" إياكم وخضراء الدمن " وضررها عليه، ناهيك عن الأضرار التي ستلحقها بالأطفال ... فكيف ستربيهم!! وكيف ستعودهم على العادات الإسلامية؟ .. اللهم إلا إذا أذابت شخصيتها في شخصية زوجها ... وهو أمر إن لم يكن مستحيلاً فهو نادر ... لأن غالبية الأجنبيات أو بعض المتبرّجات في بلادنا يحتقرن الإسلام والمسلمين منذ الطفولة .. لا بل يكرهنه ويحقدن على الدين الإسلامي ... وما زواجها بالمؤمن إلا لمصلحة ... هي تريد زوجاً بأي ثمن كان .. فأي جيل سينشأ يا ترى؟ ... وأي أطفال نقدمهم للمجتمع؟ .. وماذا عن الأجنبية الجميلة التي اعتادت على المغازلة ... ألن تحن لماضيها .. أتخلص له كما تخلص المؤمنة المحجّبة ... لا أظن ذلك ... وهاهي الزيجات، الزيجات الفاشلات تعلن عن نفسها في المجتمع ... إن من كان مثل (نادية) لا يركن إليها .. وهذا شقيقك (سمير) أفضل دليل على ذلك! إن حياته جحيم ...

– صحيح ما تقولين ... نعم ... إن الحياة مع (نادية) تبدو أمراً مشكلاً ... لا مفرّ من ذلك ... إذن سأخبرها برفضي للزواج منها ...

– وهل ستحضر إلى .. إلى دائرتك ثانية ..

ابتسم وهو يجيب:

– طلبت منها عدم الحضور ثانية .. فأنا أهتم لسمعتي كثيراً ولا أحب أن تلوثها (نادية) ...

أحسست بالراحة لما قاله:

– هل يمكنني الذهاب الآن؟!

– بقي أمر صغير فقط ... أحب أن أسألك حوله!

– تفضّل ...

– تلك الفتاة الجميلة ذات القوام الطويل .. ذات العينين الزرقاوين ... التي خرجت معك من القاعة ... هل عرفتها؟

– تعني (نبوغ) .. ماذا عنها ...

– أ ... هل هي .. مخطوبة؟!

– كلا ... لماذا؟ هل يريد أحد ما خطبتها ..

– أهي فتاة طيبة؟!

– نعم ... بالتأكيد .. لماذا؟

– هل ... هل تستطيعين أن ...

– ...

– أن تطلبي لي يدها ...

ثارت ثائرتي لسماعي ذلك، وأحسست بالدماء تغلي في رأسي ولم أستطع أن أكتم هذه الثورة ... فنهضت وبغضب قلت:

– إذا أردت الزواج فتزوج ممن تشاء ... ولكن لا تجعلني واسطتك ولا تتوقع مني أية مساعدة في هذا المجال ... مفهوم!!

سرت باتجاه غرفتي بضع خطوات ثم عدت إليه أكمل ما بدأته بغضب:

– ولا تحاول أن تحضر إلى قسمي الدراسي ثانية وإلا حدث ما لا يُحمد عقباه ...

التمع في عينيه بريق لم أفهمه أكان دهشة أم فرحاً أم مزيجاً منهما ... قال:

– لا ... لم أفهم ... أنا مؤمن كما قلت .. وهذه حاجتي وقضاء حاجة الأخ المؤمن أفضل من سبع حجج مبرورات ... فلماذا ترفضين قضاء هذه الخدمة لي؟ ..

تركته مسرعة إلى غرفتي وأغلقت بابها جيداً خلفي وأخذت في البكاء والنشيج حتى خشيت أن يسمع صوتي من في الخارج ... وأخذت أشتمه في سري ... لأنه لعب بأعصابي أكثر مما أطيقه .. وقررت أنا ونفسي أن نهجره ولا نفكر فيه بتاتاً .. بل ننساه حقيقة .. الحمد لله الذي كشف لي حقيقته ... إنه يريد الزواج من أية فتاة سواء كانت فاسقة أو مؤمنة سواي ولا يهمه أن يجرح مشاعري ... وكأني غير موجودة على الإطلاق ... إنه خائن ... كذاب ... لن أميل إليه بعد اليوم ...

* * *

في صباح اليوم التالي وبينما كنت أغادر متجهة للجامعة عبر حديقة الدار لمحت (سامي) من بعيد، جالساً على أحد الكراسي في الحديقة ... يبدو أنه ينتظر أحداً ما ولأني قررت ألا ألقاه وهو لم يلحظني عدت أدراجي وخرجت عبر الصالة من ثم إلى الخارج .. أحسست بنوع من الراحة ... لأن خيالي جمح بي إلى أنه كان يجلس هناك وحيداً في انتظاري وإني بعملي هذا قد فوّت عليه الفرصة ... الإنسان يلجأ إلى مخيلته لينقذ بها كرامته المهدورة عندما لا يقدر على حل مشاكله في الواقع ... الخيال لدى البشر نعمة من الله لا تقدر بثمن ... تخيلته ينتظرني وقد خاب أمله بعد ساعة من الانتظار ... فضحكت في سري عليه .

في الساعة العاشرة عند انتهاء محاضرتي خرجت و (نبوغ) والباقيات ... ولم أبد لها شيئاً فهي لا ذنب لها فيما حصل ... وعندما سألتني عن سبب تورم عينيّ ... طلبت منها بلطف ألا تسألني عن السبب لأنني لا أريد أن أكذب عليها ... ولأنها إنسانة حساسة وغير فضولية غيرت مجرى الحديث بسرعة ... وسرنا سوية نحو بوفيه الجامعة ... وهناك رأيت (سامي) يقف بالقرب منه، وما أن شاهدني حتى أطفأ سيجارته ودعستها بقدمه ... أدرت وجهي عنه وتشاغلت بالكلام مع (نبوغ) ... لم أشاهده بعد ذلك طوال اليوم .. وعندما عدت إلى البيت ... انشغلت بأموري الشخصية وبالمذاكرة ... حتى قطع صوت (سمير) الهادر في الصالة عليّ سيل المذاكرة .. كان يزعق بغضب فيمزق السكون؛ تعجبت من ذلك إذ لم يبد له أي أثر منذ فترة طويلة منذ العطلة الربيعية ... وكنوع من التغيير قررت أن أغادر غرفتي إلى الصالة لأرى ما يحصل من حولي ... ملأ (سمير) الدنيا بصراخه وأنصتت عمتي و (لمى) في خوف، وفغر عمي فاه دهشة وغضباً، واكتست ملامح (سامي) الجالس بقرب عمي بالغضب وفي الطرف المقابل جلست زوجة (سمير) ناحبة باكية مخفية وجهها بيديها ... اقتربت بحذر وجلست إلى جوار (لمى)، وقبل أن أسألها عما يحدث أشارت إلي بالإنصات ... صرخ (سمير) يخاطب زوجته:

– قولي ... قولي لهم ... هيا تكلمي يا ... انطقي ليعرفوا من هذه الجالسة أمامهم، المتظاهرة بالتمدّن ... والثقافة أخبريهم عن إخلاصك ووفائك أيتها الوفية المخلصة ...

لكنها لم تتكلم ... بل بقيت تنتحب، وفجأة قالت:

– ولماذا كل هذا الكلام والصراخ ... أنا أكرهك ولا أحبك ... هيا طلّقني وحررني من قيودك ... إنك متخلف رجعي ... أنا لا أحب المتخلّفين أمثالك ... أنت أيها الوغد ...

أمسك (سامي) بـ(سمير) لئلا يعاود ضربها ...

سأل عمي:

– كفاكما صراخاً وليحك لنا أحدكما ما حصل؟

نظر (سمير) إليها شزراً ثم قال:

– في الفترة التي مرضت فيها أعطتني درساً لن أنساه ... وكشفت لي حقيقة هذه الأفعى المتلوّنة ... التي لا همّ لها سوى استنزاف نقودي إلى آخر فلس ... بقائي في الدار فترة المرض جعل الأمور تتّضح لي وفهمت أني لا أساوي لديها شروى نقير ... بدلا من أن تبقى إلى جواري تمرضني وتعنى بي، بدلاً من ملاطفتها لي بكلامها العذب، لتخفف عني آلام المرض ... صارت تظهر تذمرها ونفرتها من القيام بأبسط واجباتها نحوي، همها الوحيد ... كان الحديث إلى صديقاتها في التلفون ثم إلى ... أصدقائها ..

صاحت تقاطعه:
– كذب ... كذب ... ليس لدي أصدقاء ... إنهم إخوة صديقاتي فقط! ... إنهم ... لا علاقة لي بهم سوى الأخوّة ...
قاطعها بهياج:
– يا للأخوّة ... حقوق الأخوة أهم من حقوق الزوج ... زوجك المريض المرمي في فراشه ... تتركينه لوحده في الدار بلا معين ... وتخرجين كطلقة السهم استجابة لأول نداء هاتفي أخوي ... أيتها ال– ... أنت لم تعلمي أن هاتف الدار تحت السيطرة ... منذ أن شككت في أمرك وضعته تحته المراقبة ... وعرفت جيداً من هم هؤلاء الأخوة الذين تتبجّحين بالنطق بهم ...
أخرج ورقة من جيبه وقرأ أسماء لأشخاص لم أسمع بهم من قبل فثارت ثائرة عمي وصاح:
– يكفي ... يكفي هذا ... لا داعي للصراخ والكلام .. الأمر واضح ولا يحتاج للشرح ... إذن محاولتك في التخلص من الجنين كانت حلقة في سلسلة خياناتك لزوجك ... اخرجي من داري ... وإذا لم يطلّقك (سمير) فسأتبرّأ منه إلى يوم القيامة ..
(سمير):
– هذا ما أردت قوله منذ البداية ... وأحتاج إلى مساعدتك كي يتفهّم أهلها الحقيقة ... المخدوعون بها ... ليعرفوا أي بنت أنجبوا وليفهموا حقيقة تمدّنها وحريتها الفائقة للحدود ... إنها سخيفة ... أتعلم كانوا يخدعونها بأن صوتها رخيم فتذهب سريعاً لإحياء حفلاتهم الغنائية ... ضايقها وجودي كثيراً تلك الفترة ..
قاطعه عمي:
– خذها لدار أبيها يا (سمير) ولا تعد إلا وقد طلّقتها ...
أخذت تبكي ولعلها ندمت على فعلتها، فكّرت يجب الإصلاح بينهما فقلت لعمي برجاء:
– أرجوك يا عمي أن تحافظ على هدوئك أنت و (سمير) قليلاً ... لماذا لا تمنحونها فرصة أخرى لعلها تصلح من حياتها ... انظر إليها كيف تبكي بحرقة ... إنها نادمة ... الطلاق هو الحل الأخير في المشاكل وليس الأول ...
وبشكل هستيري نهضت زوجة (سمير) صارخة بي:
– أنت السبب ... أنت السبب في كل ما حصل ... ما كانوا يلوموني على أي شيء ولم يهتم بالنداءات الهاتفية قبل وصولك هذه الدار ... أنت المجرمة، بين كل كلمة وأخرى يقول لم لا تصبحين ك(سامية) ... (سامية) ... (سامية) .. في كل طبق وعلى كل مائدة (سامية) ... أنا أكرهك ولا أريد مساعدتك لي ... أنا حتى لا أطيق سماع صوتك ... أنت التي هدمت لي بيتي .. أقول له إنها جاهلة .. يقول لي هي في قمّة الثقافة ... وستصبح مهندسة عما قريب .. أقول له إنها رجعية .. يقول لي ليتك تصبحين رجعيّة مثلها تهتمين بالبيت وتعدين الطعام وتغسلين الملابس ... أنا لا أريد أن أكون مثلك وكذلك أنا أكرهك من كل قلبي .. أنت السبب .. ألم يكفك أنك أفسدت (سامي) وعقّدته ... والآن تتظاهرين بالحنان ..
عقدت الدهشة لساني ولم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة أرد بها على اتهاماتها القاسية لي ... ولحسن الحظ تدخل (سمير) وسحبها إليه قائلاً:
– الحق عليها أنها أشفقت على أفعى مثلك ... هيا إلى دار أبيك ... هناك سيفهمك أبوك من هو المعقّد الرجعي إلى عالم الغابة والحيوانات ... أنت أم هي ... أيتها البلهاء ... تحاولين تعليق تقصيراتك في عنقها ..
نهض عمي قائلاً:

– انتظرني يا (سمير) سآتي معك ... وأنت يا من كنت زوجة لابني .. لا تنبسي باسم (سامية) بلسانك القذر هذا ثانية ... هي لم تُفسد (سامي) أو تعقّده بل أصلحته وأصلحت الكثير من الأمور في بيتي ...

ثم التفت إلى البقية — ظناً منه أن سرّه لم يكشفه أحد — متحدثاً بسخرية:

– أصبحت (سامية) مصفاة الذنوب، فكل امرأة فاشلة في حياتها الاجتماعية والزوجية لا تطيق سماع اسمها وتنحو باللائمة عليها وتصفها بأبشع الصفات ...

تبادلنا أنا و (لمى) النظرات، فأخفت (لمى) ضحكتها ...

بعد مغادرة عمي و (سمير) وزوجته الدار، طلبت من (لمى) مرافقتي لزيارة جدّي فالحقيقة أني اشتقت إليه كثيراً وحرصت أن أجلب له (لمى) لتزداد فرحته ... وكان ما توقعت .. غمرته الفرحة وشعّت على وجهه لرؤية (لمى):

– أين كنت عني يا (سامية) العزيزة طوال هذه المدة ... أنت تعلمين أني لا أستطيع الخروج في الجو البارد ...

– أعتذر إليك بحرارة يا جدّي عن هذا التقصير ... لكن ثق أن الدراسة لم تتح لي الفرصة لزيارتك ... أرجو أن تسامحني لذلك .. وإلا بكيت!

قاطعني بسعال شديد جعلني أشعر بالخوف عليه ...

– ما هذا يا جدّي ... لم لم تستدع الطبيب .. وأنت يا (أبا خضر) لم تخبرني بمرض جدّي ...

– لم يرض يا بنتي .. إنه هكذا منذ أسبوع، عندما تنتابه النوبة يصفرّ ويزرق ...

هدأ جدّي قليلاً وبنفس منقطع قال:

– لا ... لا أريد ... طبيباً ... الطبيب سيجد لي ... سيستخرج لي أمراضاً منسية ... أنا رجل ... كبير ... ويا الله حسن الختام .. و ..

عاودته النوبة بشكل أقسى ... فلم أعد أطيق الجلوس والتفرّج عليه، غادرت متجهة إلى الدار عبر الحديقة فكان (سامي) يسير باتجاهي وأحسست أن صحّة جدّي أهم عندي من الخصام مع (سامي)، فأخبرته بمرضه، وذهب على الفور، ولم تمض ساعة حتى كان الطبيب يكتب له الدواء ويوصي له بأنواع الغذاء ... بعد ذهاب الطبيب صارحنا (سامي) على حِدة أن الطبيب لا يتأمل في حياة جدّي الشيء الكثير ... طفرت الدموع من عيني رغماً عني ... وقلت له:

– إنه طبيب ليس إلا ... أرجو أن يكون مخطئاً .. لا ... لا أتصور ذلك ...

ربّتت (لمى) بيدها الرقيقة على كتفي وقالت بحنان:

– لن نتركه في أيامه الأخيرة .. سنتناوب معاً على رعايته ... أليس كذلك أنا في الصباح وسوية في المساء ...

خففت من حزني عليه كثيراً، وشارك (سامي) القول بمرح:

– وأنا سأمر عليكما يومياً ... لأطمئن عليكما وعلى جدّي ... ماذا دهاكما ..

عبسنا بوجهه فصحح:

– أقصد ... لأطمئن عليه فقط!!

وهكذا مر الأسبوع كما اتفقنا أنا و (لمى) ... لكن صحّة جدّي كانت تتدهور باستمرار .

رغم أني اليوم استلمت نتيجة امتحان النصف الأول وكانت جيدة جداً، فقد أحسست باكتئاب شديد أجهل سببه ... لاحظت (نبوغ) ذلك فقالت بعتب:

– أهكذا الأصدقاء يا (سامية)؟! كنت أتصور نفسي أقرب الناس إليك وهاأنا أراني ... أبعدهم عنك ... منذ الصباح وأنت ساكتة على غير عادتك ... إنك تخفين عني أمراً هاماً ... هيا .. أخبريني فإنه " من اشتكى إلى مؤمن فكأنهم اشتكى إلى الله ومن شكى إلى فاسق فكأنما شكا الله " ... وأرجو أن تعتبريني مؤمنة ..

– ونعم الفتاة المؤمنة أنت .. لا أمر هام أخفيه عليك ... أحس بانقباض في صدري وصعوبة في التنفس ...

– لعلّها نزلة برد!

– كلا ... فصحتي جيدة والحمد لله ... أحس بكآبة أجهل مصدرها ...

– عسى أن يكون خيراً ... هيا اقرئي قل أعوذ برب الناس ...

فعلت ذلك وأحسست بنوع من الارتياح، بعد المحاضرة وجدت (حسناً) يقف بانتظاري ... شهقت لرؤيتي وأوجست في نفسي ريبة ... بادرني:

– إن جدّي ... يحتضر ... علينا بالإسراع للقياه ... إنه يريد رؤيتك أنت بالذات ...

ولم أستمع للباقي بل جذبته من يده وأسرعنا نستقل أول تاكسي صادفناه ... ووصلنا ... لكن ... بعد فوات الأوان ...

دخلنا إلى بيته في الفناء ... الجميع حوله ... بين باك وناحب وحزين ... أما هو، فأساريره كانت تشع راحة وكأنه قد تخلّص إلى الأبد من همّ ثقيل ... أحسست بسخونة دموعي المنحدرة على وجنتي ... حاولت التماسك؛ رمت (لمى) بنفسها على صدره باكية ناحبة .. ترفض تركه أو السكوت مهما حاولنا معها ... وأخيراً فكّرت في القرآن الصغير الذي أحمله دوماً معي فأخرجته من حقيبتي وبهدوء ... قدمته لها وأنا أبكي قلت لها:

– إذا كنت تحبينه حقاً ... اقرئي له سورة ياسين ... هيا توضئي واقرئيها .. سترتاح روحه أكثر مما تفعلينه ... الآن ...

الحمد لله ... أنها استجابت لي، جلس (حسن) قرب رأس جدّي وتلا آيات قرآنية بصوته الحنون العذب ... بعد قليل انتبهت إلى اختفاء (أبي خضر) فسألت عمتي عنه فأجابتني أنها أرسلته يستدعي أمي وأبي وأخي الكبير لحضور مراسم الدفن .. ثم جذبتني إلى إحدى الزوايا وقالت:

.(سامية) .. يا عزيزتي ... لشد ما سأل عنك جدّك ... كان يريد رؤيتك قبل أن ... أن ولما أحسّ بدنو أجله ... أوصاني أن ...

ولم تستطع أن تكمل الباقي ... فأشارت إلى (سامي) يخبرني:

– قال جدّي ... سلّموا لي على (سامية) ... وأخبروها ... أنها كانت أحب أبنائي إليّ ... عشت أسعد فترة حياتي بوجودها ...

كان (سامي) محمرّ الحدقتين وهو ينقل لي حديث جدّي، والتأثّر واضح على سيماه ... الحقيقة أن حزني تضاعف عند سماعي وصيته وشعرت بتأنيب حاد للضمير فقلت:

– كيف أخفيت الحقيقة عنه ... كان يجب أن أخبره بها إنه كان مخدوعاً بي ... أنا غششته ... أنا لا أستحق حبه واحترامه لي ..

طأطأ (سامي) رأسه، لربما هو أيضاً يشعر بذلك، أقبل (حسن) نحوي وربت على كتفي ملاطفاً:

– لا عليك يا (سامية) ... لا تذهب نفسك حسرات ... أنت لم تفعلي خلاف رأيه .. لقد وافقت على الزواج بمحض إرادتك ... وكنت مستعدة للحياة كزوجة ... فلا تلومي نفسك ... وأنت أسديت له معروفاً بعدم

سردك للحقيقة بلا شك ... المهم أنه ذهب إلى ربه راضياً عنك فهنيئاً لك ...

* * *

مرت أيام مراسم بعد الدفن كأقسى ما تكون، حضر فيها الكثير من المعارف، وكالعادة خصص البهو الكبير للرجال وغرفة الضيوف للنساء، ونشط (حسن) و (سامي) في إحضار القرآن المجزأ – وهو قرآن كامل يقسّم على شكل أجزاء صغيرة بالترتيب في كل جزء بعض الآيات – وقد تمّ ختم القرآن وأُهدي ثوابه لروح جدّي مرات عديدة ...

كان لموت جدّي الوقع الهائل في نفس الجميع، أما أثره الأكبر فكان وقعه على (لمى)، أصبحت كئيبة حزينة، سارحة أغلب الوقت .. بعد انتهاء المراسيم، أخذت أتقرب إليها أكثر ولازمتها حتى عادت تقريباً إلى وضعها الأول ... لم أتوقع منها ذلك، فهي لم تهتم بجدّي سابقاً ولم تعتد عليه إلا في الفترة الأخيرة ... خرجت ذات يوم وإياها نسير في الحديقة ونتحدث معاً، قالت:

– إني أحس يا (سامية) بالذنوب تُثقل كاهلي ... وأرجو أن تعمني رحمة الله فيغفر لي ...

– أحسنت في اعتقادك برحمة الله الواسعة فلا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون .. اسمعي قرأت حديثاً عن رسول الله (ص):" أربع من كنّ فيه لم يهلك على الله بعدهن هالك: يهمّ العبد بالحسنة فيعملها فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيّته، وإن هو عملها كتب الله له عشراً، ويهمّ بالسيئة أن يعملها فإن لم يعملها لم يُكتب عليه شيء، وإن هو عملها أُجِّل سبع ساعات، وقال صاحب الحسنات لصاحب السيئات وهو صاحب الشمال: لا تعجل عسى الله أن يتبعها بحسنة تمحوها، فإن الله يقول:﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، أو الاستغفار فإن هو قال: (أستغفر الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، العزيز الحكيم، الغفور الرحيم ذو الجلال والإكرام وأتوب إليه) لم يكتب له شيء، وإن مضت سبع ساعات ولم يتبعها بحسنة ولا استغفار، قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات: أكتب على الشقي المحروم ".

– يا الله ما أرحمه وأوسع مغفرته جلت صفاته ... إذن فليس الموت هو نهاية الحياة ... إذ لا معنى لأن يفنى الإنسان لمجرد الفناء فقط ألست معي في هذا يا (سامية)؟

– بالطبع يا عزيزتي ... عن النبي (ص):" ما خلقتم للفناء، بل خلقتم للبقاء، وإنما تنقلون من دار إلى دار، وإنها في الأرض غريبة وفي الأبدان مسجونة "، وقال تعالى:﴿...كذلك يجزي الله المتقين * الذين تتوفّاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾، وجعل سبحانه وتعالى نار جهنم عقاباً للمجرمين والكفرة والمشركين ... وهذا أمر مطلوب للعدالة بين البشر ... والله سبحانه هو العادل الأعدل ...

– إذن فجدّي في الجنة!!

– إن شاء الله يا (لمى) .. لقد كان طيباً مؤمناً ... محسناً للجميع ... جزاه الله بالنعيم في الجنة ...

.(سامية) هل يمكنك وصف الجنّة لي ..

– ما أصعب ذلك! حسناً .. عن الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب (رض) يصفها بقوله:" فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذّاتها وزخارف مناظرها، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار غيّبت عروقها في كثبان المسك على سواحل أنهارها، وفي تعليق كبائس اللؤلؤ في

عساليجها وأفنانها وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها، تجنى من غير تكلّف فتأتي على مُنية مجتنيها، ويطاف على نُزّالها في أفنية قصورها بالأعسال المعتقة والخمور المروَّقة .. قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتى حلّوا دار القرار، وأمنوا نقلة الأسفار ... فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة لزهقت نفسك شوقاً ولتحمّلت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا الله وإياكم ممن سعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته ".

وعنه (ص):" إن أنهار الجنة تجري في غير أخدود، أشد بياضاً من الثلج، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، طين النهر مسك وأذفر، وحصاه الدر والياقوت ... تجري عيونه وأنهاره حيث يشتهي ويريد في جنانه وليُّ الله، فلو أضاف من في الدنيا من الجن والإنس لأوسعهم طعاماً وشراباً وحللاً وحلياً لا ينقصه من ذلك شيء ".

– يا الله ما أعظم ذلك يا (سامية)؟! وكيف السبيل إلى ذلك؟!

– ذلك أمر يسير، قال تعالى:﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقاً﴾. وأفضل الأعمال هو الإيمان بالله والتصديق به والجهاد في سبيله والحج المبرور، وأهون من ذلك إطعام الطعام ولين الكلام والسماحة وحُسن الخلق وكذلك ألا نتهم الله في شيء قضاه علينا ... وأهم الأعمال الصلاة على ميقاتها ثم بر الوالدين ثم أن يسلم الناس من لسانك ... وسيد الأعمال ثلاث: إنصاف الناس من نفسك، ومواساتك الأخ في الله عز وجل، وذكر الله على كل حال، وأما أحب الأعمال إلى الله فهو سرور تُدخله على مؤمن تطرد عنه جوعته وتكشف عنه كربته، وأدوم العمل أدومه وإن قلّ ...

واستمرت طوال اليوم تسألني مختلف الأسئلة وأنا أجيبها باستيعاب ومحبة، فشجعتها على المطالعة وأهديت لها العديد من الكتب التي لدي ... اهتمت أن تقرأ فيها وتسألني عمّا تجهله منها ... مرت أيام الأسبوع سريعة وكان أبي وأمي قد بقيا ضيوفاً على بيت العم حسب ما هو متعارف ليستقبلوا المعزين، بينما عاد أخي الكبير وزوجته إلى دارهما ... في نهاية الأسبوع جاءتني (لمى) تطلب مني بتلعثم أن أخيط لها جلباباً مع حجاب للرأي ترتديه أثناء الخروج أو وجود الأغراب في الدار .. لم تسعني الفرحة فضممتها إليّ بقوة وقبّلتها مراراً.

ذهبنا إلى السوق لننتقي لها قطعة قماش للجلباب ... اللطيف أنها رفضت الخروج من الدار بلا حجاب فأعرتها واحداً مني وكان واسعاً عليها .. رغم ذلك أصرت على ارتدائه ... اشتريت لها القماش هدية مني على تحجبها، وعندما عدنا إلى الدار، أمضيت الليل في خياطته ... في الصباح كانت (لمى) الجميلة تبدو كلؤلؤة متألّقة وسط صدفتها .. لم تبدِ عمتي أو (سها) اهتماماً بالأمر ... فحمدت الله لذلك فهما إن لم تهتما بها أفضل من أن تحارباها على ارتدائها الحجاب ... أما (سامي) و(سمير) فقد شجعاها كثيراً ... وقفتْ في الصالة أمام المرآة تشاهد نفسها فيها تدور حول نفسها تارة ... وتشاهده من الجانب تارة أخرى والفرحة لا تكاد تسعها ... تُصلح غطاء الرأس ... ثم تعيد فتحه ... وكنت أراقبها تفعل ذلك وأنا فرحة بها أيضاً ... اقترب (سمير) مني وسألني:

– إذا سمحت يا (سامية) أود التحدّث إليك قليلاً ...

– بكل سرور ... تفضل .

– المكان هنا لا يصلح للحديث ... أيمكننا التحدث في الحديقة ..

– لا مانع .. تفضّل ...

وفي الحديقة بدأ يتحدث عن نفسه:

– كما تعلمين أن قصة زواجي قد انتهت .. بالفشل وال– ... الطلاق وأنا الآن ... وحيد ... أود أن أدخل بالموضوع مباشرة ... لقد اعتبرت من زواجي السابق من إنسانة .. تدّعي الثقافة والتمدن .. ولا تعرف منهما إلا الجانب السيئ .. من حفلات وسهرات ماجنة .. لم تهتم بي ... ولم تهتم أن تنجب لي ولو طفلاً واحداً ... المهم ...

أنت مطلّعة على هذه الجزئيات .. لذلك ... أريد الاقتران من جديد بفتاة مؤمنة ... ومحجبة ... لا تخافني ... بل تخاف من ربها ... فلا تخونني أو تغشني ... إنسانة عادية ... غير متطورة التطور المزعوم ... وقد ... فكرت ... أنه .. ربما ...

وسكت عدة دقائق، فقلت أستفهم منه:

– ربما ماذا يا (سمير)؟ هل تحب أن أساعدك في خطبة إحدى صديقاتي ...

قال مسرعاً:

– إحدى صديقاتك .. لا ... أنت ... أنت

– لم أفهم شيئاً .. أنا .. ماذا؟

– لقد فكرت أنه ربما بعد قراءة الوصية بعد غد، أنك و (سامي) .. ستنفصلان ... تلقائياً .. فحسب ما أرى أنكما لا تريدان الزواج من بعضكما ... وقد فهمت من (حسن) أن والدك يحتاج إلى ثروتك .. وبذا لن تكوني غنية ... وأنا لم أعد أهتم بالثروة ... بقدر ما أهتم بذات الفتاة وأخلاقها ... ففي تجربتي الماضية الكفاية ... فإذا كنت لا تمانعين في الزواج مني ... فسأكون في قمّة السعادة ... لا .. لا تقولي شيئاً الآن .. فكري جيداً ... وتمهّلي في التفكير ...

فاجأني بعرضه اللامتوقع هذا، إنه لا يريدني لشخصي، به هو يريد إنسانة عرفها وعرف أخلاقها عن قرب، ولا يثق أو أنه يخاف من أية إنسانة لا يعرفها، يخاف الفشل ثانية ... وإلا ما وجه التشابه بيننا .. قلت أجيبه:

– هل ترى أن الوقت مناسب للحديث عن الزواج ... هذا جدّي لم يمض على وفاته أسبوعان وأنت تفكر في الزواج ... على أية حال ... أنا لا أحتاج للتفكير في عرضك .. فأنا قد اتخذت قراراً بعدم الزواج حتى إنهائي لدراستي الجامعية .. بعد أن يطلّقني (سامي) .. بالطبع .. وأرجو أن تحسن تقدير موقفي ... ثم إن بإمكاني السعي في تزويجك ممن هي أفضل مني ... فأنت لا تريد من تخونك وهن الأغلبية في الفتيات بحمد الله .. فلا تبتئس .

– حسناً ... بشرط أن تكون مثلك ...

– أو ربما أفضل مني .

عندما عدت مع (سمير) إلى الصالة لاحظت أن (سامي) كان يقف خلف الشباك المطل على الحديقة، وحدست أنه ربما كان ينظر إلينا .. أو يراقبنا ... عند دخولنا سوية، علّق (سامي) بسخرية تشوبها مرارة:

– ما هذا يا (سمير)؟! ... اجتماعات سايكس بيكو الثانية؟!

– لا .. لا شيء مهم .

– إذن بماذا كنتما تتحدثان .. هل هو سر؟

– ليس بسر .. طلبت يد (سامية) .. فرفضتني .

– اخرس ... كيف تطلب يدها .. وكيف يمكنها القبول بك يا مغفّل ... إنها لا تزال زوجتي ..

قال (سمير) ملاطفاً بعد أن تسبب في غضب (سامي):

– لماذا الغضب يا عزيزي... أنتما ستنفصلان على كل حال، فلم لا أفكر الزواج منها .. إنها طيبة وجميلة و ..

– كفاك هذياناً .. ولا تغازل زوجتي أمامي يا هذا وإلا ...

– حسناً ... حسناً ... أنا آسف .

والتفت (سامي) إليّ يراقب ردّ فعلي .. فتظاهرت بالبحث وأنا ألتفت خلفي وحولي وأنا أجيبه:

– زوجتك .. أين هي؟ لماذا لا أراها إذن؟!

غادر محله واقترب مني حتى وقف قبالتي وبغضب قال:

– تعالي معي أريكيها في المرآة ...
ورغماً عني ضحكت:
– لا داع لذلك ... المرآة مشغولة الآن بـ (لمى) ...
.(سامية)، أريد أن أوضّح لك بعض الأمور قبل قراءة الوصيّة ... و...
قاطعته:
– لا حاجة للتوضيح ... إذا أردتني أن أرحل فسأفعل ذلك اليوم ...

الحقيقة أنني كنت أغالط نفسي بهذا القول .. ولكن ما العمل فكرامتي أهم من كل شيء ... ولن أذلّ نفسي أكثر ... يكفيني مهانة أن أبي هو الذي دعاه للزواج مني ورفض هو ذلك ... ولا زال يتلاعب بمشاعري وأعصابي ... مرة يقول يعزّ عليّ فراقك .. وأخرى يريد الزواج بـ (نادية) ... ثم ينتقل منها إلى (نبوغ) ... إنسان مشوّش التفكير فماذا يريد أن يقول بعد هذا سوى إنهاء وجودي في الدار ... إذن الأفضل لي أن أكون أنا صاحبة هذا الاقتراح بدلاً عنه .. ولن يخدعني بقوله عني أنني زوجته ... وما أدراني فقد يكون طامعاً بالثروة ربما أعتقد أن بإمكانه إقناعي بها أو ببعضها ... عندما وصلت بتفكيري إلى هذه الناحية أحسست بكآبة وحزن كبيرين ... فالإنسان يفضل الحلول والأفكار السعيدة وليس العكس ...

وبمرارة وعتب خاطبني:
– وهل قلت أو تصرفت تصرفاً ما فهمت منه أني أريد إسراعك بالرحيل؟
– يقولون أن الفهيم تكفيه الإشارة ...
– أعرف أنك فهيمة، لكنك أسأت الفهم هذه المرة ...
– إذن، فأنت لا تريد رحيلي ...
– بالطبع لا .. لا الآن ولا فيما بعد ...
– شكراً جزيلاً ...
– لهذا أردت توضيح بعض الأمور لك ...
– تفضل ...
– لنذهب للحديقة .. هناك أهدأ ...
– الحديقة مرة ثانية .. أنا آسفة ولا وقت لدي للحديث، سهرت طوال ليلة أمس لإنجاز الزي الإسلامي لـ(لمى)، ثم ذاكرت وذهبت مباشرة إلى الجامعة ولم أنم إلا قليلاً أفقت بعده لأكمل خياطة الزي وإلى الآن لم أنعم بنوم هادئ مريح، ولن أستطيع ذلك لأن لي منهاجاً مملوءاً بالمواد الدراسية التي تراكمت بعد .. وفاة المرحوم ...
– كلمتان فقط:
– أرجوك اعذرني ... أنا متعبة جداً ... لربما سأسيء فهمك ثانية كما تقول .
– حسناً لنؤجّل ذلك إلى فيما بعد .. عندما تنالين قسطاً من الراحة ... ولكن عديني، أن تفسحي لي المجال لإيضاح ما أريده لك ...
– أعدك بذلك ...

* * *

في الصباح لم أذهب إلى الجامعة، فموعد قراءة الوصية قد حان، اجتمع الجميع في منزل جدّي في الفناء حيث خزانته الكبيرة تقبع في أحد أركان الصالة ... حضر محامي جدّي وأخرج إحدى الظروف الصغيرة من حقيبته وقرأ بصوت عال:

– يُفتح بعد موتي ...

فتحه وأخرج منه مفتاحين أحدهما صغير والآخر كبير للخزنة ... فتحها المحامي وأخرج الأوراق والمستندات ثم رزم النقود منها ... فتح مظروفاً كبيراً وردي اللون وأخرج منه دفتران مصرفيان أحدهما باسمي والآخر باسم (سامي) يحمل في طياته رقم المائة ألف دينار لكل منا وقال:

– يمكنكما الاستفادة منهما منذ الآن وهذا هو الرقم المصرفي السري مكتوب لكل منكما ... تفضلا ...

استلمته منه وقدمته مباشرة لأبي قائلة:

– يمكنك الآن فك رهان البيت والمصنع ...

طأطأ أبي رأسه وغمغم بكلمات فهمت منها (إذاً فأنت تعرفين) ... و(سامحيني)، أما (سامي) فكان فرحاً بشكل لا يوصف ...

– وأما البيت الذي عاش فيه جدكم هذا فقد سجله رسمياً للسيد (أبي خضر) لوفائه وإخلاصه له طوال حياته..

التفت الجميع إليه وكان كعادته يجلس في المطبخ بعيداً ...

قال له (سامي):

– مبروك يا (أبا خضر) ...

نظر الجميع بعضهم إلى بعض ثم وببطء هنؤوه واحداً بعد الآخر ... عندها أخذ يبكي ويترحّم بصوت عال على جدّي ... انتقل المحامي إلى رزم الأوراق النقدية فأكمل يقول:

– في وصية الجد يقول: إن لي الحق في ثلث هذه الرزم النقدية بعد موتي وهو حق من الله سبحانه وتعالى، أرجو أن يصرف هذا الثلث في التصدق على الفقراء أو في بناء أحد المساجد أو قضاء صوم عام على روحي للثواب؛ على أن يشرف (أبو خضر) على ذلك ... وثلثي الرزم يُقسمان مناصفة بين ابني، علّهما يذكراني بخير بعد موتي والسلام .

وهكذا حصل، وانفضت الجلسة وعاد الجميع إلى الصالة فأحضرت (أم أحمد) فناجين الشاي للجميع وعمّتهم الفرحة وذكروا جدّي فقرؤوا له الفاتحة. اتصل (سامي) هاتفياً بالمصرف وعندما تأكد من وجود المبلغ غادر مسرعاً ليثبت أحقيته فيه .. استمرت أحاديث أبي وعمي حوالي الربع ساعة، بعدها طلب أبي مني إحضار أمتعتي استعداداً للمغادرة وقال يخاطب عمي:

– حسناً يا أخي ... انتهت اللعبة ... نفّذت الصفقة، وعلينا استرداد بضاعتنا ...

ضحك عمي والباقون، ولدهشتي سمعت عمي يصر قائلاً:

– اترك (سامية) لنا، إنها أحسن كنّة عندي ...

فأيّدت (لمى) بحرارة:

– نعم .. نعم ... دعها عندنا .. وأنت يا (سامية) لا تعودي ... أرجوك ... إني أحبّك .. حقاً ...

صافحتها وأنا أعتذر إليها بأن هذه هي رغبة أبي .. ولم أستطع الكلام بعدها فقد انحبست الكلمات في حلقومي وتعسر عليّ النطق ... فلم أتوقع أن يكون الوداع صعباً إلى هذه الدرجة ... حتى أن عمتي قالت بلهجة يملؤها الحنان:

– لا .. لا يا (سامية) لا تذهبي ... ألن تنتظري عودة (سامي) ... إنه .. سيحزن إن لم يجدك كثيراً ... جداً.

– لا يا عمتي .. لا أظن ذلك ففرحته بالمال ستنسيه كل شيء .. كل شيء .

ورأيت الانكسار واضحاً في عيني (سها) و (سمير)، وحتى (مراد) .. علّق بسخرية مُرّة:

– كيف تتركينه ... إنه لم يرتد العمامة بعد ... والويل له إن فعلها ..

ضحكت أو تظاهرت بالضحك وعدوت نحو غرفتي والدموع تكاد تتفجر من مآقي .. أغلقت الباب وأخذت أبكي في صمت ... أبكي الأيام الخوالي .. أبكي جدّي وطيبته ... ترى لماذا أراد لي هذا المصير؟ .. أكان مهتماً حقاً بتوزيع ثروته لابنيه كما أخبرني .. كلا .. لا أظن ذلك .. فهو قد فعل ما حلا له دون سيطرة من عمي عليه ... ترى .. هل قرأ محبتي له في عيني وأنا طفلة فأرادني إلى جواره في سنيّه الأخيرة .. أم أراد التقريب بين ابنيه اللذين يحبهما أكثر من نفسه .. مسحت الدموع وأسرعت في حمل الحقيبة فأنا أتحاشى وداع (سامي) .. لأني لا أطيق ذلك .. رغم أنه سبب لي الكثير من الأحزان والآلام في الآونة الأخيرة ... عدت إلى الصالة، وقف أبي وتلقف (حسن) الحقيبة مني وغادرنا إلى سيارة الأجرة المنتظرة خارجاً، ركبها أبي و (حسن) وانتظرا أن أنتهي من تقبيل عمتي و (سها) و(لمى) وأشرت بيدي لـ (سمير) و(مراد) أودعهما وأنا أجلس إلى جوار (حسن) في الخلف .. انطلق السائق ينهب الأرض نهباً وكأنه أحسّ برغبتي في الخلاص من الوداع بسرعة ... استقبلتني أمي بالزغاريد والفرح .. قبّلتها كثيراً وسعدت بها وسألتها عن غرفتي أما زالت على عهدي بها، فأكّدت لي ذلك، أردت الصعود إليها فسمعت أبي يناديني:

– انتظري يا (سامية) .. هل تعلمين يا (أم حسن) أن (سامية) هذه الطفلة الحبيبة، كانت تعرف ومنذ البداية بقصة رهن الدار وديوني ... ضحّت بنفسها من أجلي يا (أم حسن) .. اشهدي لي أني راض عنها كل الرضا ...

قبّلتني أمي وقالت:

.(سامية) نِعم الفتاة المؤمنة .. وأنا راضية عنك أيضاً ...

ومن بعيد صاح (حسن):

– وأنا لا!

التفتنا نحوه، وقلت متسائلة:

– ولماذا يا (حسن)؟

صاح:

– أنت لا تفكرين في أخيك مطلقاً ... أنا أخوك و وهذه بنت عمك تحبّك وتسمع لأقوالك .. ولا تخطبينها لي؟ ..

قلت مشاكسة:

– يا ولد .. هل جلبت نظرك! لماذا لم تحدثني عنها إذن من قبل؟

– لم تكن محجّبة لتلفت نظري ... أما الآن .. فالأمر مختلف ..

فرحت أمي وقالت:

– دعنا نتخلّص من الرهن ... وبإذن الله سأخطبها لك أنا و (سامية) .. هيّا احمل أمتعة أختك إلى غرفتها ..

أجاب:

– ما شاء الله .. ابتدأت أعمال السحرة ... وابتدأ معها الاستغلال ألا يمكن أن تخطباها لي دون أن أقوم لكما بكل أعمالكما ...

ضحكنا سوية وصعد أمامي يحمل الحقيبة ثم سألني بتردد ..
.(سامية) لماذا لم تنتظري .. عودة (سامي) .. أعني .. ليس من اللائق تركه .. دون وداع ..
– هكذا أفضل ..
– لكنه الآن .. أقصد أنه ...
– تكلم يا (حسن) ما الذي تودّ قوله؟
– أف منك .. لا تدعين للمرء فرصة للتفكير فيما يريد قوله ... أردت أن أقول أن (سامي) اليوم يختلف عن (سامي) الأمس .. فلماذا لا ترضين به زوجاً ... إني أحبّه كثيراً ... في الواقع أكثر من (عمار) بكثير ...
أدرت وجهي عنه وأنا أقول:
– أتعرف لماذا؟
– كلا .. لماذا؟
– لأنه ببساطة .. لم يطلب يدي ولو مرة واحدة .. هكذا الأصول .. أليس كذلك؟
ابتسم وربت على كتفي ثم خرج وتركني لوحدي ... بعد ذهابه أحسست أني في قمة التعاسة .. وتمنيت لو أنه لم يذهب .. أو أطال الكلام معي في هذا الموضوع ... فهو قد صارحني بما هربت من مصارحة نفسي به .. ثم لماذا لم يطلب (سامي) يدي .. منذ الصباح أحسست أن الجميع يعملون ويحسّون شيئاً كان يجب أن يحدث لكنهم يكتمونه ... ذكرت قول عمتي عن حزن (سامي) إن لم يجدني ... أحقاً سيفعل ذلك .. هل حدّثها بشيء ما جعلها تحس ذلك .. أم هو شعور المرأة أخبرها باهتمامه بي .. وهل يهتم بي حقاً ... ليته يفعل ... ليتني لم أرض بالتضحية من أجل أبي .. كم كنت سعيدة وهادئة البال .. لم أعرف للهموم سبيلاً فإذا بها تسيطر عليّ ... إني أعرف أني أدوس على مشاعري وقلبي عندما أحاول نسيانه ... وهل نجحت في ذلك؟ لا أعلم ... و (حسن) هذا ... كيف يتجرأ ويسألني مثل هذا السؤال ... وإذا كان هو يحبه فهل ألوم نفسي .. لا ... هذه نزغات من الشيطان ... إنه رجل أجنبي عني ولا يجوز لي التفكير به ... يجب ألا أسمح لنفسي بالسيطرة على عقلي ... إنه جهاد النفس ... والحمد لله على كل حال .. هذا أمر قد انتهى ... يجب أن أبدأ حياتي من جديد ... سأشرع في تنظيم ملابسي وكتبي ...
انتهيت بسرعة من إعداد كل شيء، وخلعت الحجاب لأول مرة منذ أشهر ونزلت إلى المطبخ بملابس المنزل، أساعد أمي .. أمي التي كانت الفرحة لا تسعها .. أعددنا المائدة وتحلقنا حولها وقبل أن تمتد أي يد إلى الطعام ... رن جرس الباب ... أراد (حسن) الذهاب لرؤية الطارق فطلبت منه أن أذهب أنا .. إذ لربما كانت إحدى صديقاتي ... ارتديت العباءة وفتحت الباب وشهقت لأني رأيت (سامي) واقفاً أمامي وقد وضع يديه في جيبي بنطلونه .. لم أعرف كيف أتصرّف .. واضطربت، على عكسه، هو يقف بهدوء وسكينة .. ولما رأى اضطرابي سألني:
– ألن تدعيني للدخول .. أأبقى هكذا كالمتسوّلين .. ألا يكفي أنك هربت مني .. والآن لا تسمحين لي بالدخول لدارك ... ما هذا؟ هل أنا سيئ إلى هذه الدرجة ..
قلت وأنا أعتذر وأحاول إخفاء اضطرابي:
– العفو .. إني آسفة .. تفضّل ... ولكن .. لا .. انتظر لأخبر أمي ترتدي عباءتها ...
أسرعت أمامه فدخل وأغلق الباب خلفه ومشى ببطء ... عندما فهم الجميع من القادم نهض أبي و (حسن) لملاقاته وارتدت أمي عباءتها وأخذت ترحب به بصوت عال:
– أهلاً .. أهلاً .. يا بني ... تفضل على الرحب والسعة ...
قال:
– عمتي أشم رائحة طعام زكيّة ...

- نعم ... نعم .. يا بني ...
(حسن):
- هيا ... حماتك تحبك كما يقول المثل ... تعال وشاركنا الطعام ..
دخل وهو يقول:
- أرجو ألا تكون (سامية) قد أعدته ..
- لماذا؟ هل طبخها رديء لهذه الدرجة؟
- أوه يا عمي .. لا تعلم كم تجرّعت من الغصص أثناء مرضي ... كانت هي التي تعد الطعام لي ولـ (لمى) ...
أجبت بسرعة:
- كلا يا أبي لا تصدّقه ... إن طهوي لذيذ للغاية ... لكنه كان مريضاً فكل ما يأكله أو يشربه يحس بمرارة مذاقه ...
قال:
- حسناً .. لنر الآن ..
وأخذ يتناول الطعام وكأنه واحد منا .. بعد ذلك أحضرت له الشاي، تناوله مني وتعمد أن يسمعني سؤاله:
- لماذا أسرعتم في الذهاب يا عمي .. عدت ولم أجدكم ... فتفاجأت ..
قال أبي:
- الحق معك ... ولكني مثلك فرحت بالمال فنسيت كل شيء ..
أجابه:
- لا يا عمي ... أرجوك .. لا تقل هذا .. أنا ما نسيت كل شيء .. ولو عرفت بمغادرتكم لأجّلت ذهابي ..
ثم وجّه كلامه لي:
- وأنت يا (سامية) ... لماذا فررت إلى دار أبيك؟!
رغم دهشتي لجرأته تمالكت نفسي وأجبته ببرود:
- وما بقائي هناك .. كما قلت سابقاً .. إنها صفقة تجارية وقد انتهت .. أليس كذلك؟
أجاب بعتب:
- لا .. ليست كذلك .. فأنا لا أزال متمسكاً بك كزوجة لي .. ولن أفرّط بك أبداً .. وإذا رفضتِ ... فالقانون في صفي ...
دهش الجميع لكلامه، فقلت:
- ولكن ألم تخبرنا منذ البداية .. عندما جئت مع المرحوم ... أنك ..
لم يدع لي الفرصة للكلام قائلاً:
- ذلك أمر قد مضى ... أما الآن فأنا أريد طلب يدك من جديد ...
التفت إلى أبي:
- ماذا تقول يا عمي .. أتجدني صهراً مناسباً لك؟
بفرح غامر أجابه أبي:
- ونعم الصهر أنت يا ولدي .
ضحك (حسن) وأمي بفرح فأكمل (سامي):
- توقّعت موافقتكم لذا أخبرت الجميع أن يحضروا عصر هذا اليوم لإجراء مراسم الخطبة ...

ضج الجميع بالضحك .. عجبت كثيراً .. إن لـ (سامي) شعبية واسعة في دارنا قلت:

– ما هذا؟ وافق الجميع .. إلا أنا ... ولم يسألني أحد ما رأيي!

عبست أمي وجهها ونهضت مستدعية أبي لمساعدتها في تهيئة ما يجب لاستقبال الضيوف الأعزاء نهض أبي وهو يقول:

– هذه المرة إذا رفضت (سامي) سأتبرأ منك ..

وبقي (حسن) مع (سامي) .. سألني (حسن):

– ولماذا ترفضينه؟ لا سبب يدعوك لذلك؟

– إنها مسألة تخصني أنا وحدي ... ولا يوجد إجبار في الأمر هذه المرة ..

أراد أن يناقشني (حسن) فقاطعه (سامي):

– دعها يا (حسن) .. لها الحق في الرفض .

ثم وجه كلامه لي:

– لكنك وعدتني أن تستمعي لي .. أليس كذلك؟؟ إذن لا تصدري قرارك قبل ذلك ...

ذكرت ذلك فطأطأت رأسي علامة قبولي ذلك، عندما رفعت رأسي لم أر (حسن) ... وبدأ (سامي) كلامه بسؤالي:

.(سامية) .. لماذا تكرهينني إلى هذا الحد؟!

– أنا ... أنا أكرهك .. أنت مخطئ يا (سامي)!!

لمع في عينيه بريق الفرح:

– إذن .. لماذا انتهزت فرصة خروجي وفررت ...

– ظننتك لا تهتم لذلك ...

بعتب قال:

– أحقاً يا (سامية) .. أحقاً أنا لا أهتم بوجودك أو بعدمه .. هل .. هل تعنين أنك لم تحسّي بي أو بمشاعري تجاهك ... أحقاً لا تعلمين ما أحمله لك في قلبي من حب طاهر واحترام وإعجاب .. ألا تملكين حاسة سادسة ترشدك!

– وما فائدتها إذا كنت تريد الزواج من (نادية) أو (نبوغ) ... ألا تريد ذلك الآن؟!

ضحك قليلاً وقال:

– أعترف أنني مخطئ ما كان يجب أن أثير غيرتك ضدي إلى هذا الحد .. ولكن ما العمل .. أنت لا تفصحين بشيء من مشاعرك، ولا أنا أستطيع البوح لك بذلك .. ثم إني جننت لغيابك .. صرت لا أراك في الدار أبداً، ولم تعودي تزورين جدّي كالسابق .. كلما بحثت عنك لا أجدك .. لذا أردت أن أعرف رأيك بي قبل أن أطلب يدك ثانية .. وصادف أن (نادية) قد حضرت إلى دائرتي صباح اليوم السابق ففكرت أن أفتعل حيرتي في أمرها لأثير بذلك غيرتك منها .. وكنت قد رفضت عرضها في نفس الوقت وانتهت المشكلة بالنسبة لي .. توقعت أن تمنعيني من خطبتها لأسباب واهية فأفهم منها حقيقة مشاعرك نحوي ... لكنك أبَيت إلا أن تفلسفي المشكلة وأخذت تتحدثين في الموضوع بجديّة أعجبتني .. وفهمت من حديثك ذلك وجهة نظر لطيفة .. ولم أفهم رأيك بي .. هل تبادليني المشاعر أم .. أنك قد تغيّرت في فترة الانعزال تلك .. وكاد يخيب أملي، لولا أني ذكرت حديثك ذات مرة ...

– أي حديث؟

– أتذكرين عندما ضحكت من (لمى) ... عندما خافت عليّ من (نادية)!!

– نعم .. نعم أذكر ذلك .

– فهمت أنك لا تعتبرين (نادية) غريمتك ... فوجدت الحلّ في إنسانة تحبينها وتحترمينها مثل صديقتك تلك .. ما كان اسمها .. آه .. نعم (نبوغ) .. وحصل ما أردته .. ورأيتك تتخلين عن المنطق الذي التزمته طوال الساعة وثرتِ ... ولو أغظتك قليلاً أيضاً، لشتمتني وربما ... كسرت رأسي بالكرسي ..

ضحكت، ثم قلت:

– إذن .. لم تكن تريد خطبة أية واحدة منهما؟! وأنا التي صدقتك!! لعلي بدوت سخيفة بنظرك، ظننتك غضبت مني .. هل آلمتك بكلامي؟!

– على العكس .. لكني عندما رأيت ثورتك تلك خفت عليك .. فأنا لم أرك ثائرة هكذا من قبل! أشفقت عليك لأني آلمتك .. إنك لم تشعري بي عندما تبعتك لانشغالك بالبكاء والنشيج .. تلك اللحظة، لحظة خوف وسعادة بالنسبة لي .. سعادتي لتيقّني من مبادلتك لي المشاعر؛ وخوفي عليك ... انتظرتك صباح اليوم التالي كثيراً .. حتى أني لم أذهب لعملي .. ولم يخطر ببالي أنك ربما غادرت المنزل من الباب الثاني .. طرقت باب غرفتك كثيراً فجاءت (لمى) تفتح لي من داخل غرفتك .. عجبت لذلك كثيراً وسألتها عنك .. أخبرتني أنك الآن في الجامعة ... لم أصدق كلامها ... ذهبت إلى الجامعة وهناك لمحتك ... وقد شاهدتني وتجاهلتني .. أليس كذلك؟

– نعم ... لحظتك صباحاً ولم تدر أنت .. خمّنت أنك ربما تنتظر خروجي فأحببت أن أغيظك ...

– أيتها الماكرة .. لا تعلمين مدى قلقي عليك آنذاك .

– حقاً .. ولماذا؟

صمت قليلاً ثم قال:

– إن توضيح الواضحات من أصعب المهمات .. اسمحي لي أن أقول لك أني معجب بك .. ليس في الفترة الأخيرة عندما تبدلت شخصيتي فقط .. بل .. منذ .. اليوم الأول .. عندما حضرت مع المرحوم جدّي .. أتذكرين أنك رفضت مصافحتي ...!

– نعم .. أذكر ذلك ..

– لقد أيقظت فيّ شيئاً نائماً ... لم أعترف بوجود فتاة شابة ترفض المصافحة .. فأنا أعيش في جو لا يحرّم هذه الأمور .. تساءلت في نفسي عن السبب وأخذت أفكر في تدينك أهو حقيقي أم زيف وخداع .. فلماذا تحرم الفتاة نفسها من التباهي والتفاخر بجمالها أمام الآخرين؟ ولماذا لا تحاول استقطاب الأنظار إليها وهي على هذا القدر من الأنوثة؟! لماذا لا تبرز مفاتنها؟! بعد أن تغيرت فهمت السبب .. فهمت أن هذه الفتاة وكل الفتيات أمثالها ... يحببن الله عز وجل ... أكثر من أنفسهم ويذبن في طاعته، وبذلك ينجو المجتمع من الانزلاق إلى الرذيلة، وتستقر الأسرة ولا تعصف بها العواصف ... عندما عدت إلى البيت بعد المقابلة الأولى فكرت في زواجي منك .. هل سينجح؟! أحسست بصراع داخلي .. أنا أعيش ضمن عائلة تختلف عنك مائة في المائة، فكيف يمكنني الانسجام معك؟! فكرت ... أن أختبرك .. لأني حقيقة لم أعترف بإمكانية وجود فتاة جميلة ذات شخصية متميزة في بيئة غير بيئة العاصمة ... خاصة أني كنت أعتبرها إنسانة غير مثقفة إطلاقاً ... أردتك لي زوجة! ولكن كالباقيات وخمنت أنك لن ترضي بالتبرج ... وأنا أكره الخداع ... فارتأيت أن يكون زواجاً صورياً أفهمك خلال العام عن قرب فأقرر الزواج منك أو عدمه .. إذ لربما كنت معقدة كما قالت عنك أمي حين أخبرتها عنك أول مرة .. وأنا أحتقر نفسي إن خدعت الفتاة بالزواج وأنا مصمم على الخلاص منها بعد عام .. ولا أريد أن أكون مزواجاً فهذا أمر لا يتناسب وشخصيتي ... ولدى حضورك إلى دارنا .. تفاجأت بدماثة أخلاقك وطيبتك ... تواضعك، محبتك للآخرين ..

وجدتك إلفاً مألوفاً .. لك رأي في كل شيء يدور من حولك .. لا تنزوين في ركن من الحياة ... بل أنت محور من محاور الحياة تشاركين الآخرين فيها ... وتفرضين وجودك عليها ... و ...

أحسست بالخجل لإطرائه ففضلت أن أحول تفكيره بسؤالي:

– لكنك كنت كثير الغضب والخصام معي قبل مرافقتك لـ (حسن)؟؟

– ولم لا أكون عصبي المزاج وأنا أعيش مشكلة .. لم أتوصل إلى القرار فأرتاح ... دائم القلق ... فأنا أريدك لي زوجة وفي الوقت ذاته لا أريدك ... ولا أريد أن تخطئي في أمر ما فأكرهك أو أجد لنفسي مبرراً لرفضك .. وأكرهك لأنك أجبرتني على الاهتمام بك ... وإن كنا متناقضين بالأفكار والمعتقدات .. كلما كنت بقربي أو في نفس الغرفة أو المحل .. أحس بالحياة بدونك مستحيلة ... حتى وإن كنت مخالفة لآرائي وما درجت عليه .. وعندما لا أجدك .. أعود إلى ما رسمته في خيالي للزوجة المثالية كما كنت أتصورها ... متبرّجة .. تلاطف الأصدقاء ... وأفخر بجمالها على باقي الرجال .. تفكير سقيم ... أبعد ما يكون عن الشهامة والغيرة ... هذا التفكير نبع من ضياعي وضلالي آنذاك .. حياتي قبلك رتيبة مملة ... أنت التي سببت لي ذلك الصراع ... إصرارك على مبادئك ... صلابتك أمام الإغراءات ... أية فتاة في مثل موقعك كانت ستميل إليّ بسهولة إن حاولت استمالتها وستتودد إليّ خاصة وأنا أتكبر عليها وأظهر عدم الاهتمام بها ... إلا أنك كنت طاهرة .. كملاك بريء ... مما زاد الصراع في داخلي .. فمثلاً عندما ناقشتك حول سماع الأغاني .. أدركت لحظتها ... أن الله أرسلك لهدايتي ... وقبولك الزيجة لهذا السبب ... لكني تراجعت ثانية وقلت ربما هي فتاة طماعة غرتها النقود التي وعدها جدّي بها .. فأبعدتك من ذهني ... ولما اكتشفت أنك ضحّيت بنفسك في سبيل إنقاذ عائلتك واستنكافك في الطمع في نقودي واعتمادك على مرتبك دون أن تحاولي استغلالي ... سموت في نظري وأضحيت في مستوى الملائكة ... إن تمنّعك عن الاستزادة في الحديث معي عكس الفتيات اللواتي التقيتهن سابقاً .. كان يحطم أعصابي ويجعلني أعيش في دوامة ... أردت أن أكون أنا الرافض لك جملة وتفصيلاً فإذا بك لا تأبهين لذلك أبداً .. إحساسي أنك لا تميلين إليّ آلمني كثيراً .. لم أفكر سابقاً في الاقتران بإنسانة مثلك ... أما أنت ففرضت نفسك عليّ .. أنت محبوبة من قبل جدّي ... والمفضلة لديه .. وأنا أحبه أيضاً ... ولكن على طريقتي ... يبدو أن حبه لك قد أثّر فيّ أيضاً وجعلني أنظر إليك بعينيه المحبّتين ... ثم أعود لنفسي وأراك لا تناسبيني رغم رجاحة عقلك .. حتى جاءني الفرج على يدي (حسن) ... عندما بدأت أتفهّم ديني العظيم .. انقشعت الغشاوة عن عيني .. وبدت لي المساوئ التي كنت أعيشها ... عرفت صراطي المستقيم الذي يجب السير عليه ... تغير منظاري للحياة ككل .. لا أخفي عليك أن مرحلة الانتقال تلك كانت من أصعب المراحل التي مررت بها في حياتي ... عانيت الكثير لأستجمع شجاعتي وأصمم على المضي في الطريق القويم ... بعد تلك الفترة فقط .. أحسست بالاطمئنان والراحة ... واستمتعت بها .. وتوصلت إلى اتخاذ قرار بشأنك ... قررت الاحتفاظ بك ...

وصمت يفكر والارتياح باد على وجهه ...

وفجأة قال:

– لقد آذيتك كثيراً فيما مضى ... أليس كذلك ... سامحيني ...

– لا عليك ... لم يكن شيئاً ذا بال ... فقط أرجو ألا تصفعني مرة ثالثة؟!

لم يجب، بل أخرج من جيب جاكتته علبة صغيرة أعطاني إياها وهو يقول:

– افتحيها يا (سامية) ...

قلت: بسم الله الرحمن الرحيم وبدأت أفتحها ودهشت لرؤية خاتم ماسي يتلألأ بشدة يخطف الأبصار، سألته بتغاب:

– ما هذا؟

– إنه الخاتم الذي أوصاني جدّي بشرائه لخطبتك، هل تذكرين؟!
– و .. لكن!
– ماذا؟ ألا يعجبك؟
– على العكس؟ .. ولكن هذا غال ولا أستطيع قبوله .. ثم ... ثم .. إني لم أوافق بعد ...
– أحقاً ما تقولين؟ أبعد أن فهمت حقيقة مشاعرك تحاولين خداعي؟ هل أستطيع معرفة السبب؟
– إنك تخفي عني الكثير، ولم أفهمك كما فهمتني أنت!!
– اسألي ما شئت ليزول كل غموض لديك ..
– حسناً .. لنبدأ .. من ... من .. من ماذا؟
– أسرعي بسؤالك لأني أريد أن أصلي قبل حضور الأهل ... هيا ...
– حسناً ... لماذا تأثّرت عندما علمت بدعوة (لمى) لـ (نادية) وأمها في البداية؟ ... كلا .. كلا .. لقد فهمت .. كان ذلك بسبب معرفتك لتوّك بزواج عمي من (أم نادية) ...
ضحك كثيراً ثم قال:
– أهذا هو كل ما لديك؟ ... أنا أسألك إذن .. لماذا اختفيت فترة طويلة ترفضين حتى مجرّد مشاهدتي أو التحدّث إليّ أو التواجد على مائدة الطعام .. حتى اضطرتني إلى ملاحقتك في الجامعة؟!
– لا .. شيء ... كنت أحاول التركيز على المواد الدراسية فقط ...
– وما الذي شتّت تفكيرك وأفقدك التركيز عليها .. أو من الذي؟!
طأطأت رأسي خجلاً أخفي ضحكتي ...
أكمل:
– لقد فعلتها أنا أيضاً عندما عشت فترة صراع مع نفسي .. بعد أن فهمت رؤيتك لزوج المستقبل .. أحسست بفشل وإحباط كبيرين لكوني لست في موضع اهتماماتك .. انطويت على نفسي محاولاً نسيانك ..
قلت:
– فهمت الآن لماذا كانت ردود فعلك تجاهي قاسية وبعيدة عن المنطق ...
– وفهمت أنا أن هنالك من شتت تفكيرك فحاولت التعرف عليه ... أهو أنا وخاصة بعد أن غيرت سبيلي في الحياة .. أم (منير) مثلاً!! لذلك أغظتك بالحديث عن (نبوغ) .
وفجأة قال:
– لماذا لا تخبريني برأيك وتحضرين لي سجادة الصلاة؟ ..
ابتسمت ونهضت قائلة:
– سأحضرها لك ..
قال:
– تمهّلي ... ورأيك فيّ .. لم أسمعه!!
قلت بحياء وأنا أهرب:
– أنا لا أستطيع أن أخالف أبي ...

* * *

مضت على هذا الحدث سنوات سعيدة ... تزوج خلالها (حسن) من (لمى) واختار (سمير) لحياته شريكة مناسبة أسعدته وأنجبت له أطفالاً ثلاثة، جعلت حياته مملوءة بالسعادة، وزاد التزاور بين عائلتينا وعائلة عمي وقويت الأواصر فيما بين الجميع خاصة بعد أن اشترك (سامي) و (سمير) في شركة المقاولات الضخمة ... وقبل بضعة أيام كنت و (سامي) نحتفل بمناسبة حصولي على شهادة الدكتوراه وخرجنا نتنزّه في الحديقة العامة تسبقنا ابنتنا (زينب) ببضع خطوات ... كنا نتحدث أنا و (سامي) كالعادة ولا ندع (زينب) الطفلة الصغيرة ذات الخمس سنوات تغيب عنا .. وأخذنا نضحك من زيّها .. فقد أصرّت أن ترتدي فوق بدلة ملابسها .. إيشارب أتقنت إخفاء شعرها فيه تحاول التشبّه بي .. فجأة ركضت نحو طفل في ضِعف سنّها تقريباً .. كان يمسك بيده حجراً صغيراً يحاول رميه على قطة صغيرة تموء وتحاول الاختباء منه .. وبصوتها العالي الرخيم وقفت تنصحه وتشير بسبابتها إليه:

– لا تفعل هذا .. لا تضربها .. هذا حرام .. ألا تعرف ذلك .. ألا تخجل من نفسك؟ أنت بهذه الحجارة تحاول القضاء على هذه القطة المسكينة.

ثم تركَته وركَضت نحو القطة تحملها بيدها تربت على رأسها في حنان ... وقد لفّت القطة ذيلها حول نفسها وأغمضت عينيها شاعرة بالأمان بين يدي (زينب)، صاح الطفل متعجّباً:

– ما هذا ... لقد أفسدت عليّ متعتي ..

– حرام .. قلت لك حرام .. لا يجوز إيذاء الحيوانات .. مفهوم؟!!

– أف .. لك .. ما أطول لسانك!

علّق (سامي):

– من شابه (أمه) فما ظلم .

....

تمت بحمد الله

صدر للمؤلفة :

1. سامية .
2. البحث عن عيون خضراء .
3. جليد في الذاكرة .
4. أسيرة بلا قيود .
5. مخالب الساحرة ج1 .
6. مخالب الساحرة ج2 .
7. مخالب الساحرة ج3 .
8. غداً يصلي المسيح (ع) خلف الإمام المهدي (ع).